تفسير

سورة الفاتحة وجزء عم

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى / الثانية

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م / ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٨/١/٣٩)

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٦٣٨-٤٨-١ (ردمك)

من منشورات

جمعية المحافظة على القرآن الكريم

المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: ٤٦٢٨٣٣٤ ٦ ٩٦٢+ - فاكس: ٤٦٢٨٣٣٦ ٦ ٩٦٢+

ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)

عمان - الأردن

www.hoffaz.org

E-mail: hoffaz@hoffaz.org

تفسير

سورة الفاتحة وجزء عمّ

إعداد

أ.د. أحمد فريد أبو هزيم أ.د. أحمد خالد شكري

الجامعة الأردنية كلية الشريعة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي وفق من شاء لفهم ما أنزل من الآيات البينات، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه الذين اجتهدوا في فهم ما أراده الله تعالى من القرآن الكريم، رضي الله عنهم، وجعلنا من السالكين منهجهم، والمتبعين طريق هدايتهم، حتى نسعد كما سعدوا، وننال رضى الله تعالى، وبعد.

فهذا تفسير سورة الفاتحة والجزء الثلاثين (جزء عمّ) وقد خصصناهما بالتفسير لكثرة الحاجة إليه، وقد تعددت الكتب في تخصيص سورة الفاتحة وفي تخصيص هذا الجزء بالتفسير، منها: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب الحنبلي، وتفسير الفاتحة للإمام محمد عبده، وتفسير الفاتحة للإمام محمد بن عبد الوهاب، وتفسير سورة الفاتحة للشيخ عبد الله بن دهيش، وتأملات في سورة الفاتحة للدكتور عبد الله بصفر، وتفسير جزء عمَّ للإمام محمد عبده، والمفصَّل في تفسير جزء عمَّ، والمهذَّب في تفسير جزء عمَّ، كلاهما للشيخ علي بن نايف الشحود، ودروس في تفسير جزء عمَّ للدكتور يوسف القرضاوي، وتفسير جزء عمَّ للشيخ عبد الملك القاسم، وتفسير جزء عمَّ في سؤال وجواب للشيخ مصطفى بن العدوي، والقول المبين في تفسير الجزء الثلاثين للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، والنور الباهر من كلام العلي القاهر للشيخ فيصل بن عايد الخطابي،

والمعين على فهم الجزء الثلاثين للدكتور زيد عمر عبد الله، وتفسير جزء عمَّ للدكتور مساعد الطيار.

ويرجع إفراد سورة الفاتحة بالتفسير لأهميتها وفضلها، فهي أفضل وأعظم السور، والتي تُقرأ في كل ركعة من الصلاة، والتي تحوي غزير المعاني وخلاصة الكتاب العزيز، كما يرجع إفراد جزء عمّ بالتفسير إلى أسباب عديدة، منها؛ أنه يضم مجموعة كبيرة من قصار السور، ولما كان معظم الناس يميل في الدراسة والتعلم إلى البدء بما هو أيسر وأخف فإن كثيرا من الناس يبدؤون دراسة القرآن - كباراً وصغاراً - من هذا الجزء، نظرا لقصر سوره وقصر آياتها، وفي مثل هذا الأسلوب في البدء تيسير وسهولة عليهم في التعلم، ويقف عدد من الناس عند هذا الجزء ولا يتجاوزه تعلما وحفظا وتلاوة في الصلوات، وهذا من قصور الهمم، وغلبة الفتور، كما أن هذا الجزء حوى خلاصة ما في القرآن الكريم من حقائق العقيدة ومكارم الأخلاق وأصول الدعوة، وتضمن توجيهات وأوامر ترتقي بالإنسان وتجعله في منزلة ومقام متميز، ولذا صحّ أن يوصف جزء عمَّ بأنه جزء رفعة الأمَّة، والارتقاء بالهمَّة، وإزالة الغُمَّة، كما تمتاز آيات هذا الجزء بقوة العبارة وجزالة اللفظ، وسرعة الإيقاع، مما يجعل له تأثيراً كبيراً وقوياً على قارئيه ومتعلميه، ومن هنا كان هذا الجزء متميزاً في هذه الجوانب مما جعل الانتباه يتوجه إليه والرغبة في بدء تعلم القرآن منه.

وحاولنا جعله ميسراً مختصراً ليتوافق مع ما يدرسه طلابنا في كليات الشريعة تسهيلاً لهم في المراجعة، وتيسيراً عليهم في المذاكرة، ولينا سب من يقرؤه من غير المتخصصين.

وقد كان منهجنا في التفسير:

(١) إيراد تمهيد قبل تفسير السورة يتضمن أسماءها ومكان نزولها وعدد آياتها وفضلها ومقصدها ومناسبتها لما قبلها - باستثناء سورة الفاتحة والنبأ - وسبب نزولها إن وجد.

(٢) بيان معاني الألفاظ الغريبة.

(٣) تقسيم الآيات إلى مقاطع بحسب المعنى في السور التي تحتاج إلى ذلك.

(٤) تفسير الآيات بإيجاز، بعبارة مختصرة سهلة، وذكر ما تدعو إليه الحاجة من: أوجه القراءات، ومسائل النحو والإعراب والقضايا البلاغية، مما يسهل على الطالب فهم الآيات وإدراك معناها.

(٥) استنباط بعض الفوائد ولطائف التفسير من الآيات، وترك استنباط باقيها للطلبة.

هذا وقد حرصنا على الالتزام بهذه الضوابط قدر الإمكان، في ضوء ما ذكره المفسرون قديماً وحديثاً حرصاً منا على أن يكون هذا التفسير أقرب إلى تحقيق الهدف من إصداره، من حيث السهولة واليسر، وقد رجعنا في إعداده إلى عدد من كتب التفسير رغبة منا في إثراء المادة، ودقة المعلومة، وتركنا توثيق النقل منها غالبا لكثرة مواضعه ولتصرفنا في أغلب العبارات، وحرصنا على توثيق رواية الأحاديث النبوية لأهمية ذلك ولبيان درجة الحديث صحة وضعفاً.

وقد احتجنا عند تقديمه للطبعة الثانية إلى مراجعته عدة مرات وإجراء تعديلات وزيادات فيه بهدف تصويب بعض ما حصل في الطبعة الأولى من

خطأ أو قصور أو نقص، وللارتقاء به ما أمكننا، ولا نزعم أنه بلغ الغاية المتوخاة.

نسأل الله - سبحانه - أن يكون هذا التفسير نافعاً للجميع، مؤدياً الغرض من تسطيره، وأن يوزعنا شكر ما أنعم به علينا، وأن يغفر زلاتنا، ويقيل عثراتنا، إنه سميع الدعاء، والحمد لله أولاً وآخراً.

كُتبت مقدّمة الطبعة الثانية في الدوحة

بتاريخ ٢٦/ ٧/ ١٤٤١هـ

الموافق ٢١/ ٣/ ٢٠٢٠م

تفسير سورة الفاتحة (١)

تمهيد:

تضمنت سورة الفاتحة أهم القواعد والأسس التي قامت عليها رسالة الحق، على صغر حجمها، وقلة آياتها، كما أنها اشتملت بوجه إجمالي على أهداف الدين ومقاصده من توحيد، وأحكام، ووعد ووعيد، وغيرها، لذا كان الأمر بقراءتها في كل ركعة في الصلاة.

أسماؤها: لما تضمنت هذه السورة ما لا تتضمنه المجلدات من المقاصد والغايات كثرت أسماؤها، ومن أشهرها:

«الفاتحة أو فاتحة الكتاب»، وهو أشهر أسمائها، وسميت بذلك لأنه تفتتح بها قراءة القرآن لفظاً، وكتابة في المصحف خطّاً.

«أم القرآن أو أمّ الكتاب» سميت بذلك لاشتمالها إجمالاً على الأهداف والمقاصد التي ذكرت فيه تفصيلاً.

«السبع المثاني والقرآن العظيم» لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «هي السبع المثاني، والقرآن العظيم»[1]، وسُميت بذلك لأنها سبع آيات، ولأنها تكرر وتُثنَّى في الصلاة، وسُميت القرآن العظيم لأن فيها خلاصة معناه ومقصده، ومن المشتهر تسمية الجزء بالكل والعكس.

«الشفاء»، و«الواقية»، و«الرقية»؛ لأنها يُرقى بها وتقي وتحمي من يقرؤها ويشفى بإذن الله، كما ثبت في حديث أبي سعيد الخدري[2] في فضلها.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري، برقم ٤٤٧٤.

(٢) الحديث رواه البخاري في مواضع عديدة، منها برقم ٢٢٧٦.

«الصلاة» و«الكافية» لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها في الصلاة، فقراءتها في الصلاة ركن بخلاف غيرها من السور، وورد تسميتها بالصلاة في الحديث القدسي، الآتي ذكره في فضلها.

«تعليم المسألة»، لأن فيها تعليم المؤمنين بشكل غير مباشر كيف تكون المسألة والدعاء، وذلك بتقديم أمرين على السؤال هما: الحمد والثناء على الله، وإظهار التذلل والخضوع والحاجة إليه.

نزولها: اختلف العلماء هل هي مكية أم مدنية؟ والرأي الراجح عند المحققين من العلماء: أنها نزلت بمكة، وهي من أوائل ما نزل من القرآن. ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧] يعني فاتحة الكتاب وهو ما فسّر به النبي ﷺ الآية بقوله: «هي السبعُ المثاني وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الذي أوتيته»[(١)]، وسورة الحجر مكية بالإجماع.

ويؤكده أن فرض الصلاة كان بمكة، ومما هو معلوم أنه لم يكن في الإسلام قط صلاة بغير الفاتحة، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[(٢)]، فترجح بذلك مكيتها.

عدد آياتها: هي سبع آيات بلا خلاف، ولكنَّ علماء العدد اختلفوا في البسملة هل هي آية منها أو ليست آية، فعند المكيين والكوفيين تعدّ البسملة الآية الأولى من السورة ولا تعدّ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية مستقلة وتكون جزءاً من الآية السابعة، وباقي علماء العدد لم يعدّوا البسملة آية،

(١) رواه البخاري برقم ٤٤٧٤.

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٤٧، وأحمد برقم ٢٢٦٧٧، وهو صحيح، ورواه غيرهما بألفاظ قريبة.

وعدّوا ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ آية مستقلة وهي السادسة[١]، ونحن في رواية حفص عن عاصم نتبع العدّ الكوفيَّ.

فضلها: ورد في فضل سورة الفاتحة كثير من الأحاديث، نقتصر على اثنين منها.

عن أبى سعيد بن المعلى - رضي الله عنه - قال: «كنت أُصلّي في المسجد، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿ٱستَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم﴾، ثم قال لي: لأُعلمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله، ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن، قال: ﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيته»[٢].

وعن أبى هريرة ، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج (ثلاثا): غير تمام» فقيل لأبى هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى على عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ﴾، قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ﴾،

(١) للتوسع في معرفة تفاصيل علم عدّ الآي، ومواضعه، وأسباب اختلاف العلماء فيه، يُنظر كتاب: الميسر في علم عدّ آي القرآن الكريم، لأحمد شكري، من إصدارات معهد الإمام الشاطبي، جدة، ط الثانية، ٢٠١٦م.

(٢) رواه البخاري في عدة مواضع من الجامع الصحيح، أحدها برقم ٤٤٧٤.

قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1].

مقصدها: اشتملت سورة الفاتحة مع وجازتها وقِصَرها على مقاصد القرآن الكبرى، وهي التوحيد والإيمان باليوم الآخر، وإخلاص العبادة لله، والاستعانة به وحده، والتزام طريق الحق وسبيل المهتدين، ويمكن تلخيص مقصدها في عبارة: تحقيق العبودية لله وحده.

معنى الاستعاذة: قبل الشروع في تفسير السورة نبين معنى الاستعاذة، وهي عبارة: أعوذ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ.

أعوذ: فعل مضارع، معناه ألتجئ وأحتمي بالله سبحانه، وفائدة الفعل المضارع الدلالة على التجدّد.

الشيطان مشتق من شطن إذا بعُد، وهو: كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء.

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير.

والمعنى: ألتجئ إلى الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي.

فإن قيل: لم خصت القراءة بطلب الاستعاذة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ ﴾[النحل] مع أنه قد أُمر بها على وجه العموم في جميع الشئون؟

(١) رواه مسلم برقم ٩٠٤.

قيل: لأن القرآن مصدر الهداية، والشيطان بطبعه يقف للإنسان بالمرصاد في هذا الشأن على وجه خاص، فيثير أمامه ألوانا من الشكوك والظنون فيما يقرأ، فيفوت عليه الانتفاع بهدى الله وآياته، فعلّمنا الله كيف نتقي ذلك كله بالاستعاذة.

وقد أجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن، وجمهورهم على أن الإتيان بها قبل القراءة سُنّة.

التفسير:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: الاسم: لغة: مشتق من السُّمُوّ، وهو العلوّ والرفعة، فقيل: اسم، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به، والمراد به: اللفظ الذي يدل على ذات أو معنى.

وتكتب «بسم» في البسملة بلا ألف لكثرة الاستعمال، وتثبت الألف في غير البسملة، نحو قولك: لاسمِ الله حلاوةٌ في القلوب.

وعامل الجار والمجرور «بسم»؛ فعل مضمر تقديره: بسم الله أقرأ أو أبتدئ، أو اسم مضمر تقديره: بسم الله قراءتي أو ابتدائي، وسبب تقديم البسملة على الاسم أو الفعل المقدّر: الاهتمام والاختصاص، والمعنى: أبتدئ قراءتي متبَرِّكاً ومتيمّناً باسم الله المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص.

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾: علَم على ذات الخالق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي وهو غير مشتق عند

كثير من العلماء، وعلى القول بأنه مشتق اختُلف في مادة اشتقاقه: فقيل: مشتق من «أَلَه» بمعنى عبَد أي أنه المعبود المتضرَّع إليه في كل الأوقات، أو مشتق من «لاه» بمعنى: ارتفع أو بمعنى احتجب أي محتجب عن العقول إدراكه وعن الأبصار رؤيته. وقيل من «ولَهَ» بمعنى تحيَّر، لتحيّر الألباب في معرفته.

وإنما قال ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل «بالله»: للتفريق بين اليمين وبين التيمّن، فإنه لو قال: بالله أقرأ يحتمل أن يكون على قصد اليمين، ويحتمل أن يكون على قصد التيمّن بذكر الله، فلما قال: بسم الله تعين كونه يقصد التيمّن والتبرك، لأن باء القسم إنما تدخل على اسم من أسماء الله تعالى أو على صفة من صفاته ولا تدخل على لفظ الاسم.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: صفتان مشتقتان من الرحمة، ومعنى الرحمة في أصل اللغة: رقة في القلب تقتضي الإحسان، ولما كان هذا المعنى لا يليق أن يكون وصفاً لله تعالى، لذا فسرها بعض العلماء بما يوافق مذهب السلف وقالوا: هي صفة قائمة بذاته تعالى كيفيتها مجهولة، وإنما يُعرف أثرها الذي هو الإحسان.

والفرق بينهما: أن الرحمن جاءت على صيغة فعلان، والرحيم على صيغة فعيل، وكما هو معلوم في اللغة أن الأول أبلغ من الثاني، لأن فعلان لمن كثر منه الفعل وتكرر، على خلاف فعيل فهو لمن كثر منه الفعل، وعلى ضوء ذلك يكون معنى الرحمن: عظيم الرحمة، ومعنى الرحيم: دائم الرحمة.

وقيل في الفرق بينهما: أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة والإحسان، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان إلى

المنعم عليه، ومما يؤيد هذا القول ما ورد في القران الكريم، ففي الأول قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن]. وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، وغيرهما من الآيات، أما لفظ الرحيم فقد كثر في القرآن استعماله في وصف الفعل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب].

وجمع سبحانه بينهما: ليدل على أن الرحمة من صفاته الثابتة والمتجددة، وبيان أن رحمته مستمرة دائمة لا تنقطع.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾: افتتحت سورة الفاتحة - بعد البسملة - بالجملة الاسمية ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: لكي يعلمنا سبحانه أن الحمد لله حق يستحقه لذاته وهذا المعنى لا يتحقق إلا في الجملة الاسمية التي تدل على الثبوت، بخلاف الجملة الفعلية، فلو قال «أحمد الله» لم يدل ذلك على كونه مستحقا للحمد بذاته لأنها تدل على الحدوث والتجدد.

وكذلك لم تفتتح السورة بصيغة الأمر؛ لأن الأمر يقتضى التكليف؛ والتكليف قد تنفر منه النفوس أحيانا، وهذا ترفق بالناس، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من تكاليف، وفيه تعليم لأدب رفيع في التعامل بجعل الطلب بأسلوب غير مباشر.

ومعنى الْحَمْد: الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها. كالثناء على صفة من الصفات الذاتية كالعلم والصبر ونحوهما أو على العطاء والتفضل على الآخرين، ولا يكون الحمد إلا للحيّ العاقل.

والألف واللام في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ يفيدان الاستغراق، أي: أن جميع أجناس الحمد ثابتة لله مقصورة عليه. إذ هو الخالق لكل شيء، وكل حمد ليس لله

فهو بمنزلة العدم، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو في الحقيقة حمد لله، لأنه – سبحانه – هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه.

وخص هذا اللفظ دون الشكر والمدح؛ لأنه أعم وأولى منهما، ولكل لفظ من هذه الألفاظ دلالاته.

فالحمد يكون للمحمود على صفاته الذاتية وعلى عطائه. فأنت تثني على الله وتحمده لنعمه الواصلة إليك وإلى الخلق جميعا وتثني عليه بصفاته الحسنى الذاتية وإن لم يتعلق شيء منها بك، والحمد لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان.

أما الشكر فإنه لا يكون إلا على النعمة ولا يكون على الصفات الذاتية فإنك لا تشكر الشخص على علمه أو قدرته، وتشكره مقابل معروف أو إحسان أو خير وصلك.

وأما المدح فيكون للعاقل وغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله.

وجاء باسمه العلم (لله): لأنه إذا جاء بأي اسم آخر غير الله لدلَّ على أنه تعالى استحق الحمد فقط بالنسبة لهذا الاسم خاصة أو تلك الصفة،لكن عند ذكر الذات (الله) فإنها تعني أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته لا لوصفه.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الرَّبُّ مصدر «ربَّه يربُّه» إذا تعاهده بالتربية، والمراد به هنا: المالك والسيد والمربّي والمنعم فهو اسم من أسمائه ولا يطلق على غيره إلا مقيّدا فيقال: ربُّ الدار، أي: صاحبها ومالكها.

و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى لكن يُغلَّب العقلاء على غيرهم فيقال لهم العالَمون ولا يقال لعالم البهائم أو الجماد فقط.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: إيراد هذين الاسمين في هذا الموقع فيه حِكَمٌ سامية، من أظهرها:

أن وصفه تعالى بِـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قد يثير في النفوس شيئا من الرهبة، فإن التربية قد يصاحبها شدة وعقاب، لذا كان هذا التعقيب بكونه الرحمن الرحيم، لينفى بذلك هذا الاحتمال، وليُفْهِمَ اللهُ تعالى عباده بأن ربوبيته لهم تقوم على رحمته وشمول إحسانه. وفي ذلك حثٌّ لهم على حمده وعبادته بقلوب مطمئنة، ودعوة لهم إلى أن يقيموا حياتهم على الرحمة والإحسان، لا على الجبروت والطغيان.

كما جاءت قبل الإخبار عن ملكه سبحانه ليوم الدين تخفيفا من رهبة الملك في النفوس، وما يقع في يوم الدين من حساب وجزاء، فيطمئن قارئ السورة إلى أن رحمة الله تعالى سابقة وغالبة.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: في هذه الآية قراءتان: (مالك): بألف بعد الميم اسم فاعل من المِلك بكسر الميم، وهو التصرف في الأعيان المملوكة، و(مَلِكِ) بلا ألف من المُلك بضم الميم وهو التصرف بالأمر والنهي في المأمورين، وبالجمع بينهما يكون المعنى: أنه تعالى هو المدبر لأمور يوم الدين كلها، بما يشمل المملوكات المادية والمعنوية، فكل قراءة منهما تكمل معنى القراءة الثانية.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: اليوم في العرف: يشمل الليل والنهار معا، وقد يطلق على النهار وهو الوقت من طلوع الشمس إلى غروبها. وهذا المعنى ليس مرادا هنا لعدم حصول طلوع وغروب للشمس في ذلك اليوم، وهو يوم القيامة.

و﴿ٱلدِّينِ﴾: يقال: دُنته بما صنع، أي: جازيته على صنيعه والمراد: الجزاء خيرا كان المجزي به أو شراً.

والمعنى: أنه تعالى يتصرف في أمور الخلق يوم القيامة من حساب وثواب وعقاب، تصرف المالك فيما يملك، وتصرف المِلكِ فيما يأمرُ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾[الانفطار].

وخَصَّ إضافة الملك إلى يوم الدين مع أنه مالك الأمور كلها في جميع الأيام: لأن الأملاك يومئذ زائلة، ولا يدَّعِي أحد هنالك مُلكا، وهذه الآية تؤكد حصول المِلك والمُلك لله تعالى يوم القيامة، بعد أن تقرر بقوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حصول ذلك في الدنيا، فبين الآيتين تكامل وشمول.

والمتأمل في هذه الآية والمتدبر لها يراها خير وسيلة لغرس الإيمان العميق في قلب الإنسان، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يجازى فيه على عمله، وأن زمام الحكم في ذلك اليوم لله الواحد القهار، فإنه في هذه الحالة سيقوى على المراقبة لخالقه، ويجتهد في السير على الطريق المستقيم.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾: العبادة هي الطاعة مع التذلل والخضوع، والاستعانة هي طلب العون.

وقُدّم ﴿إِيَّاكَ﴾ وهو المفعول على ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾: لإفادة أن الله تعالى هو المختص بالعبادة والاستعانة، لذا لم يقل نعبدك ونستعينك لأنها لا تدل على تخصيص العبادة لله تعالى.

وكُررت ﴿إِيَّاكَ﴾ مع فعل الاستعانة فلم يقل «إياك نعبد ونستعين»: للتنصيص على التخصيص في كل من العبادة والاستعانة.

وقُدِّمت العبادة على الاستعانة لأنها أعم من الاستعانة وتشملها، ولأنها حق الله تعالى، وجرياً على ما انطبع في الغرائز من تقديم الوسيلة على الحاجة لأنه أنجع في حصول المطلوب، وأسرع لوقوع الإجابة، والعبادة إنما هي وسيلة للاستعانة، فالعبادة أولى بالتقديم.

وأطلق سبحانه فعل الاستعانة دون تحديد المفعول: لتشمل كل مستعان عليه.

وجمع بين العبادة والاستعانة: لأن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله إلا بإعانة الله له وتوفيقه.

وإنما قال: ﴿نَعْبُدُ﴾ بنون الجماعة ولم يقل «أعبد»، لأنه لو قال: «إياك أعبد» لكان تكبرا ومعناه أنا العابد، أما حين قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فمعناه إني واحد من عبيدك، وفي ذلك تواضع، ومن تواضع لله تعالى رفعه ومن تكبر وضعه الله تعالى، وفي استخدام ضمير الجمع إيماء لطيف إلى أن كل من يقرأ هذه الآية كأنه يتحدث باسم جميع العابدين والمستعينين بالله تعالى، وفي هذا تشريف وتكريم له، وتأكيد على اتحاد كلمة المؤمنين حتى إن أحدهم يتحدث باسمهم دون إذن منهم.

وإيثار الفعل المضارع على غيره للدلالة على الاستمرار والتجدد، فالعبادة لله والاستعانة بالله دائمتان مستمران بلا انقطاع.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ : الهداية: هي الدلالة الموصلة للبغية، وخصها بالذكر لأن أفضل شيء يطلبه العبد من ربه إنما هو هدايته إلى الطريق الذي يوصل إلى أسمى الغايات وأعظم المقاصد.

و﴿ ٱلصِّرَٰطَ ﴾: الجادّة والطريق، من سرط الشيء إذا ابتلعه، وسُمِّي الطريق بذلك لأنه يبتلع المارين فيه حيث يختفون عن الأنظار بعد سيرهم وحال ابتعادهم، وتبدل سينه صادا على لهجة قريش، ولمجانسة الطاء.

والفرق بين الصراط والطريق والسبيل: أن الطريق كل ما يطرقه طارق معتادا كان أو غير معتاد. والسبيل هو ما هو معتاد السلوك. والصراط هو ما لا التواء فيه ولا اعوجاج بل يكون على جهة القصد والاعتدال.

وفائدة وصفه بالمستقيم أن الصراط قد يطلق على ما فيه صعود أو هبوط، والمستقيم ما لا ميل فيه إلى جهة من الجهات الأربع، ومن عادة العرب أنها تستعيره فتستعمله في كل قول وعمل وُصِف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه.

والمراد بالصراط المستقيم : ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس عند القيام بها واتباعها إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول، فعن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحْه تَلِجْه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»[1].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ : معنى النعمة في قوله: ﴿أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾: لين العيش وخفضه، وأُطلق الإنعام ليشمل كل نعمة لأن من أنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته.

والغضب: ضد الرضا، والمراد بِـ ﴿ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم﴾: من عرف الحق ولم يتبعه، ومنهم اليهود ومن أشبههم.

ومعنى ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: الذين فقدوا الطريق السوي سواء سبقه معرفة للحق أو لم يسبقه.

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم ١٧٦٣٤، وهو صحيح.

والمراد بهم: من لم يعرف الحق، ومنهم النصارى ومن أشبههم. وقد ورد في حديث تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، وهو حديث ضعيف[١].

والمعنى: يا الله ثبتنا علي طريقك المستقيم، الذي يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة، واجعلنا من المداومين على المنهج القويم مع الذين أنعمت عليهم من خلقك، وجنبنا يا ربنا طريق الذين غضبت عليهم من الفرق الضالة كاليهود والنصارى ومن سار على طريقتهم بسبب سوء أعمالهم وانحرافهم عن القصد باتباعهم الضلالات والموبقات.

وأتى في وصف الإنعام بالفعل المسند إلى الله، لأن في ذلك تعليما لأدب جميل، وهو أن الإنسان يجمل به أن يسند أفعال الإحسان إلى الله، ويتحامى أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادرا منه.

وجيء بحرف (لا) في قوله ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ لتأكيد معنى النفي المستفاد من كلمة ﴿غير﴾.

ويسنّ لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها «آمين»، ومن أدلته ما ورد عن وائل بن حُجْر قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: «آمين» ومد بها صوته»[٢].

ومعنى آمين: اللهم استجب، وليس هذا اللفظ من القرآن ولذا لم يثبت في المصاحف، ومن فضائله ما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط برقم ٦٤١١، ونص على ضعفه محقق مسند الإمام أحمد في تعليقه على الحديث رقم ٢١٠٩٤ (٣٥/ ٢٠).

(٢) رواه أبو داود برقم ٩٣٣، والترمذي برقم ٢٤٨، وأحمد برقم ١٨٨٤٢، وهو صحيح.

«إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه»[١].

فوائد ولطائف:

١- توجيه العباد إلى البدء باسم الله وبالحمد.

٢- براعة الاستهلال في كتاب الله تعالى بسورة قصيرة فيها مجامع الخير، وعظيم المعاني وخلاصة ما في القرآن بإيجاز غير مخلٍّ.

٣- المستحق الحقيقي للحمد هو الله تعالى.

٤- تعظيم الله تعالى في قلب المؤمن باستشعار ربوبيته للعالمين ورحمته بخلقه وحكمه بينهم واستحقاقه العبادة وقدرته على الهداية والإضلال.

٥- إرشاد الخلق إلى سؤال الله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم.

٦- إخلاص العبادة لله تعالى وتوحيده بالألوهية، وتنزيهه عن كل نقص ووصفه بكل كمال.

٧- من الأدب عدم نسبة الأفعال السيئة إلى الله.

٨- يأنس المرء حين يسلك طريقا معمورا بأمثاله.

٩- أهمية استخدام أساليب التوضيح لتقريب الصورة وفهم المسألة، كما في الحديث عن ابن مسعود ، رضي الله عنه، قال: خطّ رسول الله ﷺ خطا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا»، قال: ثم خطّ عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو

(١) رواه البخاري برقم ٧٨٠، ومسلم برقم ٤١٠.

إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

١٠- الاعتناء بالاقتداء بالصالحين وأهل الخير، فهم المنعم عليهم الذين ندعو الله أن نكون مثلهم، ومن سبل ذلك الاقتداء بهم وفعل مثل فعلهم.

١١- أهمية مخالفة غير المهتدين من المغضوب عليهم والضالين في العقيدة والسلوك وسائر الأمور.

١٢- تعليم العباد أن يقدموا بين يدي دعائهم: تعظيمَ الله تعالى وتمجيده والثناءَ عليه، والتّذلّلَ إليه، وذلك أدعى لإجابة الدعاء.

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٤١٤٢، وبرقم ٤٤٣٧، ورواه الطبري، وأورده كثير من المفسرين، وهو حسن.

تفسير سورة النبأ (٧٨)

تمهيد:

أسماؤها: لهذه السورة عدة أسماء: ﴿ٱلنَّبَإِ﴾، و﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿عَمَّ﴾، و﴿ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ﴾، و«التساؤل»، وكلها واضح وجه التسمية بها.

نزولها: هي من السور المكية، وهي أول سورة في الجزء الأخير[1] من القرآن الكريم الذي يبلغ عدد سوره سبعاً وثلاثين سورة، معظمها مكية، وكلها تمتاز بقصرها، على تفاوت في هذا القصر، ومعظمها مشتمل على إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن البعث حق وأن هذا القرآن من عند الله، وعلى صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه. وتعدُّ هذه السورة أنموذجًا لموضوعات جزء ﴿عَمَّ﴾ وقد سمّي بهذا الاسم أخذا من اسم هذه السورة.

عدد آياتها: أربعون آية عند جمهور علماء العدد، وواحد وأربعون في العدد البصري والمكي.

---

(١) حسب التقسيم المشتهر في المصاحف وهو ثلاثون جزءاً، يضم كل جزء حزبين، ويضم كل حزب أربعة أرباع، وهو أحد اجتهادات العلماء في تقسيم القرآن من باب التيسير على الناس وتسهيل تعاملهم مع القرآن الكريم، وللاطلاع على تقسيمات أخرى يُنظر: جمال القراء للسخاوي ١/ ٣٨٧ -٤١٦.

مقاصدها:

- توبيخ المشركين على إنكارهم للبعث بدون علم، وتهديدهم بسوء المصير إذا ما استمروا في طغيانهم.
- إقامة الأدلة المتنوعة على وحدانية الله -تعالى - وعلى مظاهر قدرته.
- بيان ما أعده سبحانه للكافرين من عقاب، وما أعده للمتقين من ثواب.
- إنذار الناس بوجوب تقديم العمل الصالح من قبل أن يأتى يوم القيامة، الذي لا ينفع فيه الندم على ما فات.

كل ذلك بأسلوب بديع معجز، تخشع له القلوب، وتتأثر به النفوس، وتقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم.

سبب نزولها: لما بُعث النبي ﷺ ودعا إلى التوحيد وأعلم الناس بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم، يقولون: ما الذي جاء به محمد، وما الذي أتى به، فأنزل الله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ...﴾[1].

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾.

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾: لفظ (عمّ) مركب من كلمتين، هما حرف الجر «عن» و «ما» التى هى اسم استفهام، فأصل هذا اللفظ: «عن ما» فأدغمت النون فى الميم وحذفت الألف تخفيفا، وليتميز الاستفهام عن الخبر.

(١) جامع البيان للطبري ٢٤/ ١٤٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٣.

ومعنى التساؤل: أن يسأل بعض الناس بعضا عن أمر معين، على سبيل معرفة وجه الحق فيه، أو على سبيل التهكم.

ويعود الضمير في قوله ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: على أهل مكة، فقد كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، كما سبق في سبب النزول، ومجيءُ الفعل بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد لهذا التساؤل.

وصح عود الضمير إليهم مع أنه لم يسبق لهم ذكر، لأن المشركين معروفون من السياق، فهم الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم - على سبيل التهكم - عما جاء به النبى ﷺ، ولتكرر ذكرهم في القران الكريم مع ما في ترك ذكرهم من التحقير والإهانة.

وافتتح الله تعالى الكلام بأسلوب الاستفهام؛ لتشويق السامع إلى المستفهَم عنه، ولتهويل أمره، وتعظيم شأنه.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾: النبأ: الخبر مطلقًا، أو هو الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

والمراد به: يوم القيامة، هذا هو الأقرب، ويجوز أن يكون المراد به: القرآن الكريم.

ووصف - سبحانه - النبأ بالعظيم: زيادة في التهويل والتفخيم من شأنه.

وإيراد الكلام على هذا الوضع من السؤال والجواب: لأنه أقرب إلى الإيضاح، ولما فيه من التشويق، والمعنى: عن أي أمر يسأل بعض المشركين بعضا؟ إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم، والخبر الهام الذي جاءهم به الرسول ﷺ من أن البعث حق، ومن أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى ومن أن الرسول ﷺ صادق فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾: هذا وصف آخر للنبأ، تأكيدا لأهميته ومنزلته، والمراد بالاختلاف هنا: الاختلاف في مراتب إنكار البعث، فمنهم من كان يقطع القول بإنكاره، ومنهم من يشك فيه.

والتعبير بالاسم ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ للإشارة إلى ثبوت ورسوخ الاختلاف بينهم، وتقديم ﴿فِيهِ﴾ للاهتمام والاعتناء.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾: ﴿كَلَّا﴾ هنا وفي القرآن عموما تحتمل ثلاثة معانٍ: أولها: الزجر والردع، الذي يتضمن النهي بأسلوب قوي فيه مبالغة، ولما تكون بهذا المعنى توصل بما قبلها ويوقف عليها. ثانيها: بمعنى حقاً، وثالثها: بمعنى ألا الاستفتاحية، وفي هاتين الحالتين تكون متعلقة في المعنى بما بعدها لا بما قبلها، فيوقف على ماقبلها ويُبدأ بها. والمقصود بها هنا: ردع أولئك المتسائلين عن النبأ العظيم، وتوعدهم على اختلافهم فى شأنه.

أي: كلا ليس الأمر كما يتوهمه أولئك المتسائلون، من استهزائهم بما جاءهم به الرسول ﷺ ومن إنكارهم لكون القرآن الكريم من عند الله، أو لكون البعث حق، بل الحقُّ كلُّ الحقِّ أن الرسول ﷺ صادق كلَّ الصدق فيما يبلغه عن ربه، وأن هؤلاء المتسائلين سيرون عما قريب سوء عاقبة استهزائهم واختلافهم.

ومفعول ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: محذوف للتعميم والتهويل، أي: سيعلمون علم اليقين ما سيحل بهم من عذاب مقيم، وسيرون ذلك رأي العين عما قريب، والذي يدل على قربه استخدام السين بدل سوف.

وجيء بالجملة الثانية: لزيادة التهديد والوعيد، ولبيان أن الوعيد الثاني أشدُّ وأبلغُ من الوعيد الأول، وعلى ضوء هذا المعنى تكون «ثم» للتراخي الرُّتْبيِّ.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

وجه اتصال هذه الآيات بما قبلها: لما أنكر كفار مكة البعث قيل لهم: ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال قدرته، فما وجه إنكار قدرته على البعث، وما الإنسان إلا خلق من هذه المخلوقات، وكلها تدل على عظمته سبحانه وقدرته.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾: الاستفهام للتقرير، أي: لقد جعلنا - بقدرتنا الأرض كالفراش، لتتمكنوا من الاستقرار عليها، ومن التقلب فيها، كما يتقلب الطفل في مهده، أي: فراشه.

والتعبير بالجعل دون الخلق: لأن كونها مهادا هي حالة من أحوالها، تابعة لحصول الخلق ولاحقة له.

والمهاد: مصدر بمعنى الفراش الموطأ الممهد، ووصفت الأرض به على سبيل المبالغة في جعلها مكان استقرار الناس وانتفاعهم وراحتهم.

والنكتة البلاغية التي تضمنتها هذه اللفظة: أن الكلام جاء على سبيل التشبيه البليغ[1]، ومعناه: أن الأرض لهم كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينوّم عليه.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾: الأوتاد: جمع وتد، وهو ما يشد به الشئ حتى لا يتحرك، والكلام على التشبيه، والمعنى: أرسينا الأرض بالجبال كما

(١) التشبيه البليغ: هو ما حذفت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه.

يرسى البيت بالأوتاد، لئلا تميد أو تضطرب. كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥].

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾: هذه الآية معطوفة على قوله ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ..﴾ فإنه بمعنى: قد جعلنا، وفي الآية التفات من الغيبة في ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ إلى الخطاب للمبالغة في الإلزام والتبكيت.

الأزواج: جمع زوج. وهو اسم للعدد الذى يكرر الواحد منه مرة واحدة، والمراد به هنا: الذكور والإناث.

والمعنى: ومن مظاهر قدرتنا أننا خلقناكم - يا بنى آدم - زوجين، أي: ذكرا وأنثى، ليتأتى التناسل، وحفظ النوع من الانقراض، وتنظيم أمر المعاش فى الأرض، عن طريق استمتاع كل نوع بالآخر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ [الروم:٢١].

وقيل أزواجا: أصنافا في اللون والصورة واللسان.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾: السبات مصدر من سَبَتَ، أي: قطع، يقال: سبت فلان الشئ سبتا، إذا قطعه. ويصح أن يكون قوله سباتا من السبوت بمعنى الراحة والسكون، يقال: سبت فلان يسبُت، إذا استراح بعد تعب، ومنه سمّي يوم السبت، لأن اليهود ينقطعون فيه عن أعمالهم للراحة.

والمعنى: وجعلنا نومكم سباتا أي: قطعا للحركة، لتحصل لكم الراحة التي لا تستطيعون مواصلة العمل إلا بعدها. وهذه الحالة التي لا بد لكم منها، وهي الراحة بعد عناء العمل عن طريق النوم ثم استيقاظكم منه، أشبه ما تكون بإعادة الحياة إليكم بعد موتكم، والنوم نعمة عظمى

على الإنسان، فيه تنظيم لحياته، وإعادة لنشاطه وحيويته، وكان من حكمة الله تعالى أن جعل للنوم على الإنسان سلطانا لا يستطيع مغالبته وقهره، ولولاه لاختل نظام الحياة.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾: ذِكرُ الليل بعد النوم لوقوعه فيه غالبا، ووصفُ الليلِ بأنه لباس والنهارِ بأنه معاش لأن الشأن فيهما كذلك، إذ الليل هو وقت الراحة والسكون والاختلاء. والنهار هو وقت المعاش، لتحصيل الرزق والمنافع.

والمعاش مصدر ميمي بمعنى العيش، أو هو اسم زمان، أي وجعلنا النهار وقت بعثكم من نومكم، وسعيكم لتحصيل ما تعيشون به، وجعلناه مشرقا نيّرا مضيئاً لتتمكنوا من التصرف والحركة.

وورد الكلام على سبيل التشبيه البليغ؛ فلما كان الليل يغشى الناس في ظلمته فيغطيهم جعل لباسا لهم أي جعلنا الليل كاللباس لهم، وأما النهار وقت السعي والحركة والانتشار، فهو سبب للمعاش وموضع للحياة فالإخبار عنه بذلك مجاز علاقته السببية أو المحلية، وبين لفظي الليل والنهار طباق.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾: المراد بالسبع: السماوات السبع فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به، وتقديم ﴿فَوْقَكُمْ﴾ على المفعول للتشويق إليه.

و﴿شِدَادًا﴾: جمع شديدة: وهى الهيئة الموصوفة بالشدة والقوة، أو بمعنى غلاظا، والتعبير عن الخلق بالبناء لتبيين قوة خلقها ومتانتها وإحاطتها بالأرض، وفي الآية دليل على أن الناس وقت نزول الآية كانوا

يعرفون أن السماوات سبع، وقد سبقهم إلى ذلك قوم نوح كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح].

والمعنى: وخلقنا بقدرتنا التي لا يعجزها شئ، فوقكم - أيها الناس - سبع سماوات قويات محكمات، لا يتطرق إليهن فطور أو شقوق على مرّ العصور، وكرّ الدهور.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾: أي الشمس، ووصفت بكونها سراجا، لأنها كالمصباح فى إضاءته لما حوله. ووصف السراج بأنه وهاج، مبالغة فى شدة ضيائه ولمعانه، من الوَهَج - بفتح الواو والهاء - بمعنى شدة الضياء.

والنكتة البلاغية التي تضمنتها الاية: أن الكلام ورد على التشبيه البليغ، والمقصود منه تقريب صفة المشبه إلى الأذهان، وإلا فالشمس أعظم من كل سراج.

والمعنى: وأوجدنا - بقدرتنا - في السماء، سراجاً زاهراً مضيئاً، هو الشمس المتوهجة من شدة حرارتها وضيائها، والتي تشرق على هذا الكون فتحول ظلامه إلى نور، بقدرته تعالى، وهي من أعظم النعم على البشر، ولولا الشمس لاستحالت الحياة على الأرض.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾: السحب التي تحمل المطر، والمعصِرات جمع معصِرة، أي المحملة بالماء الكثير الذي حان وقت نزوله.

الثجاج: المندفع بقوة وكثرة، يقال: ثج الماء إذا انصب بقوة وكثرة.

﴿أَلْفَافًا﴾: بمعنى ملتفة بعضها مع بعض لتشعب أغصانها، وهو جمع مفرده: لفيف، أو لف بفتح اللام أو بكسرها أو بضمها، وقيل: لا مفرد له.

الحب: ما يقتات به كالحنطة والشعير ونحوهما.

النبات: ما لاساق له كالحشيش ونحوه.

ومعنى الجنات: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض.

وعبر بالفعل ﴿لِّنُخْرِجَ﴾ دون «لننبت»؛ لأن المقصود الإشارة إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض وهو المقصود من الكلام، ونسبة الفعل إلى الله تعالى لأنه هو سبحانه فاعل ذلك، أما الإنسان فإنه يرمي البذرة ويتعهدها بالسقي والرعاية ولا يملك أكثر من ذلك، والله الذي ينبتها ويجعلها تشق الأرض وتنمو وتثمر وتزهر.

والمعنى: وأنزلنا بقدرتنا من السحائب ماء كثيرا متدفقا بقوة، لنخرج بهذا الماء حبا يقتات به كالقمح والشعير، ونباتا يستعمله الإنسان كالخس والنعنع، وآخر تأكله الدواب كالتبن والكلأ، ولنخرج بهذا الماء - أيضا - بساتين قد التفت أغصانها لتقاربها وشدة نمائها وفي ذلك إشارة الى تمام النعمة والمنة لأن الناس يحبون الجنات والحدائق لما تضفيه على النفس من الراحة والسكينة لما فيها من التنعم بالظلال والثمار والمياه.

فهذه تسعة أدلة أقامها - سبحانه - على أن البعث حق، وهى أدلة مشاهدة محسوسة، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها، وما دام الأمر كذلك فكيف ينكر الكفار قدرته على البعث، مع أنه تعالى قد أوجد لهم كل هذه النعم التي منها ما يتعلق بخلقهم، ومنها ما يتعلق بالأرض والسماوات، ومنها ما يتعلق بنومهم، وبالليل والنهار، ومنها ما يتعلق بالشمس، وبالسحب التي تحمل لهم الماء الذي لا حياة لهم بدونه.

بعد إيراد هذه الأدلة المقنعة لكل عاقل، أكد - سبحانه - ما اختلفوا فيه، وما تساءلوا عنه، وبين جانبا من أماراته وعلاماته فقال:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾: المراد بيوم الفصل: يوم القيامة، ففيه يكون الفصل بين المحق والمبطل، والمحسن والمسيء، فيجازى كل إنسان على حسب عمله، ودلت ﴿كَانَ﴾ على أن علم هذا اليوم وحصوله ثابت مقدر.

والميقات - بزنة مفعال -: مشتق من الوقت، وهو الزمان المحدد لفعل ما.

والمراد به هنا: قيام الساعة، وبعث الناس من قبورهم. أي: إن يوم البعث والجزاء، كان ميعادا ووقتا محددا لبعث الأولين والآخرين، وما يترتب على ذلك من جزاء وثواب وعقاب.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي في ذلك اليوم نأمر إسرافيل بأن ينفخ في الصور، أي: في القرن الذي أوجدناه لذلك. فتخرجون من قبوركم جماعات وطوائف، دون أن يتخلف عن الحضور أحد إلى المكان المعد لذلك، فالمقصود في الآية النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾: معنى الفتح: الانشقاق، فتصير الشقوق والفتحات كالأبواب في سعتها وكثرتها.

وجاء التعبير بالفتح: للإشارة إلى كمال قدرته - سبحانه - حتى كأن شق هذا الجرم مع عظمته كفتح الباب سهولة وسرعة.

والفاء في قوله ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ تعقيبية، والمعنى: ذات أبواب أو كالأبواب.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾: معنى ﴿وَسُيِّرَتِ﴾: أزيلت وحركت من أماكنها بعد تفتتها.

ويراد بالسراب: ما يلوح في الصحارى، فيظنه الرائي ماء وهو ليس بماء. أي: فصارت بعد تفتتها واقتلاعها من أماكنها كالسراب.

وبعد هذا البيان البديع لجانب من مظاهر قدرته تعالى على كل شيء، ومن ألوان نعمه على خلقه، ومن تقرير أن البعث حق، بعد كل ذلك، بين - سبحانه - جزاء الكافرين، قبل بيان جزاء المتقين:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾: المرصاد: مفعال من الرّصد. تقول: رصدت فلانا أرصده، إذا ترقبته وانتظرته، بحيث لا يهرب منك.

وجاءت بصيغة المبالغة: للدلالة على شدة الرصد.

ووصفت جهنم بذلك؛ لأن الكافرين لا يستطيعون التفلُّت منها مهما حاولوا ذلك.

والمعنى: إن جهنم التي هي دار العذاب في الآخرة، كانت - بأمر الله تعالى ومشيئته - معدة ومهيأة للكافرين، فهي ترصدهم وتَرقُبهم بحيث

لا يستطيعون الهرب منها، فهي كالحارس اليقظ الذي يقف بالمرصد فلا يستطيع أحد أن يتجاوزه، والمقصود: تهديد المشركين، وبيان أنه لا مهرب لهم من جهنم، وأنها في انتظارهم، كما ينتظر العدو عدوه ليقضي عليه.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾﴾: الطاغون هم المتكبرون على ربهم المخالفون لأمره المتحاوزن للحد في الظلم والكفر.

﴿مَـَٔابًا﴾: من الأوب بمعنى المرجع. يقال: آب فلان يؤوب، إذا رجع.

ومعنى ﴿لَّٰبِثِينَ﴾: مقيمين في جهنم أزمانا طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى.

والأحقاب: جمع حُقب - بضمتين أو بضم فسكون - وهو الزمان الطويل.

والمعنى: إن جهنم كانت للمتجاوزين الحد في الظلم والطغيان، هي المكان المهيأ لهم، والذي لا يستطيعون الهرب منه، بل هي مرجعهم الوحيد الذي يرجعون إليه، وسيبقون فيها مددا طويلة لا تنتهي، كلما انتهى حُقبٌ بدأ ما بعده وهكذا.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾﴾: الذوق: معرفة طعم الطعام والشراب، ويطلق على غيرهما مجازا كما في قوله تعالى: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ [الطلاق:٩] وكلاهما مراد هنا.

الحميم: هو الماء الذي بلغ الغاية في الحرارة.

والغساق: هو ما يسيل من جلودهم من القيح والدماء والصديد.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾: استثناء منقطع[1]، لأن الحميم ليس من جنس البرد، وكذلك الغساق ليس من جنس الشراب.

(١) هو ما كان المستثنى منه ليس من جنس المستثنى.

والمعنى: إن هؤلاء الطاغين لا يذوقون في جهنم شيئا من الهواء البارد، ولا من الشراب النافع، لكنهم يذوقون فيها الماء الذي بلغ النهاية في الحرارة، والصديد الذي يسيل من جروحهم وجلودهم.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾: ﴿جَزَآءً﴾: منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف، وقوله ﴿وِفَاقًا﴾: صفة له.

وتبين الآية عدالة الله تعالى معهم، أي: أننا لم نظلمهم بإلقائهم في جهنم، وإنما جازيناهم بذلك جزاء موافقًا لأعمالهم السيئةِ في الدنيا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾: هذا تعليل لما أصاب الكفار من عذاب أليم، أي: إن هؤلاء الطغاة كانوا في الدنيا لا يخافون حسابنا، ولا يفكرون فيه، بل كانوا يكذبون به، وبكل ما جاءهم به رسولنا تكذيبًا عظيمًا.

وجاء لفظ ﴿كِذَّابًا﴾ على وزن فِعّال: للإشعار بأن تكذيبهم لآيات الله تعالى قد وصل الغاية في قبحه وإفراطه.

وإعراب ﴿كِذَّابًا﴾: مفعول مطلق منصوب جيء به لتأكيد عامله.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾: تفيد الآية شمول علمه سبحانه لكل شيء.

﴿وَكُلَّ﴾: منصوب على الاشتغال، أي بفعل محذوف دل عليه المذكور، والتقدير: وأحصينا كلَّ شيءٍ.

ومعنى الإحصاء: ضبط الشيء ضبطاً محكماً، وأصله من لفظ الحصى، وسر التعبير بهذه اللفظة: أن العرب كانوا يعتمدون على الحصى في العد، كما يعتمد بعض الناس الآن على الأصابع.

وإعراب كلمة ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول مطلق فهي مصدر من معنى أحصيناه، أي: وكل شيء في هذا الكون، قد أحصيناه إحصاء تاما، وأثبتنا هذا الإحصاء كتابة بحيث لا يعزب منه شيء عن علمنا، مهما كان صغيرًا.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾: الفاء في قوله ﴿فَذُوقُواْ﴾: للتفريع على ما تقدم من كون جهنم مرصادا للطاغين ومقرا لهم، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب مزيد تبكيت.

والتعبير بالذوق الذي هو شيء يسير عن مقاساة العذاب وحصوله فيه إشارة إلى شدة هذا العذاب وعظمته، وفيه تقريع وتوبيخ لهم.

والمعنى: إن جهنم كانت معدة ومهيأة لهؤلاء الطغاة بسبب أعمالهم القبيحة، وسيقال لهم يوم القيامة على سبيل الإذلال والإهانة: ذوقوا سوء عاقبة كفركم وفسوقكم وعصيانكم، فلن نزيدكم إلا عذابا فوق العذاب الذي أنتم فيه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم ينزل في أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدًا[1]. ووجه زيادة العذاب عليهم أنه يزدادون عذابا على الحقيقة، أو أن استمرار عذابهم يعدّ زيادة فيه.

وعلى عادة القرآن الكريم في الموازنة بين عاقبة الأشرار والأخيار، جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين بعد الحديث عن سوء عاقبة الطاغين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣١١.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا ٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾.

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾: تقديم ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وهي خبر إنّ على اسمها، مع تأخير ذكر الطاغين في الآيات السابقة، يدلّ على الفرق الكبير بين الفريقين فيما يستحقه كل منهما.

﴿مَفَازًا ٣١﴾: مصدر بمعنى الفوز والظفر بالمطلوب، والتنوين للتعظيم.

والمعنى: إن للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى ربهم فوزا برضوانه وجنته.

ثم ذكر شيئا من تفاصيل هذا الفوز والنعيم وهو:

﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾: الحدائق: البساتين التي فيها ماء وأشجار مثمرة، سميت بذلك تشبيها لها بحدقة العين في الهيئة، وحصول الماء فيها، وخصت الأعناب بالذكر؛ لأنها من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾: أي: فتيات في ريعان الشباب، قد تقاربت أعمارهن، وتساوين في الجمال والنضارة وحسن الهيئة.

فالكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي وصلت إلى سن البلوغ، وسميت بذلك لأنها في تلك السن يتكعب ثدياها، أي: يستديران مع ارتفاع.

والأتراب: جمع ترب - بكسر التاء وسكون الراء - وهو المساوي لغيره في السن، وأكثر ما يطلق هذا اللفظ على الإناث.

﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ٣٤﴾: أي: كأسا مليئة بالخمر، يقال دَهَقَ الحوض وأدهقه، إذا ملأه حتى فاض من جوانبه، ويجوز أن يكون المعنى: متتابعة،

لا تنقطع، أو يكون: صافية، خالية من الشوائب والأخلاط، ولا مانع من الجمع بين الأقوال الثلاثة، فتكون الكأس موصوفة بثلاث صفات: مليئة صافية متتابعة، وفي هذا مزيد إكرام لهم.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾: لا يَسْمَعُ أهل الجنة فِيها لَغْواً أي: كلاماً ساقطاً لا يعتد به، ولا يسمعون - أيضا - كِذَّاباً أي كلاما كاذبا، وفي نفي سماع الكذب واللغو دلالة على نظافة ألسنة أهل الجنة، وبعدهم عن سقط الكلام وما لا يليق بمقامهم.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾: هذا بيان لمظاهر فضل الله سبحانه على هؤلاء المتقين.

و﴿جَزَاءً﴾: منصوب بفعل محذوف من لفظه، ومعنى ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائية. أي: هؤلاء المتقون كوفئوا مكافأة صادرة من ربك على سبيل الإحسان والتفضل حتى اكتفوا، وذكر الربوبية دون غيرها للإشارة إلى أن حصول هذا الجزاء لهم بإرشاده وفضله سبحانه، وإضافة الرب إلى ضمير النبي ﷺ تشريفاً له.

ومعنى ﴿حِسَابًا﴾ أي: كافيا من قولهم: أحسبه الشيء، إذا كفاه حتى قال حسبي، أي: كافيني، وهي صفة لِـ ﴿عَطَاءً﴾.

ووردت هذه الآية هنا في حق الممتقين مقابلة لما ورد في حق الطاغين ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ فجزاء الطاغين عدل، وجزاء المتقين فضل.

﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾: في هذه الآية ثلاث قراءات، الأولى: بجر لفظ ﴿رَّبِّ﴾ على أنه بدل من «ربك»، وبجر لفظ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ على أنه صفة له، الثانية: برفع لفظ ﴿ربُّ﴾ على أنه خبر

لمبتدأ محذوف ورفع لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على أنه صفة له، الثالثة: بجر لفظ ﴿رَبِّ﴾ ورفع لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على أنه مبتدأ وما بعده الخبر، وعلى القراءتين الأولى والثانية يصح الوقف على لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، أما على القراءة الثالثة فيوقف على ماقبله ويُبدأ به.

والمعنى: هذا الجزاء العظيم للمتقين هو كائن من ربك، الذي هو رب أهل السماوات وأهل الأرض، ورب ما بينهما من مخلوقات، وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التي لا تقاربها رحمة.

وأهمية ورود قوله ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾: لتقرير وتأكيد ما قبله، من كونه تعالى هو رب كل شيء، أي: أهل السماوات والأرض وما بينهما، خاضعون ومربوبون لله تعالى الواحد القهار، الذي لا يقدر أحد منهم - كائنا من كان - أن يخاطبه إلا بإذنه، ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾: ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على أنه ظرف لقوله ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، و﴿صَفّٗا﴾: حال.

والمراد بالروح: جبريل - عليه السلام - على القول الراجح، لأن القرآن الكريم قد وصفه بذلك في آيات منها قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء]، وإفراده بالذكر مع أنه من الملائكة لرفعة شأنه وعظيم منزلته.

والمعنى: لا يملك أحد أن يخاطب الله تعالى إلا بإذنه، يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يقوم جبريل، عليه السلام، بين يدي خالقه قيام تذلل وخضوع، ويقوم الملائكة - أيضا - قياما كله أدب وخشوع، وهم في صفوف منتظمة، فالإفراد في لفظ صف لإرادة الجنس لا الإفراد.

وأهمية ورود جملة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: لتأكيد جملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، والضمير لجميع الخلائق، والذي تفيده الآية؛ أن الذين يتكلمون في هذا اليوم الهائل الشديد، هم الذين يأذن الله تعالى لهم بالكلام، وهم الذين يقولون قولا صوابا يرضى الله تعالى عنه.

وإظهار اسم ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ بدل الإضمار أو أي اسم آخر، للإشارة إلى حصول رحمته سبحانه بالإذن بالشفاعة وقبولها.

والمقصود من الآية الكريمة: بيان أن الخلائق جميعاً يكونون في هذا اليوم، خاضعين لأمر الرحمن وإرادته، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بإذنه تعالى.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾: أي: ذلك اليوم الذي يقوم فيه الخلائق للحساب والجزاء، هو اليوم الحق الذي لا شك في حدوثه، ولا ريب في ثبوته. والفاء في قوله ﴿فَمَن شَاءَ﴾: هي الفصيحة[1].

ومفعول المشيئة محذوف. تقديره: لقد بيّنّا لكم ما يهديكم، وإذا كان الأمر كذلك، فمن شاء منكم أن يتخذ إلى ربه مرجعًا حسنًا وطريقًا إلى رضاه، فليتخذه الآن، من قبل أن يأتي هذا اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلال.

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾: الإنذار: الإخبار بحصول شيء تسوء عاقبته في وقت يستطيع المنذَر فيه أن يجنب نفسه الوقوع في ذلك الشيء؛ أي: إنا أخبرناكم - أيها الناس - بأن هناك عذابا سيحل بمن يستحقه عما قريب، وذلك العذاب سيكون أشد هولا وأبقى أثرا، ووصفُ العذاب بالقرب لتأكيد وقوعه، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ.

(١) هي التي تفصح عن محذوف في الكلام قبلها يكون سببًا للمذكور بعدها.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: يوم يرى كل إنسان عمله حاضرا أمامه، ومسجلًا عليه، يَقُولُ الإنسان الكافر في هذا اليوم على سبيل الحسرة والندامة، يا ليتني كنت في الدنيا ترابًا، ولم أُخلَق بشرًا، ولم أكلف بشيء من التكاليف، ولم أبعث ولم أحاسب، وإسناد العمل إلى اليدين تغليبا لأن أكثر الأعمال تزاول بهما، والتعبير عن العلم بالنظر لأن العلم الحاصل به أقوى وأوثق، ولأن المرء ينظر إلى ما كُتب في صحيفة أعماله.

والمقصود بالآية الكريمة: قطع أعذار المعتذرين بأبلغ وجه، من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فوائد ولطائف:

١- براعة الاستهلال في السورة، حيث بدأت بالسؤال الذي يثير في النفس البحث عن الإجابة.

٢- توعد منكري البعث بالأهوال العظام والعذاب الشديد.

٣- كثرة الآيات الدالة على وحدانية الله وعظمته.

٤- التفكر في الخلق يقود إلى الإيمان بالخالق.

٥- التنويع في بيان الأدلة على البعث؛ فمنها ما يبيّن قدرة الله، ومنها ما يبيّن علمه وحكمته، ومنها ما يبيّن فعله.

٦- ثبوت ما أخبر عنه القرآن من حقائق العلم، حيث تبين للعلماء أن الجبال تقوم بمهمة الوتد في الأرض، وأن ثلثي الجبل منغرز في الأرض كهيئة الوتد.

٧- شمول مبدأ الزوجية لجميع المخلوقات، ولجميع جوانب حياتهم.

٨- على المسلم أن يقابل نعم الله عليه بالطاعة والشكر.

٩- الأسلوب الرائع في الإقناع، فبعد أن ذكرت الآيات تساؤل المشركين عن البعث، جاء الجواب بعد إقامة الأدلة على قدرة الله بما لا يملكون إنكاره.

١٠- تأكيد حصول يوم القيامة وأن له موعدا محددا مقدرا في علم الله تعالى.

١١- من أسماء يوم القيامة يوم الفصل.

١٢- من أحداث يوم القيامة الكبرى النفخ في الصور.

١٣- يشمل لفظ الطاغين: الكافرَ بالله والمؤمنَ المقصّرَ، ولكلٍّ منهما عذابه المتناسب مع حاله.

١٤- جميع أعمال الخلق مثبتة مكتوبة محصاة مسجلة، وسيطلع كل مكلف على عمله المدوَّن في صحف وسيُجزى عليه.

١٥- في قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾ احتباك[1]، والتقدير: وكل شيء أحصيناه إحصاء وكتبناه كتابا.

١٦- عذاب المشركين في نار جهنم مستمر ممتد بلا نهاية ولا توقف.

١٧- من كمال نعيم أهل الجنة التقارب في السن بين نسائها، وبينهن وبين رجالها، وهذا أدعى للألفة وحسن العشرة.

١٨- ذم الكذب واللغو وأهلهما.

١٩- ورد لفظ ﴿كِذَّابًا﴾ في السورة في موضعين، الأول في قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ مثبَتًا وضمن الحديث عن أهل النار، وأجمع القراء

(١) الاحتباك: أن يُحذف من الأول ما أثبت في الثاني، ويُحذف من الثاني ما أُثبت في الأول.

فيه على التشديد، والثاني في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥﴾ منفيًا وضمن الحديث عن أهل الجنة، وفيه قراءتان: بالتخفيف وبالتشديد[1].

٢٠- جزاء الله للمسيئين بالعدل، وللمحسنين بالفضل.

٢١- إحاطة علم الله تعالى بكل شيء في هذا الكون.

٢٢- من شدة حسرة الكافر يوم القيامة تمنيه أنه لم يُخلق، أو أنه كان جمادا لا يعي ولا يُكلّف.

٢٣- ذكر بعض المفسرين أن المراد بالكافر في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ إبليسُ يتمنى يوم القيامة حين يرى ثواب آدم والمؤمنين من ذريته لو كان ترابا، لأنه احتقره لما رفض السجود لمن خُلق من تراب[2].

(١) نشر القراءات العشر ٤/ ٢٧٢٠، وإيضاح الرموز ٧٢٠.
(٢) روح المعاني للآلوسي ١٥/ ٢٢٢.

تفسير سورة النازعات (٧٩)

تمهيد:

أسماؤها: النازعات، وتسمى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، و«الساهرة»، و﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: ست وأربعون آية في العدد الكوفي، وخمس وأربعون في غيره.

مقاصدها:

- إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن البعث حق.
- ذكر بعض علامات يوم القيامة وأهواله، والرد على الجاحدين الذين أنكروا وقوعه، وبيان حسن عاقبة المتقين، وسوء عاقبة الكافرين، والإجابة عن أسئلة السائلين عن يوم القيامة، وبيان أن موعد مجيء هذا اليوم مرده إلى الله تعالى وحده.
- تذكير الناس بجانب مما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون من مناقشات، وكيف أن الله تعالى قد أخذ فرعون أخذ عزيز مقتدر.
- بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى وعظمته، التي نراها ونشاهدها في خلقه للسماوات وللأرض، وما اشتملتا عليه من عجائب ودلائل على الخالق العظيم.

مناسبتها لما قبلها: أن كلتا السورتين تتحدث عن القيامة وأهوالها وعن الجزاء، فهما متكاملتان في الموضوع، وإن اختلفتا في طريقة العرض.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

الواو في قوله ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ وما بعده للقسم، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير: أقسم بهذه المخلوقات العظيمة لتبعثن.

وأشهر الأقوال في المراد بهذه الصفات أنها لأصناف من الملائكة، كلفهم الله تعالى القيام بأعمال عظيمة، وأفعال جسيمة، وهو المأثور عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وعلى هذا القول كثير من المفسرين.

وجاء العطف مع اتحاد الكل في الموصوف: لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذوات.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾﴾: النازعات: جمع نازعة، والنزع: جذب الشيء بقوة، كنزع القوس عن كبده.

أقسم الله تعالى بالملائكة الذين ينزعون أرواح الكافرين من أجسادهم، نزعا شديدا، يبلغ الغاية في القسوة والغلظة.

و﴿غَرْقًا﴾: اسم مصدر من أغرق، وأصله إغراقا، والإغراق في الشيء: المبالغة فيه والوصول به إلى نهايته، ومنه قوله: نزع فلان في القوس فأغرق، أي: بلغ غاية المد حتى انتهى إلى النّصل.

ونصبه على المصدرية، أي أنه مفعول مطلق، لالتقائه مع اللفظ الذي قبله في المعنى.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾: معنى الناشطات: من النّشط، وهو السرعة في العمل، والخفة في أخذ الشيء، يقال: نشطت الدلو من البئر إذا نزعتها بسرعة وخفة.

ومعنى الآية الكريمة : وأقسم بالملائكة الذين ينشِطون ويسرعون إسراعا شديدا لقبض أرواح المؤمنين بخفة وسهولة.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾: السبح: هو الانتقال من مكان لآخر بسرعة، ومنه العوم في الماء.

والمراد بها: الملائكة التي تنطلق في هذا الكون بسرعة لتنفيذ أمر الله تعالى، أو التي تسل أرواح المؤمنين برفق وتحملها.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾: السبق معناه: أن يتجاوز السائر من يسير معه، ويسبقه إلى المكان المقصود الوصول إليه، والمراد بها: أن الملائكة تسبق غيرها في تنفيذ أمر الله تعالى.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾: التدبير: تصريف الأمور. والمقصود بِـ ﴿أَمْرًا﴾: الغرض المهم، والتنوين: يفيد التعظيم، وهو منصوب على أنه مفعول به.

ونسبة التدبير إلى الملائكة على سبيل المجاز، لأن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره.

والمراد بالآية على ضوء ما تقدم؛ وأقسم بالملائكة الذين يرتبون شئون الخلائق، وينظمون أمورهم بالطريقة التي يكلفهم، سبحانه، بها.

وفي هذه الأقسام الخمسة دلالة على تنوع أعمال الملائكة وقيامهم بعظائم الأمور التي يكلفون بها على الوجه الصحيح، بلا تأخر ولا خطأ في التطبيق.

وفي المراد بهذه الأقسام الخمسة أقوال أخرى عند المفسرين منها: أنها النجوم، فهي تنزع من أفق إلى أفق، وتنشط من برج إلى برج، وتسبح في الفلك، فيسبق بعضها بعضا، فتدبر أمرا نيط بها كاختلاف الفصول وتبيين المواقيت، وقيل: هي في الغزاة، وقيل: بعضها في الملائكة وبعضها في الخيل أو السفن.

والمقسم عليه محذوف دل عليه المذكور من حديث عن يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: من الرجف وهو الاضطراب الشديد، والحركة القوية، والمراد بها: ما يحدث في هذا الكون عند النفخة الأولى التي يموت بعدها جميع الخلائق.

و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: من ردف الشيء، إذا جاء في أعقابه، والمراد بها النفخة الثانية، التي تردف الأولى، أي: تأتي بعدها، وفيها يبعث الموتى بإذن الله تعالى.

وموقع جملة ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ من الإعراب؛ في محل نصب على الحال من ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾.

والمعنى: اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ، يوم ينفخ في الصور فتضطرب الأرض وتهتز، ويموت جميع الخلق، ثم يتبع ذلك نفخة أخرى يبعث بعدها الموتى بإذن الله تعالى.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾: معنى ﴿وَاجِفَةٌ﴾: يقال: وجف القلب يجف وجفا ووجيفا، والمراد بها: ارتفاع ضربات القلب من شدة الخوف.

وصح إضافة الأبصار إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة، لأن الأبصار لأصحاب هذه القلوب، وكلاهما من جوارح الأجساد، ومعنى خاشعة: منكسرة ذليلة من هول ما ترى.

والمعنى: في هذا اليوم الهائل الشديد تكون القلوب في نهاية الاضطراب والذل والمهانة لما يصيبها من الفزع الشديد، والرعب الذي لا حدود له.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ : عبر - سبحانه - عن قولهم هذا بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستحضار حالتهم الغريبة، حيث أنكروا ما قام الدليل على عدم إنكاره، وللإشعار بأن هذا الإنكار كان متجددا ومستمرا منهم.

وساق - سبحانه - أقوالهم هذه بأسلوب الاستفهام: للإيذان بأنهم كانوا يقولون ما يقولون في شأن البعث على سبيل التهكم والتعجب كما هو شأن المستفهم عن شيء الذي لا يقصد معرفة الحقيقة، وإنما يقصد التعجيب والإنكار.

ومعنى ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: الحالة الأولى، يقال لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته، أي: طريقته وحالته الأولى، والمراد: العودة إلى الحياة بعد الموت وتحولهم إلى عظام بالية.

ومعنى ﴿نَّخِرَةً﴾: بالية سهلة التفتت والكسر، وفيها قراءة أخرى: ﴿ناخِرَة﴾ بمعنى بالية فارغة جوفاء، يسمع منها عند هبوب الريح نخير، أي: صوت.

والمعنى: إن هؤلاء المشركين كانوا يقولون في الدنيا على سبيل التعجب والاستهزاء والإنكار لأمر البعث والحساب: أنرد إلى الحياة مرة أخرى بعد موتنا وبعد أن نصير في قبورنا عظاما بالية.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ : اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ : يعود إلى الرد المستفاد من قولهم ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ ...﴾. وهذا قول آخر من أقوالهم الفاسدة.

والكرّة: من الكرّ بمعنى الرجوع.

والمراد بالخسران: حدوث ما يكرهونه لهم، وأصله عدم الربح في التجارة والفشل، والمراد هنا خيبة الكفار حين يتبين لهم كذبهم في عدم وقوع البعث.

والمعنى: يقول هؤلاء المنكرون: أنردُّ إلى الحياة التي كنا فيها بعد أن نموت ونفنى؟ وبعد أن نصير عظاما نخرة؟ لو حدث هذا بأن رددنا إلى الحياة مرة أخرى، لكانت عودتنا عودة خاسرة غير رابحة، وهم يقصدون بهذا الكلام الزيادة في التهكم والاستهزاء بالبعث.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ : معنى الزجرة: من الزجر، يقال: زجر فلان فلانا، أي صاح بصوت مصحوب بالغضب. والمراد بها: النفخة الثانية.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾: للتفريع على قولهم السابق.

ويعود الضمير ﴿هِيَ﴾ إلى الحالة والقصة التي أنكروها، وهي قيام الساعة.

ووصف - سبحانه - الزجرة بأنها واحدة مع أنهما زجرتان: للردّ على الجاحدين للبعث بأقوى أسلوب.

والمعنى: قل لهم - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما زعمتم من أنه لا بعث ولا جزاء، بل الحق أن ذلك آت لا ريب فيه، وأن عودتكم إلى الحياة مرة أخرى لا تقتضي من خالقكم سوى صيحة واحدة يصيحها ملك من ملائكته بكم، فإذا أنتم قيام من قبوركم، ومجتمعون في المحشر لحسابكم.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ : التعبير بإذا الفجائية: للإيذان بأن اجتماعهم هذا سيكون في غاية السرعة والخفة، وأنه سيتحقق في أعقاب الزجرة بدون أقل تأخير.

والتعبير بضمير الغيبة ﴿هُم﴾ : إهمالا لشأنهم، وتحقيرا لهم عن استحقاق الخطاب.

ومعنى الساهرة: الأرض المستوية الخالية من النبات، والمراد بها هنا: الأرض التي يحشر الله تعالى فيها الخلائق، بعد أن كانوا في بطنها.

وسميت بهذا الاسم: لأنه يسهر فيها خوفا منها، فوصفها بصفة ما فيها، وقد كانت العرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة، بمعنى ذات سهر.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

وجه المناسبة بين هذه القصة وما قبلها: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث، حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وكان ذلك يشق على الرسول ﷺ فذكر - سبحانه - قصة موسى، عليه السلام، وبين أنه تحمل المشقة في دعوة فرعون، ليكون ذلك تسلية للرسول ﷺ.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ : يفيد الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ التشويق إلى الخبر، وجعل السامع في أشد حالات الترقب لما سيلقى إليه، حتى يكون أكثر وعيًا لما سيسمعه.

والخطاب للرسول ﷺ لقصد تسليته، ويندرج فيه كل من يصلح له.

و﴿مُوسَىٰٓ﴾ مركب من مقطعين «مو» أي الماء و«سى» بمعنى ابن، أي ابن الماء لأنهم وجدوه في الماء فنسبوه إليه.

ومعنى ﴿الواد﴾: المكان المنخفض بين جبلين، أو بين مكانين مرتفعين.

و﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: بمعنى المطهر.

و﴿طُوًى﴾ اسم للوادي، وهو واد في شبه جزيرة سيناء، ويحتمل أن يكون ﴿طُوًى﴾ اسم بمعنى المفعول أي المطوي، والمعنى: الذي طويتَه أي تجاوزته بسيرك.

و﴿فِرْعَوْنَ﴾ لقب لكل ملك من ملوك مصر في ذلك الزمان.

ومعنى ﴿طَغَىٰ﴾: تجاوز كل حد في الكفر والغرور والعصيان.

وفي هذه الآيات يخاطب الله تعالى الرسول ﷺ لقصد تسليته، بقوله: هل وصل إلى علمك خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون؟ إن كان لم يصل إليك فهاك جانبا من خبره نقصه عليك، فتنبه له، لتزداد ثباتا على ثباتك، وثقة في نصر الله تعالى لك على ثقتك، وذلك وقت أن ناديناه وهو بالواد المقدس طوى، الذي هو بجانب الطور الأيمن، قائلين له اذهَبْ يا موسى إلى فرعون إنه طغى.

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾: أُمر موسى أن يبدأ مخاطبة فرعون بالاستفهام ﴿هَل﴾: لحضه وترغيبه في الاستجابة للحق.

والتزكية: التطهر من الذنوب.

ومعنى ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾: أرشدك إلى طاعة ربك لتتقيَه، وخص الخشية بالذكر: لأنها ملاك الأمر، من خشي الله أتى منه كل خير.

والمعنى: يخاطب الله تعالى نبيه موسى - عليه السلام -: اذهب إلى فرعون، فقل له على سبيل النصح الحكيم، والإرشاد البليغ: هل لك يا فرعون رغبة في أن أدلَّك على ما يزكيك ويطهرك من الرجس والفسوق والعصيان، وأرشدَك إلى معرفة الله، فتخشاه.

ويستفاد من هاتين الآيتين: أن فيهما أسمى ألوان الإرشاد في الدعوة إلى الطريق الذي يوصل إلى رضى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا كان هذا ما ينبغي سلوكه في الدعوة الى الله تعالى مع فرعون الطاغية، فكيف بالمسلم فيكون اللين والرفق في دعوته من باب أولى.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾: الفاء تفيد الإفصاح والتفريع على كلام محذوف يفهم من المقام، والتقدير: فامتثل موسى - عليه السلام - أمر ربه، فذهب إلى فرعون، فدعاه إلى الحق، فكذبه فرعون، فما كان من موسى - عليه السلام - إلا أن أراه المعجزة التي تدل على صدقه، وهي العصا واليد، وعُبّر عنهما بالمفرد لأنهما كالآية الواحدة.

ولكن فرعون لم يستجب لدعوة موسى - عليه السلام -، بل كذب ما رآه تكذيبا شديدا، وعصى أمر ربه عصيانًا كبيرًا.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾: جاء العطف هنا بـ «ثم»: للدلالة إلى أنه قد تجاوز التكذيب والعصيان، إلى ما هو أشد منهما في الجحود والعناد، فثم تفيد التراخي الرتبي.

ومعنى الإدبار: الإعراض عن الحق والسعى الشديد في إبطاله، وإصراره على تكذيب معجزته.

وجاء النداء بالصيغة الدالة على الحصر ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾: للرد على ما قاله موسى له من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

والنكال: مصدر بمعنى التنكيل، يقال: نكّل فلان بفلان، إذا أوقع به عقوبة شديدة تجعله نكالا وعبرة لأمثاله من المتمردين في الدنيا.

وإعراب ﴿نَكَالَ﴾: منصوب على أنه مصدر مؤكد لقوله ﴿فَأَخَذَهُ﴾، لأن معناه نكل به.

والتعبير بالأخذ: للإشعار بأن هذه العقوبة كانت محيطة بالمأخوذ بحيث لا يستطيع التفلت منها.

وقدم - سبحانه - عذاب الآخرة على الأولى: لأنه أشد وأبقى.

ومعنى الآيات: قام فرعون بدعوة الناس إلى الاجتماع عن طريق جنده، وناداهم بأعلى صوته، قائلا لهم: أنا ربكم الأعلى الذي لا رب أعلى منه، وليس الأمر كما يقول موسى من أن لكم إلها سواي، وكانت نتيجة ذلك أن أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، بأن أنزل به في الآخرة أشد أنواع العذاب، وأنزل به في الدنيا أفظع ألوان الإغراق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾: يعود اسم الاشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى حديث موسى - عليه السلام - الذي دار بينه وبين فرعون، وما ترتب عليه من نجاة لموسى ومن إهلاك لفرعون.

أي: إن في ذلك الذي ذكرناه عما دار بين موسى وفرعون، لعبرة وعظة، لمن يخشى الله تعالى، ويقف عند حدوده، لا لغيره ممن لا يتوبون ولا يتذكرون ولا تخالط أنفسهم خشية الله تعالى.

والمقصود من هذه القصة: تسلية الرسول ﷺ، وتهديد المشركين بأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم، كانت عاقبتهم كعاقبة فرعون.

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾: الخطاب في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ﴾ للجاحدين الجاهلين الذين استنكروا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم.

معنى ﴿أَشَدُّ﴾: أصعب، وهذا بالنسبة لاعتقاد المخاطبين، إذ لا يصعب شيء على الله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وفي قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ تفصيل لكيفية خلق السماء، وعدم ذكر الفاعل في هذا السياق للتنبيه على تفخيم شأنه - سبحانه -.

والسّمك - بفتح السين المشددة وسكون الميم -: الرفع في الفضاء، وجعل الشيء عاليا عن غيره، تقول: سمكت الشيء، إذا رفعته في الهواء، وبناء مسموك، أي: مرتفع.

أي: أن الله تعالى بقدرته، جعل مقدار ارتفاع السماء عن الأرض عظيما، وبجانب ذلك سوى بحكمته هذه السماء، بأن جعلها خالية من الشقوق والثقوب، ومنطوية على بديع الخلق المحيّر للألباب، ومن قدر على هذا الخلق قدر على الإعادة وعلى ما دونه.

ومعنى الإغطاش: شدة الظلام، أي: وجعل - بقدرته - ليل هذه السماء مظلماً غاية الإظلام: بسبب مغيب شمسها.

ومعنى ﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾: أبرز وأضاء النهار، والتعبير عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، ولأنه وقت كمال إشراق الشمس.

وأضاف سبحانه الليل والضحى إلى السماء: لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها، وبدأ بالليل لأن الامتنان بالشيء بعد حصول ضده أقوى.

ومعنى ﴿دَحَىٰهَآ﴾: بسطها يقال: دحوت الشيء أدحوه، إذا بسطته، أي: بسط الله الارض وأوسعها لتكون مستقرا لكم وموضعا لتقلبكم عليها، وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى كروية الأرض، فالشكل الكروي منبسط ممتد لا حواف ولا أطراف له.

ويعود اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ إلى خلق السماء وتسويتها ورفعها، وقد يُفهَم من الآية تأخر خلق الأرض عن خلق السماء، وجمهور العلماء على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء، بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة] والجمع بينهما بما روي عن ابن عباس من أنه سئل عن هاتين الآيتين فقال: خلق الله تعالى الأرض أولا غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغيرهما.

أي: أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها، كان بعد خلق السماء.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوبة على الاشتغال.

وجردت الآية: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ من حرف العطف: لأنها جاءت بيانا وتفسيرا لدحاها.

و﴿أَرْسَىٰهَا﴾: أي ثبتها في الأرض.

والمتاع: اسم لما يتمتع به الإنسان من منافع الحياة الدنيا لمدة محدودة من الزمان، ونصبه على أنه مفعول لأجله، أي لتتمتعوا.

والمعنى: يخاطب الله تعالى الجاحدين: أخلقُكم بعد موتكم، وإعادتُكم إلى الحياة بعد هلاككم، أشد وأصعب في تقديركم، أم خلق السماء التي

ترون بأعينكم عظمتها وضخامتها، والتي أوجدها – سبحانه – وبناها بقدرته، وهذا أمر مشاهد لكم، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ من خلق الناس، ومن كان قادرا على الأبلغ والأعظم كان على ما هو أقل منه – وهو خلقهم وإعادتهم بعد موتهم – أقدر.

ومن مظاهر قدرة الله تعالى أن جعل والأرض مستقرا لكم، ومكانا لانتفاعكم، بأن أخرج منها ماءها، عن طريق تفجير العيون والآبار والبحار، وأخرج منها مَرْعاها، أي: جميع ما يقتات به الناس والدواب، وكذلك من مظاهر قدرة الله تعالى ورحمته بكم، أنه ثبّت الجبال في الأرض حتى لا تميد أو تضطرب، كل ذلك لتكون موضع منفعة لكم، تتمتعون بخيراتها أنتم وأنعامكم، إلى وقت معين من الزمان، ثم تتركونها لانتهاء أعماركم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: اسم للمصيبة العظمى، يقال: طمّ الشيء يطمّه طمّا، إذا غمره. ويقال: طم الماء الأرض إذا غمرها.

وهذا الوصف ليوم القيامة: للدلالة على التهويل والشدة، لأن أحوالها تغمر الناس وتجعلهم لا يفكرون في شيء سواها.

وجواب الشرط ﴿فَإِذَا﴾: محذوف والتقدير: فإذا وقعت القيامة، وقامت الساعة حدث ما لم يكن في الحسبان من شدائد وأهوال.

والمعنى: إذا قامت القيامة، وتذكر الإنسان في هذا الوقت ما كان قد نسيه من أعمال في دنياه، وقع له من الخوف والفزع مالا يدخل تحت وصف. وقد ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: أظهرت إظهارًا واضحا لا خفاء فيه ولا لبس لكل راء. كان حينها الهول الأعظم.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾: معنى الطغيان تجاوز الحد في العصيان وإيثار الْحَياة الدُّنْيا: بتقديم متاعها الفاني على نعيم الآخرة الخالد، والانهماك بها وترك الاستعداد للآخرة.

وتفسير ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: فإن مصير هذا الإنسان الشقي سيكون إلى النار الملتهبة، لا منزل له سواها في هذا اليوم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾: أي أن الإنسان الذي خاف من عظمة الله تعالى وجلاله، وتسلح بالإيمان والعمل الصالح استعدادا لهذا اليوم الذي يجازى فيه كل بما يستحقه. وزجر نفسه وكفها عن السيئات والمعاصي والميول نحو الأهواء الضالة المضلة؛ فإن عاقبته دخول الجنة وستكون هي مأواه ومنزله ومستقره.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾: ﴿أَيَّانَ﴾: اسم يستفهم به عن تعيين الوقت وتحديده، فهو ظرف زمان متضمن بمعنى «متى».

و﴿مُرْسَىٰهَا﴾: مصدر ميمي من أرسى الشيء إذا ثبته وأقره، ولا يكاد يستعمل هذا اللفظ إلا في الشيء الثقيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾.

وأطلق على يوم القيامة ساعة؛ لسرعة ما فيه من الحساب، أو لوقوعه بغتة، أو لأنه - على طوله - زمان يسير عند الله تعالى.

وصح نسبة الإرساء إلى الساعة: باعتبار تشبيه المعاني بالأجسام.

والمعنى: يسألك يا محمد الكافرون عن وقت قيام الساعة، قائلين لك: متى يكون استقرارها وإرساؤها ووقوعها؟ وسؤالهم هذا من باب الاستهزاء.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾: المقصود بهذا الجواب: توبيخهم على إلحاحهم في السؤال عنها، مع أن الأَولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

والمعنى: في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها، وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها، أي أنت لا تعلم وقت وقوعها، فلله تعالى وحده منتهى علم قيامها، لأنه العليم علماً تاماً بالوقت الذي ستقوم فيه الساعة ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾: يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ على تحديد وظيفته ﷺ أي: ليست وظيفتك - أيها الرسول الكريم - معرفة الوقت الذي تقوم فيه الساعة، وإنما وظيفتك امتثال ما أمرت به، من بيان اقترابها، وتفصيل أهوالها، ودعوة الناس إلى حسن الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

وخص - سبحانه - الإنذار بمن يخشى قيام الساعة: لأن هؤلاء الذين يخشون وقوعها، ويعملون العمل الصالح الذي ينجيهم من أهوالها، هم الذين ينتفعون بهذا الإنذار.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾: العشية: هي الوقت الكائن من الزوال إلى الغروب. والضحى: الوقت الكائن من أول النهار إلى الزوال.

أي: كأن هؤلاء المشركين حين يرون الساعة وقد فاجأتهم بأهوالها، لم يلبثوا في دنياهم أو في قبورهم إلا وقتا يسيرا، يشبه العشية أو الضحى بالنسبة للزمان الطويل.

وصحت إضافة الضحى إلى العشية لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد، وللدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا، ولكنْ ساعةً منه عشيتَه أو ضحاه، فلما ترك ذكر اليوم أضافه إلى عشيته.

والمقصود من الآية الكريمة: بيان أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن المشركين عند إتيانها كأنهم ما لبثوا في انتظارها إلا يوما أو بعض يوم.

فوائد ولطائف:

١- براعة الاستهلال في السورة بذكر الملائكة التي تنزع الأرواح للتذكير بما ينكره الكافرون من الموت وما بعده من بعث وحساب.

٢- الملائكة مخلوقات عظيمة الخلق مستجيبة لأمر الله وتنفذه بدقة تامة.

٣- استهزاء المشركين بآيات الله تعالى واستبعادهم البعث دليل على قصور عقولهم.

٤- أحداث يوم القيامة تأتي متتابعة متوالية.

٥- من مظاهر العدل بين الخلق أن حسابهم يكون في أرض مستوية ظاهرة فلا تمييز بينهم، والكل في مقام الحساب سواءٌ.

٦- استخدام أسلوب التشويق في عرض القصة من خلال بدئها بالسؤال.

٧- اختيار الأماكن الطاهرة الطيبة الحسنة لأداء العبادات وقضاء المصالح، فقد اختار الله تعالى الوادي المقدس ليكلم فيه موسى - عليه السلام -.

٨- استخدام اللين في الدعوة لتقريب قلوب المدعوين واستمالتهم.

٩- الأخذ المهين عاقبة كل من نازع الله تعالى عظمته.

١٠- وجود المعجزات لا يستلزم الإيمان.

١١- التخاذل والجبن من الشعوب يمهد السبيل لتعالي الطغاة وتوهمهم العظمة في أنفسهم إلى درجة ادعاء الربوبية عند بعضهم كفرعون.

١٢- خلق السماوات أعظم من خلق الناس.

١٣- الجمع في المعنى بين الآيات المختلفة في الظاهر.

١٤- كل ما في الأرض من خيرات من أجل تمتع الإنسان بها.

١٥- عظيم أهوال يوم القيامة حيث إنها تعم كل شيء.

١٦- الخوف من الله ومخالفة هوى النفس من أسباب دخول الجنة.

١٧- مهمة الرسول ﷺ ومن سار على دربه الإنذار والتحذير والبيان.

١٨- الاقتصار على التحذير في قوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ لمراعاة السياق والمقام، وفي آيات أُخر الجمع بين البشارة والإنذار كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [البقرة: ١١٩].

١٩- قلة مدة الحياة الدنيا مقارنة بالآخرة.

٢٠- قلة عقل الكافر الذي يركن إلى الدنيا ويغتر بها ويقدمها على الآخرة، ويجعلها أكبر همه وغاية أمله، وهي في الحقيقة قصيرة ضئيلة حقيرة هزيلة، لا تكاد حياته فيها تساوي عشية أو ضحاها.

تفسير سورة عبس (٨٠)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿عَبَسَ﴾، وتسمى سورة ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، وسورة «السفرة».

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: اثنتان وأربعون آية في العدد الكوفي والحجازي، وإحدى وأربعون في البصري، وأربعون في الشامي.

مقاصدها:

- إرشاد النبي ﷺ إلى ما يجب عليه نحو ضعفاء المسلمين، وإرساء الأصل الذي يجب على المسلمين أن يتبعوه عند معاملتهم للناس.
- الثناء على المؤمنين الصادقين مهما كان عجزهم وضعفهم، والتحذير من إهمال شأنهم.
- تذكير المؤمنين بجانب من نعمه تعالى عليهم، لكي يزدادوا شكرا له تعالى، وتذكيرهم - أيضا - بأهوال يوم القيامة، وبأحوال الناس فيه.

مناسبتها لما قبلها: لما ختمت السورة السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ ذكر في هذه السورة من ينفعه الإنذار ومن لا ينفعه.

سبب نزولها: أن النبي ﷺ كان جالساً في أحد الأيام، مع جماعة من زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام، ويشرح لهم تعاليمه، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم - وكان كفيف البصر - فقال: أقرئني وعلمني مما علمك الله، يا

رسول الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم أن الرسول ﷺ مشغول بدعوة هؤلاء الزعماء إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم خلق كثير، فلما أكثر عبد الله من طلبه، أعرض عنه الرسول ﷺ فنزلت هذه الآيات التي عاتب الله تعالى فيها نبيه ﷺ على هذا الإعراض، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه - إذا رآه - ويقول له: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي» ويبسط له رداءه[1].

وعبد الله بن أم مكتوم، هو ابن خال السيدة خديجة، واسمه عمرو بن قيس. وأم مكتوم كنية أمه، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية، واستخلفه ﷺ على المدينة أكثر من مرة، وهو من المهاجرين الأولين، مات شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - [2].

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤﴾.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾: ﴿عَبَسَ﴾: فعل ماضٍ من العبوس، وهو تقطيب الوجه، وتغير هيئته بما يدل على الغضب.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: فعل ماضٍ من التولّي، وأصله تحوّل الإنسان عن مكانه الذي هو فيه إلى مكان آخر، والمراد به هنا الإعراض عن السائل وعدم الإقبال عليه.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٢/ ٤٥٢، وتُنظر الرواية عند الترمذي برقم ٣٣٣١، وهي صحيحة.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤/ ٤٩٥.

ومعمول التولي: محذوف، لمعرفة ذلك من سياق الآيات، إذ من المعروف أن إعراضه ﷺ كان عن عبد الله بن أم مكتوم الذي قاطعه خلال حديثه مع بعض زعماء قريش.

والتعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْمَىٰٓ﴾: للعهد، والمقصود بهذا الوصف ﴿ٱلْأَعْمَىٰٓ﴾: التعريف وليس التنقيص من قدر عبد الله بن أم مكتوم، رضي الله عنه، وكذلك في هذا الوصف إشارة إلى أن له عذرا في مقاطعة الرسول ﷺ عند حديثه مع زعماء قريش، فهو لم يكن يراه، وللإشعار بما يناسبه من الرفق والإصغاء.

وفي التعبير عنه ﷺ بضمير الغيبة ﴿عَبَسَ﴾: إجلال له ﷺ، وإشعار بأن هذه القصة، من الأمور التي لا يحب الله تعالى أن يواجه بها نبيه ﷺ على سبيل التكريم له، والعطف عليه، والرحمة به.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ إكرام له ﷺ، لما فيه من الإيناس والإقبال بعد الإعراض، مع أن الإعراض في العتاب تكريم وتخفيف له.

وفي استخدام الفعل الماضي في ﴿عَبَسَ﴾ دلالة على انتهائه وانقضائه، والفعل المضارع في ﴿يُدْرِيكَ﴾ دلالة على استمرار وتجدد الدراية، وهذا تلطف آخر في العتاب.

والضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعود إلى الأعمى، و(لعل) للترجي، وتعمل عمل إنَّ.

ومعنى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: يتطهر ويتزكى، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أصلها يتذكر، وأدغمت التاء في الذال للتقارب بينهما، وكذلك ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أصلها يتزكى وأدغمت التاء في الزاي.

وفي ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ قراءتان الأولى بالنصب، بأن مضمرة بعد فاء السببية[1]، والهاء مفعول به، و﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ فاعل، والقراءة الثانية: بالرفع عطفا على ﴿يَذَّكَّرُ﴾.

والمعنى: أي شيء يجعلك - أيها النبي الكريم - درياً بحال هذا الأعمى الذي عبست في وجهه لعله يتطهر ويزداد نقاء وخشوعا لله رب العالمين، أَوْ لعله يتذكر ما كان في غفلة عنه فتنفعه الموعظة التي سمعها منك، فأنت لا تعلم ذلك.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾

تفصِّلْ هذه الآيات في بيان عذر النبي ﷺ في ما فعل، وعذر الأعمى في ما فعل، وفيها توجيه وإرشاد لما ينبغي فعله.

وبيان ذلك : يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ بالقول: أما من استغنى عن الإيمان، واعتبر نفسه في غنى عن هديك وإرشادك، فَأَنْتَ تصغي لكلامه، رجاء أن يسلم، والحال أنه لا حرج عليك في أَلَّا يؤمن، فأنت عليك البلاغ فحسب ونحن علينا الحساب، وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ مسرعا في طلب الخير والهداية والعلم، وهو هذا الأعمى، الذي لم يمنعه فقدانه لبصره من الحرص على التفقه في الدين، وَهُوَ يَخْشى الله، ويخاف عقابه، ويرجو ثوابه، فأنت عنه تتشاغل، وتفرغ جهدك مع هؤلاء الزعماء، طمعا في إيمانهم.

(١) هي التي يقع الفعل المضارع بعدها منصوبا بأن مضمرة، ويكون ما قبلها سببا لما بعدها، ولا تأتي إلا بعد نفي أو طلب، ومنه الترجي.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾.

﴿كَلَّآ﴾ يحتمل أن تكون للردع والزجر عما سبق، فيوقف عليها سواء ابتدئ بها أو صلت بما قبلها، ويحتمل أن تكون بمعنى حقا أو بمعنى ألا فيُبدأ بها وتوصل بما بعدها.

ويعود الضمير في قوله ﴿إِنَّهَا﴾: إلى آيات القرآن الكريم، أي: إن آيات القرآن الكريم المشتملة على التذكير بالحق، وعلى الموعظة الحكيمة التي ينبغي على كل عاقل أن يعمل بموجبها، وأن يسير بمقتضاها.

وتدل الجملة الكريمة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢﴾: على تهديد الذين يعرضون عن الموعظة، وهي ليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة، أي: فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع.

وجيء بها جملة معترضة: للترغيب في حفظ هذه الآيات، وفي العمل بما اشتملت عليه من هدايات.

والمعنى: يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ قائلا له : يا رسول الله ليس الأمر كما فعلت، من إقبالك على زعماء قريش طمعا في إسلامهم، ومن تشاغلك وإعراضك عمن جاء يسعى وهو يخشى لأن آيات القرآن تذكرة، مثبتة في صحف عظيمة مُكَرَّمَةٍ عند الله تعالى لأنها تحمل آياته، وهذه الصحف – أيضا – ذات منزلة رفيعة مُطَهَّرَةٌ أي: منزهةٌ عن أن يمسها ما يدنسها، وهي كائنة بِأَيْدِي سَفَرَةٍ وهم الملائكة الذين جعلهم الله تعالى سفراء بينه وبين رسله: جمع سافر بمعنى سفير، أي: رسول وواسطة، أو هم الملائكة الذين ينسخون ويكتبون هذه الآيات بأمره تعالى جمع سافر بمعنى كاتب،

ومن صفاتهم أنهم كِرامٌ بَرَرَةٌ أي: أنهم مكرمون ومعظمون عنده تعالى، وأنهم أتقياء مطيعون لله تعالى كل الطاعة، جمع بَرٍّ، وهو من كان كثير الطاعة والخشوع لله، عزّ وجلّ.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾: معنى ﴿قُتِلَ﴾: لُعن وطُرد من رحمة الله تعالى، والمراد بالإنسان هنا: الكافر الجاحد لنعم ربه، ويصح أن يكون المراد به الجنس، ويدخل فيه الكافر دخولاً أولياً، والمقصود: التهديد والتحقير من شأن هذا الإنسان الجاحد.

وخص القتل دون غيره: لأن القتل أعظم شدائد الدنيا وفظائعها.

وأهمية ورود جملة ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾: التعجيب من إفراط الإنسان في كفران نعمة الله، وتعليل لاستحقاق هذا الإنسان الجاحد التحقير والتهديد.

﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾: بعد أن بين الله تعالى شدة كفر الإنسان بيّن في هذه الايات جانبا من نعمه، التي تستحق من هذا الإنسان الشكر لا الكفر، فقال: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: من أي شيء خلق الله تعالى هذا الإنسان الكافر الجحود، حتى يتكبر ويتعظم عن طاعته، وعن الاعتراف بأن هناك بعثا وحسابا وجزاء؟ ثم وضح - سبحانه - كيفية خلق الإنسان فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: خلق الله تعالى الإنسان من نطفة، أي: من ماء قليل يخرج من الرجل إلى رحم المرأة، فأوجد الله تعالى الإنسان بعد ذلك إيجادًا متقنًا محكمًا مقدّرًا أحسن تقدير، حيث صير بقدرته النطفة علقة فمضغة، ثم أنشأه خلقا آخر، فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾: معنى تيسير السبيل: تيسير الله تعالى للإنسان طريق النظر القويم بما منحه من العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال. ويحتمل أن يكون المراد بالآية: تيسير أمر الولادة والخروج إلى الدنيا، فإنه من الآيات العجيبة، وفي هذا القول مناسبة للسياق كذلك.

وجاء العطف بـ«ثم» هنا للإشعار بالتراخي الرُّتْبي، لأن تيسير معرفة طريق الخير والشر، أعجب وأدل على قدرة الله تعالى وبديع صنعه من أي شيء آخر.

ويشير قوله جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ إلى أن مواراة الأجساد في القبور نعمة من نعم الله على خلقه، فهي لم تترك مطروحة على وجه الأرض، بحيث يستقذرها الناس، وتكون عرضة لاعتداء الطيور والحيوانات عليها.

وعلق مجيء البعث بالمشيئة: للإشعار بأن هذا البعث إنما هو بإرادته ومشيئته، وفي الوقت الذي يختاره ويريده، مهما تعجّله المتعجّلون.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾: سيقت هذه الآية: لزجر الإنسان زجرًا شديدًا بسبب تقصيره في أداء حق خالقه - سبحانه وتعالى -، والمعنى: كلا إن هذا الإنسان الجاحد المغرور لم يقض ولم يؤد ما أمره الله تعالى به من تكاليف ومن شكرِ خالقه، ومِن تأمّلِ آياته، ومن طاعة رسله بل استمر في طغيانه وعناده.

والمقصود بهذه الآية الكريمة: ردع هذا الإنسان الجاحد وزجره، وبيان أن هذا الردع سببه إهماله لحقوق خالقه، وعدم اهتمامه بأدائها.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

المراد بالنظر هنا: التدبر والتفكر كيف أوجد الله له هذا الطعام، ورزقه إياه، ومكنه منه، فإن في هذا النظر، ما يعينه على طاعة خالقه، وإخلاص العبادة له.

ومظاهر تهيئة هذا الطعام للإنسان:

* إنزال المطر من السماء إنزالا مصحوبا بالقوة والكثرة، للحاجة الشديدة إليه في الحياة.

* شق الأرض بالنبات شقا بديعا حكيما بحيث تخرج النباتات من باطنها خروجا يبهج النفوس، وتقر به العيون. ومن هذه النباتات:

(١) الحب الذي يقتات منه ويدخر لحين الحاجة اليه، والحب: يشمل الحنطة والشعير والذرة.

(٢) العنب وهو ثمر الكرم المعروف بلذة طعمه.

(٣) القَضْب وهو كل ما يؤكل من النبات رطبا، كالقثاء والخيار ونحوهما، وقيل: هو العلف الرطب الذي تأكله الدواب، وسمى قضبا، لأنه يقضب - أي يقطع - بعد ظهوره مرة بعد أخرى.

(٤) الزَّيْتُون: وهي الثمرة المعروفة، وفوائدها كثيرة، ويحصل الانتفاع بكل أجزاء هذه الشجرة المباركة: الجذع والأوراق والثمرة والنوى.

(٥) النَّخْل. وهي شجرة معروفة بمنافعها الجمة، وبثمارها المفيدة والمتنوعة، وتستعمل رطبة ومجففة.

(٦) الحدائق وهي البساتين المليئة بالزروع والثمار، وغُلْباً جمع غلباء، أي: وأنبتنا في الأرض حدائق عظيمة، ذات أشجار ضخمة، قد التف بعضها على بعض لكثرتها وقوتها.

(٧) الَفاكِهَة: وهي اسم للثمار التي يتناولها الإنسان على سبيل التفكه والتلذذ، مثل المشمش والتفاح والموز والبرتقال.

(٨) الأَبُّ: اسم للكلأ الذي ترعاه الأنعام، مأخوذ من أبّ فلان الشيء، إذا قصده واتجه إليه.

وتُحمَل الرواية عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه سئل عن الأبّ فقال: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به»[1]، والروايةُ عن عمر - رضى الله عنه - أنه قرأ هذه الآية فقال: «كل هذا قد عرفنا، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت في يده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأبّ؟ ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه»[2]، على أن هذا اللفظ لم يكن مستخدما في قريش بكثرة.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾: خلق الله تعالى هذه النعم لتكون موضع انتفاع للإنسان والأنعام إلى حين من الزمان، إذ المتاع: هو ما ينتفع به الإنسان إلى حين ثم ينتهى ويزول، ونصب ﴿مَّتَٰعًا﴾ بفعل محذوف، أي: فعل ذلك متاعا لكم، أو متعكم بذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم، وفي هذه الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ١٨٠، وذكره عدد من المفسرين منهم ابن عادل في اللباب ٢٠/ ١٦٨، وفي سنده انقطاع، فهو ضعيف.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ١٨٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٥٤١، وأورده عدد من المفسرين منهم ابن عطية ١٠/ ١٤٢، وابن عادل في اللباب ٢٠/ ١٦٨، وهو صحيح.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: الصيحة الشديدة التي تصخّ الآذان، أي تزلزلها لشدة صوتها، وأصل الصخ: الصك الشديد، والمراد بها هنا: النفخة الثانية التي بعدها يبعث الناس من قبورهم، أي: فإذا جاءت الصيحة العظيمة التي بعدها يخرج الناس من قبورهم للحساب والجزاء، يحصل ما يحصل من سعادة أقوام، ومن شقاء آخرين.

وجواب ﴿فَإِذَا﴾: محذوف يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، ويصح أن يكون جوابه قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾﴾.

ومعنى الفرار: الهروب من أجل التخلص من شيء مخيف.

والمعنى: يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء يكونون في كرب عظيم، يجعل الواحد منهم، يهرب من أخيه الذي هو من ألصق الناس به، ويهرب كذلك من أمه وأبيه، ومن صاحبته - وهي زوجه - وبنيه الذين هم فرع عنه.

والمراد بفراره منهم: عدم اشتغاله بشيء يتعلق بهم، وعدم التفكير فيهم وفي الالتقاء بهم، لاشتغاله بحال نفسه اشتغالا ينسيه كل شيء سوى التفكير في مصيره، وذلك لشدة الهول.

وخص - سبحانه - هؤلاء بالذكر: لأنهم أخص القرابات، وأولاهم بالحنو والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا في أشد حالات الخوف والفزع، ولذا أتبعه بقوله:

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾: لبيان سبب الفرار، وللمبالغة في تهويل شأن هذا اليوم، أي: لكل واحد منهم في هذا اليوم العظيم، شأن وأمر يغنيه ويكفيه عن الاشتغال بأي أمر آخر سواه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾: يبين الله تعالى أنه عند قيام الساعة هناك وجوه كثيرة في هذا اليوم تكون مضيئة مشرقة، يعلوها السرور، والاستبشار والانشراح، لما تراه من حسن استقبال الملائكة لهم، والمراد أن هذه الوجوه متهللة فرحا، وعليها أثر النعيم.

وإعراب ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة، إلا أنه صح الابتداء به لكونه في حيز التنويع، و﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ خبره، وقوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلق به.

وأسندت هذه الصفات إلى الوجوه والمراد أصحابها من باب المجاز المرسل، ولأن علامات الانفعال والتأثر تكون في الوجه.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾: معنى ﴿غَبَرَةٌ﴾ أي: عليها غبار، وذلك من شدة الهم والكرب والغم الذي يعلوها.

ومعنى ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: تغشاها وتعلوها ظلمة وسواد، وذلة وهوان، من شدة ما أصابها من خزي وخسران.

وجمع بين هاتين الصفتين ﴿ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾: لأنهم جمعوا بين الكفر الذي هو فساد الاعتقاد، وبين الفجور الذي هو فساد القول والفعل.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من أصحاب الوجوه المسفرة، الضاحكة المستبشرة.

فوائد ولطائف:

١- عظيم منزلة النبي الكريم ﷺ عند الله سبحانه، حيث جعل العتاب له بصيغة الفعل الماضي وبضمير الغيبة ﴿عَبَسَ﴾، ثم انتقل إلى الفعل المضارع والخطاب في ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ تلطفا معه وتخفيفا للعتاب.

٢- بيان الميزان الذي أنزله الله تعالى للناس مع الرسل، لكي يبنوا عليه حياتهم، وهو: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣]، فالإسلام جعل أساس التفاضل بين الناس الإيمان والتقوى.

٣- إثبات أن القرآن كلام الله وليس من عند النبي ﷺ، إذ لا يعاتب المرء نفسه أمام أتباعه.

٤- قيام النبي ﷺ بتبليغ كل ما أوحي إليه بأمانة تامة، وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه السورة»[(١)]، وذلك لما فيها من عتاب له ﷺ.

٥- شمول علم الله تعالى لدقائق الأمور وخفاياها.

٦- الانشغال بالمفضول عن الفاضل مما يستدعي العتاب والتنبيه.

٧- الإرشاد إلى مراعاة ذوي الاحتياجات في التعامل معهم، وإعطائهم الأولوية على غيرهم.

٨- نُبل المقصد في العبوس الذي حصل وهو الحرص على الدعوة والرغبة في استجابة رؤوس الكفر إلى الإيمان.

٩- جواز استخدام اللقب الذي اشُتهر به المرء كالأعمى والأعرج والأعمش إذا كان بقصد التعريف.

---

(١) ذكره عدد من المفسرين منهم ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣٦.

١٠- لا يمنع وجود العلة في جسم الإنسان من طلب العلم والسعي إليه والاجتهاد فيه، والعيش بإيجابية في المجتمع.

١١- الابتلاء بفقد البصر سبب لرفعة الدرجات عند الله، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: إن الله قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوّضته منهما الجنة» يريد: عينيه[١].

١٢- على المتعلم تحرّي الوقت المناسب للسؤال.

١٣- أهمية الوعظ التذكير وأثره على نفوس من يُلقى عليهم.

١٤- فضل السعي في طلب العلم.

١٥- الإرشاد إلى فقه الموازنة بين المصالح عند تزاحمها، وتقديم الأهم على المهمَ، ومن ذلك أن المؤمن أحق بالرعاية والاعتناء والإقبال من الكافر.

١٦- إكرام الصحف التي تحوي الآيات والتعامل معها بما يليق من الاحترام والتقدير والحفظ.

١٧- توجيه أهل القرآن أن يتصفوا بصفات السفرة الكرام البررة في خُلقهم وفعلهم، وفي الحديث تشبيه حامل القرآن بهم في قوله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[٢].

١٨- ذمّ الكفر بأقوى الألفاظ وأشدها ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ مع التعجيب من هذا الفعل وبيان استحقاق الكافر اللعن والهلاك.

١٩- التأمل في أصل الخلق والمآل طريق إلى الإيمان.

---

(١) رواه البخاري برقم ٥٦٥٣.

(٢) رواه مسلم برقم ١٨٩٨.

٢٠- اختصار قصة الحياة في كلمات يسيرة ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾.

٢١- دفن الميت إكرام له.

٢٢- ما يحصل في الكون من أحداث بأمر الله تعالى وحده.

٢٣- تنوع أصناف النباتات تكريماً للإنسان وتمتيعاً له.

٢٤- الحث على التأمل والتفكر في فضل الله تعالى على خلقه بتنويع الأطعمة نوعا وموسما وشكلا وحجما ولونا وتكوينا وفائدة، وأن الأنعام تأكل من النبات، تنتفع منه وتنفع الإنسان بحليبها ولحمها وسائر وجوه الانتفاع منها.

٢٥- تصوير شدة الهول والفزع يوم القيامة.

٢٦- انشغال المرء بالأمر العظيم ينسيه ما هو أقل منه.

٢٧- رتبت الآية الكريمة الأشخاص الذين يفر المرء منهم يوم القيامة ترتيبًا بديعًا، حيث بدأت بالأخ، والمعتاد أن الأخ يرافق أخاه معظم حياته، وثنّت بالوالدين اللذين يرافقان المرء في الشطرالأول من حياته، وختمت بالزوجة والأولاد الذين يرافقون المرء في الشطر الأخير من حياته.

٢٨- قيل في تعليل سبب فرار المرء من أقاربه: حذرا من مطالبتهم إياه بحقوقهم، أو لئلا يروا ما هو فيه من الشدّة، أو لعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئًا.

٢٩- ظهور أثر الحالة النفسية للناس يوم القيامة على وجوههم.

تفسير سورة التكوير (٨١)

تمهيد:

أسماؤها: «التكوير»، وتسمى سورة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: تسع وعشرون آية.

فضلها: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين، فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(١).

مقاصدها: تبيين علامات يوم القيامة، بأسلوب مؤثر يبعث في القلوب الخوف والوجل، والتأكيد على أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى، وليس من كلام البشر، وأن جبريل الأمين قد نزل به على قلب النبي ﷺ.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة عبس بذكر القيامة وأحوال الناس فيها، وبدأت سورة التكوير بشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها، فكأنها مكملة لها.

---

(١) رواه الترمذي برقم ٣٣٣٣، ورواه أحمد في المسند برقم ٤٨٠٦ وفيه زيادة: «وأحسبه قال: وسورة هود». والحديث صحيح (كما في تعليق الألباني على سنن الترمذي) أو حسن (كما في تعليق الأرنؤوط على المسند).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾: ورد لفظ ﴿إِذَا﴾ في هذه الآيات اثنتي عشرة مرة: لتشويق المخاطب للجواب، لأن السامع عندما يجد هذا الظرف تكرر يكون في ترقب وشوق لمعرفة الجواب، وعندما يسمعه يتمكن من نفسه كل التمكن.

و﴿إِذَا﴾ ظرف للمستقبل وهو مضمن معنى الشرط، وجواب الشرط قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

ومعنى ﴿كُوِّرَتْ﴾: أصل التكوير لفُّ الشيء على جهة الاستدارة، تقول: كورت العمامة، إذا لففتها والمعنى: إذا كان يوم القيامة يلف ضوء الشمس فيذهب انتشاره في الآفاق، والمراد إزالة الشمس والذهاب بها فتصبح مظلمة بعد أن كانت مضيئة، ويُظلم الكون تبعا لذهابها.

وإعراب لفظ ﴿الشَّمْسُ﴾: نائب فاعل مرفوع لفعل محذوف يفسره ما بعده، أي: إذا كورت الشمس كورت.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾: معنى: ﴿انكَدَرَتْ﴾: يقال: انكدر البازي، إذا نزل على فريسته بسرعة، وتكدر الماء إذا خلط به ما يجعله مائلا إلى السواد.

والمعنى: إذا كان اليوم الآخر ينقلب الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع. فتتساقط النجوم وتتناثر وتنقلب هيئتها من اللمعان والظهور إلى الظلام والسواد.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾: معنى ﴿سُيِّرَتْ﴾: اقتلعت من أماكنها فسارت في الفضاء بقدرة الله تعالى وعظمته، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾: ﴿ٱلْعِشَارُ﴾: جمع عُشَراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وتسمى بهذا الاسم إلى أن تضع لتمام السنة.

وخصت العشار بالذكر: لأنها كانت من أثمن الأموال عند العرب، وكانوا يحافظون عليها حتى في أشد حالات الخوف.

ومعنى تعطيلها: إهمالها وتركها بدون راع يحميها أو يلتفت إليها، وفي الإعلام بهذا بيان أن ما يصيب الناس من شدائد وأهوال يوم القيامة يجعلهم لا يلتفتون إلى أعز ما يملكون من أموال؛ لانشغال كل إنسان بنفسه.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾: المراد بالحشر هنا: جمع الحيوانات المتوحشة التي ليس في طبعها التأنس ببني آدم كالأسد والنمر وغيرهما من أماكنها المتفرقة وخروجها في ذهول دون أن يعتدي بعضها على بعض، مخالفة بذلك ما طبعت عليه من النفور والتقاتل.

وقيل: ﴿حُشِرَتْ﴾ بمعنى: بعثت للقصاص، فيحشر كل شيء حتى الذباب.

عن أبي هريرة في هذه الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «لتُؤَدَّنَّ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[1].

(١) رواه مسلم برقم ٢٥٨٢، والجلحاء التي لا قرون لها، وتسمى الجمّاء.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ : معنى ﴿سُجِّرَتْ﴾ مأخوذ من قولهم: سجر الحوض، إذا ملأه حتى فاض من جانبيه، وقيل مأخوذ من قولهم: سجر فلان التنور، إذا ملأه بالحطب المعدّ للحرق، أي أحميت بالنار حتى تبخرت مياهها.

والمعنى: إذا كان اليوم الآخر امتلأت البحار وفاض ماؤها واختلط عذبها بملحها، وصارت بحرا واحدا، أو اشتعلت ناراً، ويؤدي ذلك إلى تبخر مياهها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ : معنى ﴿زُوِّجَتْ﴾: مأخوذ من التزويج وهو جعل الشيء زوجا لغيره، بعد أن كان كلاهما فردا، ويطلق الزوج - أيضا - على الصنف والنوع، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

والمعنى: إذا كان يوم القيامة اقترنت الأرواح بالأجساد، أو كل واحدة من النفوس بمن يشبهها في العمل، أو قرنت النفوس بأعمالها.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ اسم مفعول من وأد يئد مقلوب من آد يؤود: إذا أثقل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لأن الوأد إثقال بالتراب وهو دفن الطفلة حية.

والذي حملهم على وأد البنات: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن، أو الخوف من الإملاق.

وتوجيه السؤال إلى الموءودة عن ذنبها الذي قتلت به، ولم يسأل الوائد عن موجب قتله لها: لأن في ذلك تبكيتا وتوبيخا لقاتلها، نحو التبكيت -

لقوم عيسى - في قوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

والمعنى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ على سبيل التبكيت والتقريع لمن قتلها، بأي سبب من الأسباب قتلك قاتلك.

ولا شك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها، وإنما القصد من ذلك إلزام قاتلها الحجة، حتى يزداد افتضاحاً على افتضاحه.

وقد ورد في القرآن ذكر ما كان يفعله أهل الجاهلية من قتلهم للبنات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

ولم يكن الوأد موجودا عند جميع قبائل العرب، فقريش - مثلا - لم يعرف عنها ذلك وإنما عرف في قبائل ربيعة، وكنده، وتميم، ولكنهم لما كانوا جميعًا راضين عن هذا الفعل، جاء الحكم عامًّا في شأن أهل الجاهلية.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ : معنى نشر الصُّحُفِ بسطها وهي صحف الأعمال التي سجلتها الملائكة على أصحابها بعد أن كانت مطوية عند الموت، سواء أكانت تلك الأعمال خيراً أم شراً. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ : الكشط: قلع الشيء الملتصق بشدة، كما يكشط جلد الكبش والبعير، أي قلعت السماء وأزيلت فلا تبقى على هيئتها التي كانت عليها، من إظلالها لما تحتها.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ : الجحيم من أسماء جهنم، وتسعيرها إيقادها إيقادًا شديدًا وإضرام نارها وزيادة إحمائها، أما الجنة فإنها تقرب وتظهر لأهلها من المؤمنين الموعودين بها، أو يُقرَّبون هم منها ويُدنون إليها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ : هذه الآية جواب شرط ﴿وَإِذَا﴾ الظرفية المكررة في الآيات السابقة، أي: إذا حصلت هذه الأمور تبين لكل نفس ما عملته من خير أو شر، ومن حسن أو قبيح، ورأت ذلك رأي العين.

والمراد بالنفس: عموم الأنفس، ولا تُطلق النفس إلا حال اجتماع الروح والجسد معًا.

وأسند - سبحانه - الإحضار إلى النفوس: لأنها هي المباشرة لأعمالها في الدنيا، والتي ستجد جزاءها في الآخرة.

وجُعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط: تهويلا للخطب، وتفظيعا للأمر، وإشعارا بأن ما يسبق يوم القيامة وما يعقبه، كل ذلك من الأهوال التي يشيب لها الولدان.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ : الفاء: للتفريع على ما تقدم من تحقيق وقوع البعث، وهي تعطي - أيضًا - معنى الإفصاح.

وجيء بِـ ﴿فَلَآ﴾ قبل القسم لتأكيده، ويجوز أن تكون على بابها أي نافية، ونفي القسم يكون في حال وضوح الأمر.

والخُنَّس: جمع خانس، والخنوس: الاستخفاء والاستتار، يقال: خنست الظبية والبقرة، إذا اختفت في بيتها، والمراد بها في الآية النجوم، وقيل: الظّباء.

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾: معنى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي التي تجري بسرعة، من الجري بمعنى الإسراع في السير.

و﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ جمع كانس. يقال: كنس الظبى، إذا دخل كِناسه - بكسر الكاف - وهو البيت الذي يتخذه للمبيت، وسمي بذلك لأنه يتخذه من أغصان الأشجار، ويكنس الرمل إليه حتى يكون مختفيا عن الأعين.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ : معنى ﴿عَسْعَسَ﴾: أدبر ظلامه أو أقبل، فهذا اللفظ من الألفاظ التي تستعمل في الشيء وضده، وقيل: العسعسة: رقة الظلام وذلك في طرفي النهار، فيكون من المشترك المعنوي، ولعل القول بأنه بمعنى الإقبال أنسب لما سيُذكر في الآية التالية:

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ : أي: أضاء وأسفر وتبلج.

والمعنى: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن البعث حق، فأقسم بالنجوم التي تخنس بالنهار، أي: يغيب ضوؤها عن العيون بالنهار، ويظهر بالليل، والتي تجرى من مكان إلى آخر بقدرة الله تعالى ثم تستتر وقت غروبها، وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه، والصبح إذا أقبل بضيائه، وفي كل ذلك دلالة ظاهرة على قدرة الله تعالى، وعلى بديع صنعه في خلقه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ : هذا جواب القسم؛ والرسُول الكَرِيمُ جبريل - عليه السلام - الذي أرسله ربه إلى نبيه محمد ﷺ بالقرآن الكريم.

ونسب الله القول إلى الرسول - وهو جبريل - لأنه هو الواسطة في تبليغ الوحي إلى النبي ﷺ.

ووصف - سبحانه - أمين وحيه جبريل بخمس صفات تدل على كرامته وسموّ مقامه:

أولها: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: ملَك شريف، حسن الخلق، بهيِّ المنظر.

ثانيها: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: صاحب قوة وبطش، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

ثالثها: ﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: أنه ذو مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة عند الله تعالى.

رابعها: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أي يطيعه من معه من الملائكة المقربين.

وخامسها: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي أمين في تبليغ ما كلّف به بدون أية زيادة أو نقص، وثَمَّ: ظرف مكان بمعنى هناك.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾: الخطاب لأهل مكة، وذكر رسول الله ﷺ بوصف الصحبة: للإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يتهمونه بالجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك، عن علم منهم، بأنه أعقل الناس وأكملهم، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم.

والمقصود: نفي الجنون عن النبي ﷺ بأكمل وجه، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول من يعلم - عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره، وسمو أخلاقه - بطلانها، وأنه أكمل الناس عقلا وأقومهم سلوكاً.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾: المقصود بالرؤية: رؤية النبي ﷺ لجبريل - عليه السلام - لأول مرة على الهيئة التي خلقه الله عليها.

ومعنى الأفق: الفضاء الواسع الذي يبدو لِلعيْنِ بين السماء والأرض.

ووصف الأفق بالمبين: للدلالة على وضوحه، وأنه لا تشتبه معه المرئيات، ولا مجال فيه للأوهام والتخيلات.

والمقصود: الرد على المشركين الذين كانوا إذا أخبرهم الرسول ﷺ بأنه رأى جبريل كذبوه واستهزؤوا به، وتأكيد أن هذه الرؤية كانت حقيقة واقعة، لا مجال معها للتشكيك أو اللبس.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾: معنى ﴿بِضَنِينٍ﴾: مأخوذ من الضنِّ - بكسر الضاد وفتحها -، بمعنى البخل.

وفي قراءة: ﴿بظنين﴾ بالظاء، أي: وما هو على الغيب بمتهم، من الظنة - بكسر الظاء - بمعنى التهمة.

ومعنى الآية على القراءتين: أن رسول الله ﷺ لا يبخل بتبليغ الوحي بل هو مبلغ له على أكمل وجه وأتمه، وليس ﷺ بمتهم فيما يبلغه عن ربه، لأنه ﷺ الصادق الأمين.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾: أي أن هذا القرآن الكريم، المنزل على سيدنا محمد ﷺ ليس بقول شيطان مرجوم مسترق للسمع، وإنما هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي هذا رد على المشركين الذين زعموا أن القرآن الكريم إنما هو من باب الكهانة، وأن الرسول ﷺ إنما هو كاهن، تلقنه الشياطين هذا القرآن، وفيه تزكية لجبريل، عليه السلام، ولمحمد ﷺ حيث أقام الحجة على صدقهما.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾: الفاء في ﴿فَأَيْنَ﴾: للتفريع، وأين: اسم استفهام عن المكان، والمراد به هنا: التعجيز والتقريع، وهو منصوب بقوله: ﴿تَذْهَبُونَ﴾.

والمعنى: إذا كان الأمر كما بينا لكم، فأي طريق تسلكون أوضح وأبين من هذا الطريق الذي أرشدناكم إليه؟ إنه لا طريق لكم سوى هذا الطريق الذي أرشدناكم إليه، وهو تذكرة وموعظة للخلق أجمعين، والمقصود: توبيخهم وتعجيزهم عن أن يأتوا ولو بحجة واحدة يدافعون بها عن أنفسهم.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾: موقع هذه الجملة الكريمة من الإعراب: بدل مما قبلها، للإشعار بأن الذين استجابوا لهدى القرآن قد شاؤوا لأنفسهم الهداية والاستقامة. والمقصود بهذه الجملة: الثناء على المؤمنين، والتنويه بشأنهم ورفع مكانتهم.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: وما تشاءون الاستقامة أو غيرها، إلا إذا شاءها وأرادها الله تعالى رب العالمين، إذ مشيئة الله تعالى هي النافذة، أما مشيئتكم فلا وزن لها إلا إذا أذنت بها مشيئته تعالى.

فوائد ولطائف:

١- افتتاح السورة بأداة الشرط (إذا) للتشويق لما سيأتي بعد، وتكريرها في الجمل اللاحقة للتهويل.

٢- من أحداث يوم القيامة تغير نظام الكون وانقلاب كثير من المعتادات.

٣- لفت نظر الخلق إلى أهمية الشمس لقيام الحياة، وإلى التأمل في عظمتها ودورها الكبير في إمداد الأرض بالحرارة والنور، حيث تمتد ألسنتها الملتهبة إلى ألوف الأميال، ودرجة الحرارة على سطحها ٥٦٠٠ درجة، و١٥ مليوناً في باطنها، وتبعد عن الأرض ٧ دقائق ضوئية.

٤- عظيم جرم وأد البنات، وهو من أفعال أهل الجاهلية العمياء.

٥- تكريم المرأة في الإسلام ورفع مقامها ومنزلتها، وتوبيخ من يظن أن العار سيلحقه بسببها.

٦- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ دليل على أن أطفال المشركين لا يُعذّبون، وأن التعذيب لا يُستحق إلا بذنب[1].

٧- ورد في قراءة شاذة: (وإذا الموؤودة سَأَلَتْ بأيِّ ذنب قُتِلْتُ)[2] فالسائل على هذه القراءة - التي تُحمل على التفسير - الموؤودة؛ تسأل وائدها عن السبب الموجب لقتلها وإنهاء حياتها التي وهبها الله تعالى، وهو سؤال إنكار وتعنيف.

٨- تقريب الجنة من المؤمنين يوم القيامة إكراماً لهم.

٩- ورد في السورة ذكر اثني عشر حدثا من أحداث يوم القيامة منها ستة أرضية، وستة سماوية، ومنها ستة قبل النفخ في الصور، وستة بعده.

١٠- الصورة الجميلة في التعبير عن طلوع الصبح بالتنفس، لما يرافق الصباح من نور ونسيم وحركة وحياة تدب في المخلوقات، وهو تعبير مجازي، أضفى على الجملة جمالا وروعة.

١١- الإشارة إلى ظهور الإسلام وانتشار نوره، وخنوس الكفر واضمحلاله، كما يأتي نور الصبح بعد الليل المظلم.

١٢- عظيم منزلة جبريل عليه السلام ومقامه عند الله تعالى.

١٣- رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام بهيئته الملكية تكريماً له.

١٤- اتصاف الشيطان بأقبح الصفات وأخسها من خبث ولؤم وكذب وحسد وكبر وغرور أدى إلى استحقاقه الرجم والطرد من رحمة الله.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١٠/ ١٥٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٩، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٤٢٤.

١٥- القرآن الكريم محفوظ من أي نقص أو تغيير أو تحريف أو زيادة، حيث تحف به أسباب الحفظ والاعتناء.

١٦- شدة الإنكار على من يبحث عن الهدى في غير كتاب الله تعالى، حيث وُجّه إليهم السؤال الاستنكاري: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟

١٧- مشيئة الله تعالى هي الغالبة في هذا الكون.

تفسير سورة الانفطار (٨٢)

تمهيد:

أسماؤها: سورة الانفطار، وتُسمى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ بأول آية فيها.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: تسع عشرة آية.

فضلها: ورد في فضلها الحديث المذكور في فضل سورة التكوير.

مقاصدها:

- إثبات البعث، وبيان أهوال يوم القيامة، وتنبيه الناس إلى وجوب الاستعداد لهذا اليوم الشديد.
- بيان بعض نعم الله على خلقه، وتوجيه العتاب للإنسان على كفره واغتراره بالله.
- بيان حسن عاقبة الأبرار، وسوء عاقبة الفجار.

مناسبتها لما قبلها: أن كلتا السورتين تتحدث عن القيامة وأهوالها ومشاهدها، إلا أن المشهد هنا أخصر وأهدأ.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

معنى: ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾: يقال: فطرت الشيء فانفطر، أي: شققته فانشق، والمراد: تصدع السماء وتشققها في الوقت الذي يريده الله، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾.

ومعنى ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾: يقال: نثرت الشيء على الأرض، إذا ألقيته عليها متفرقا، فانتثار الكواكب معناه: تفرقها عن مواضعها التي كانت فيها.

ومعنى ﴿فُجِّرَتْ﴾ يقال: فُجّر الماءُ إذا سال بشدة، فتفجير البحار: إزالة الحواجز التي بينها، فتختلط بعضها ببعض فتصير جميعها بحرا واحدا.

ومعنى ﴿بُعْثِرَتْ﴾ يقال: بعثر فلان متاعه، إذا فرّقه وبدّده وقلب بعضه على بعض، فبعثرة القبور: أي صار باطنها ظاهرها، وخرج ما فيها من الموتى مسرعين، للحساب والجزاء.

والظاهر أن الأحداث الثلاثة الأولى قبل النفخ في الصور، والرابعة بعده.

والمراد بهذه الآيات: بيان ما سيحل بالكون من خراب عند فناء الدنيا، وبدء الآخرة.

وجواب ﴿إِذَا﴾ وما عطف عليها قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ...﴾ أي: علمت كل نفس وقت هذه المذكورات الأربعة ما قَدَّمَتْ من الأعمال خيرًا كانت أو شرًّا، وما أخرت منها فلم تعمله، وكررت ﴿إِذَا﴾ لتهويل ما في حيزها من الدواهي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾: هذا أحد نداءين أفرد فيهما الإنسان، والنداء الآخر في سورة الانشقاق، وفي إفراد الإنسان بالنداء

تخصيص ولفت نظر إلى جانب الإنسانية في خلقه، فهو أفضل المخلوقات وأشرفها.

المقصود بالاستفهام: الإنكار والتعجيب من حال هذا الإنسان المخدوع، وهو وعيد فيه تذكير بالنعم.

ومعنى الغرور: الخداع. يقال: غر فلان فلانا، إذا خدعه.

والمعنى: يا أيها الإنسان المخلوق بقدرة ربك وحده، أي شيء خدعك وجعلك تنحرف عن جادة الصواب بالكفر بالله تعالى وبالعصيان والتقصير في أداء حقوقه؟

وسر إيثار تعريف الله تعالى بصفة الرب: لما في معنى الرب من التربية والرعاية والملكية، والإيجاد من العدم، ولذا أتى بعده باسمه ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ لينبه على أنه لا ينبغي أن يُقابَل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمالِ السوء، بل يُقابَل بالشكر والطاعة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: ورد في هاتين الآيتين ذكر أربعة أمور من كرم الله تعالى ونعمه وإحسانه على الإنسان:

(أ) الخلق: وهو الإيجاد على هيئة معينة.

(ب) التسوية: أي جعل الأعضاء سوية سليمة، مهيأة لاكتساب منافعها على حسب ما تقتضيه حكمة خالقها.

(ج) التعديل: هو جعل البنية معتدلة، متناسبة الأعضاء فلم يجعل - مثلًا - إحدى اليدين طويلة والأخرى قصيرة، ولم يجعل - مثلًا - جانبا من الجسد أبيض، والآخر أسود، فالتسوية ترجع إلى عدم النقصان في الأعضاء، والتعديل يرجع إلى عدم التخالف فيها، وهذا باعتبار الأصل في خلق الإنسان، فلا عبرة بوجود ما يخالف ذلك في قلة من أفراد الإنسان.

وقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ فيه قراءتان بفتح الدال مع التخفيف، وبفتحها مع التشديد، وهما متقاربتان، إلا أن التشديد يفيد المبالغة.

(د) التركيب: من مظاهر قدرته وكرمه سبحانه تركيب الإنسان وجعله في أجمل صورة وأكمل هيئة بين سائر المخلوقات على الأرض.

والمقصود من الآيات الكريمة: تذكير الإنسان بفضل ربه تعالى عليه، وحضه على طاعته وشكره، وتوبيخه على تقصيره وجحوده، وتهديده بسوء المصير إذا ما استمر في غفلته وغروره.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾: ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر، عن الاغترار بكرم الله تعالى وعن جعله ذريعة إلى الكفر والفسوق والعصيان.

و﴿بَلْ﴾: إضراب[1] عن جملة مقدرة، تفهم من سياق الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض، وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجترئون على أعظم منه، حيث تكذبون بالجزاء والبعث.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾: انتقلت الآيات إلى ذكر بعض أعمال الملائكة وصفاتهم:

(أ) حفظ الأعمال كلها وتسجيلها دون أن يضيعوا منها شيئاً.

(ب) الكرامة والمنزلة الحسنة لهم عند الله تعالى.

(ج) العلم بالأفعال سواء أكانت قليلة أم كثيرة، صغيرة أم كبيرة.

---

(١) الإضراب قسمان:
أ - إبطالي وهو نفي الحكم السابق المذكور قبل بل، والانصراف عنه إلى الحكم المذكور بعد بل.
ب - انتقالي: وهو الانتقال من غرض قبل بل إلى غرض جديد بعده مع إبقاء الحكم السابق على حاله وعدم إلغاء ما يقتضيه (النحو الوافي ٣/ ٦٢٣).

والمقصود بهذه الآيات الكريمة: بيان أن البعث حق، وأن الحساب حق، وأن الجزاء حق، وأن أعمال الإنسان مسجلة عليه تسجيلا تامًّا، بواسطة ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: جمع بر - بفتح الباء -، وهو الإنسان التقي الموفي بعهد الله تعالى.

و﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: جمع فاجر، وهو الإنسان الكثير الفجور، أي: الخروج عن طاعة الله تعالى.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي يدخلونها يصيبهم لهبها ويحيط بهم حرها، مأخوذ من صلي الشاة حال عرضها على النار، والتعبير بالصلي فيه تخفيف في عرض صورة عذابهم في النار.

و﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾: هو يوم الجزاء بالعدل، الذي كانوا يكذبون به في الدنيا.

و﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ تقرير لدوام عذابهم واستمراره وخلودهم فيه.

والمعنى: إن المؤمنين الصادقين الذين وفوا بما عاهدوا الله عليه، لفي نعيم دائم، وهناء مقيم، وإن الفجار الذين نقضوا عهودهم مع الله، وفسقوا عن أمره، لفي نار متأججة بعضها فوق بعض، هؤلاء الفجار يدخلون الجحيم ويقاسون حرها يوم الجزاء والحساب، وما هم عن النار بمبعدين، بل هم ملازمون لها ملازمة تامة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾: هذا تفخيم وتعظيم لشأن يوم الجزاء بالسؤال عنه، ثم تأكيده مرة أخرى، فشأن هذا

اليوم عظيم لا ينبغي أن يتهاون أحد في الاستعداد له وفيه من الشدائد الشيء الكثير، ولا يمكن للإنسان بعقله المحدود وفهمه اليسير أن يدركه.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾: بيّن سبحانه أن الملك الحق والملك التام في ذلك اليوم له وحده وأن نفسا لا تملك فيه لنفسها ولا لغيرها نفعا ولا تأثيرا ولا شيئا، وأن ما كان يدّعيه أو يظنه الخلق لأنفسهم من ملك في الدنيا يزول ويُمحى في ذلك اليوم، كما قال سبحانه ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

فوائد ولطائف:

١- ورد في هذه السورة ذكر تناثر الكواكب، وفي سورة التكوير السابقة ورد ذكر انكدار النجوم، والفرق بين النجم والكوكب أن الأول مضيء بذاته، والثاني يعكس ضوء غيره، وهما من أعظم الأدلة على الخالق العظيم، حيث يحكمهما نظام دقيق وتوازن تام وجاذبية بمقدار مناسب يحفظ تباعد بعضها عن بعض والالتزام بمداراتها، وإن التأمل في عددها وتفرقها في الكون الهائل الاتساع مما يزيد الإيمان بالله واليقين بحُسن خلقه.

٢- رأى بعض المفسرين أن معنى تفجير البحار انفصال عنصري الماء، الهيدروجين والأكسجين مما يؤدي إلى حصول تفجير عنيف رهيب لا تُتصوّر شدّته وعظمته.

٣- الإنسان هو المخلوق المسوّى المعتدل في تكوينه الجسدي والعقلي والروحي، وأجهزة جسده تعمل بنظام دقيق جدا، كاليد والأذن والعين والفم والعقل والقلب والأعصاب والكلية والكبد، وغيرها من الأنظمة والأعضاء، فسبحان من خلق الإنسان في أحسن تقويم.

٤- تحذير الإنسان من الغرور والانخداع بهوى النفس وتزيين الشيطان.

٥- وصف الله عز وجل بالكريم يلقي في نفس المؤمن الراحة والهدوء والسكون والاطمئنان إلى كرم الله تعالى عليه في الدنيا بالهداية وسائر النعم وفي الآخرة بدخول الجنة والحصول على أعلى الدرجات فيها.

٦- من وظائف الملائكة تسجيل أعمال العباد، وعلى المرء استشعار معية الملائكة له والحياء والتأدب والتحفظ من فعل المنكرات وما لا يليق، فالملائكة خلق كرام.

٧- في وصف الملائكة بأربع صفات جليلة هي: الحفظ والكرم والكتابة والعلم، دعوةٌ لمن يقوم بعمل عامٍّ أو يتولى منصبا قياديا أن يتصف بهذه الصفات، ويقوم بحق العمل على الوجه الأكمل.

٨- يرى عدد من العلماء أن الكفار ليسوا بحاجة إلى وجود ملائكة كاتبين لأعمالهم لعدم تكليفهم بفروع الشريعة، ويرى آخرون أن الملائكة ترافق جميع البشر، وأن مهمة الملك الموكل بكتابة الحسنات - مع غير المسلمين - تقتصر على الشهادة والمراقبة لما يكتبه الملك الآخر.

٩- نصّ قوله تعالى ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ على علم الملائكة بفعل الإنسان، أما علمها بقوله فمذكور في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وعلمها بهمّه مذكور في الحديث: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، ...»[1]، والله أعلم بكيفية ذلك، وقيل: إذا همّ العبد بالحسنة وجدت الملائكة منه ريح المسك.

(١) رواه البخاري برقم ٦٤٩١، ورواه مسلم برقم ٣٥٤.

تفسير سورة المطففين (٨٣)

تمهيد:

أسماؤها: سورة «المطففين»، وسميت بأولها ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ وتسمى سورة «التطفيف».

نزولها: سورة المطففين مكية في قول كثير من المفسرين، وقيل إنها مدنية لما رُوي عن ابن عباس قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»(١)، وقيل نزلت بين مكة والمدينة، والراجح الأول، ومما يرجّح القول بمكيتها موضوعها وجرس آياتها وأسلوبها، وقد تكون آخر ما نزل بمكة كما في بعض الروايات، ويُحمل ما ورد في الرواية عن ابن عباس على التقريب، أي لما اقترب قدوم النبي ﷺ المدينة.

عدد آياتها: ست وثلاثون آية.

مقاصدها:

- بيان عظم شأن الجزاء وما أعده الله تعالى لبعض العصاة وتذكيرهم بأخس ما يقع من المعصية وهو التطفيف، وتوعدهم عليه.
- الحديث عن الفجار والأبرار وجزاء كل منهم.
- الحديث عن إيذاء أهل الفجور لأهل الإيمان في الدنيا، وعاقبة ذلك.

(١) رواه ابن ماجه برقم ٢٢٢٣، وهو حديث حسن.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة الانفطار بإجمال الحديث عن الأبرار والفجار، وفصّلت سورة المطففين فيه.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: اسم لا فعل له من لفظه، والمراد به: الهلاك أو الشر، وقيل: هو اسم واد في جهنم، وإعرابه في الآية الكريمة مبتدأ خبره متعلق ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وتقديره: كائن.

والمطففين جمع مطفف، من الطفيف، وهو القليل التافه الحقير، لأن ما يأخذه المطفف من غيره شيء قليل.

والتطفيف: الإنقاص في المكيال أو الميزان عن الحدود المطلوبة.

والمطفف: المقلل حق صاحبه عمّا له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن.

﴿اكْتَالُوا﴾: من الاكتيال، والمراد به: أخذ ما لهم من مكيل من غيرهم بحكم الشراء.

﴿يُخْسِرُونَ﴾: يقال: خسر فلان الميزان وأخسره، إذا نقصه، ولم يتمه كما يقتضيه العدل والقسط.

الواوان في: ﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: يعودان إلى الاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ﴾، والضميران المتصلان «هم»، يعودان إلى الناس.

وافتتحت السورة الكريمة بلفظ (الويل): للإشعار بالتهديد الشديد، والوعيد الأليم لمن يفعل ذلك.

والمعنى: يبين الله تعالى أن المطففين الذين يبخسون حقوق الناس في حالتي الكيل والوزن وما يشبههما، سيلحقهم عذاب أليم لا يقدر قدره، ومن مظاهر ذلك أنهم إذا اشتروا من الناس شيئا حرصوا على أن يأخذوا حقوقهم منهم كاملة غير منقوصة، وإذا باعوا لهم شيئا، عن طريق الكيل أو الوزن أو ما يشبههما يُخْسِرُونَ أي: ينقصون في الكيل أو الوزن.

ويبين الله تعالى أن هؤلاء صاروا من بلادة الحس، ومن فقدان الشعور، لا يخشون الحساب يوم القيامة، ولا يخافون العذاب الشديد الذي سينزل بهم، يوم يقوم الناس من قبورهم استجابة لأمر رب العالمين، حيث يتلقون جزاءه العادل، وحكمه النافذ.

ويلحظ في الآية الكريمة استخدام ﴿عَلَى﴾ بدل «مِن» أو «عند»: للإشارة إلى ما يلحق الناس من ضرر في اكتيالهم منهم، لأن حرف على فيه معنى العلو والاستيلاء والقهر والتسلط والظلم.

وكان التعبير بقوله: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾: للدلالة على حرصهم الشديد فيما يتعلق بحقوقهم وإهمالهم لحقوق الآخرين، إذ استيفاء الشيء أخذه وافيا تاما، فالسين والتاء فيه للمبالغة.

وجاء الحديث عن المطففين بهذا الأسلوب: لزيادة التوبيخ والإنكار، حتى لكأن سوء عاقبة التطفيف لا تخطر لهم على بال.

واستخدام اسم الإشارة في ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدل: «ألا يظنون»: لقصد تمييزهم والتشهير بهم، زيادة في ذمهم، وفي تقبيح أفعالهم.

و﴿يَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ منصوب على أنه بدل من ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ ومحله النصب بِـ ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾ المذكور، أو بمقدّر مثله لأن البدل على نية تكرير العامل.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾: ﴿كَلَّآ﴾: لردع المطففين وزجرهم عما كانوا فيه من الشرك، والتطفيف في الكيل والميزان.

معنى ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾ يقال: فجر فلان فجورا فهو فاجر، إذا تجاوز كل حد أَمَرَ الله تعالى بالوقوف عنده، وسمّي الفجار بذلك مبالغة في هتكهم لحرمات الله،، بدون خوف أو وجل.

والمراد بالكتاب: المكتوب أي: صحيفة الأعمال.

ومعنى ﴿سِجِّينٖ﴾: اسم علم أو وصف لواد في جهنم، صيغ بزنة فعّيل - بكسر الفاء مع تشديد العين المكسورة - مأخوذ من السّجن بمعنى الحبس، يقال: سجن الحاكم فلانا يسجُنه - بضم الجيم - سجنا، إذا حبسه، والمراد به الضيق، ولهذا عظَّمَ أمرَه فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾؟ وفي ذلك تهويل وتفظيع لهذا الشيء الضيق الذي يؤدي إلى القذف بهم في أعماق جهنم.

والمعنى: كلا، ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنه لا بعث ولا جزاء، بل الحق أن البعث أمر واقع، وأن ما عمله هؤلاء الفجار من كفر ومن تطفيف في الكيل والميزان مكتوب في صحائف أعمالهم، يفهم صاحبه ما فيه فهما جليا لا خفاء معه ولا التباس.

وقوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ بيان وتفسير لكتاب الفجار، وهو ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة.

ومعنى ﴿مَّرْقُومٌ﴾: مكتوب كتابة واضحة بينة تشبه الخط الظاهر في الثوب المنسوج.

وإعراب ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، و﴿مَّرْقُومٌ﴾ صفة له.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾: يتوعد الله تعالى أولئك المنكرين للبعث والحساب والجزاء والذين من صفاتهم تطفيف الكيل والميزان بالعذاب الأليم، والسجن الدائم في قاع جهنم.

وبيَّن الله تعالى أنه لا يكذب بهذا اليوم إلا كل إنسان متجاوز الحدود المشروعة، ومبالغ في ارتكاب الآثام والقبائح.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾: ومن صفات هذا المكذب - أيضاً - أنه إذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسولنا قالَ هي من أساطير الأقوام الأولين وترهاتهم وقصصهم المخترعة التي لا أصل لها.

والذي يلاحظ أن الله تعالى وصف المكذبين بثلاث صفات هي:

أ - الاعتداء على الحق.

ب - المبالغة في ارتكاب الآثام.

ج - الجرأة في الافتراء والكذب، حيث وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله تعالى.

والذي حملهم على قولهم هذا: الكفر والعناد والجحود الذي استولى على قلوبهم في الدنيا فغطاها وطمسها، فصارت لا تميز بين الكلام الحق والكلام الباطل، ولا بين كلام الله تعالى وكلام غيره، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾: بدأت الآية بـ ﴿كَلَّا﴾ التي هي للردع والزجر عما سبق بيانه من حالهم، وأخبرت أنه غطى وغلب وعلا على قلوبهم هذا الفعل فلم يعودوا يرتدعون عنه، و﴿رَانَ﴾ فعل ماضٍ مصدره الرَّين وهو الصدأ الذي يعلو الحديد والمرآة وما يشبههما.

وقد ورد في حديث نبوي توضيح حصول الرين على القلب، فقال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، أي: عاد إليه صفاؤه، وإن زاد - في الذنوب - زادت حتى تعلو قلبه، وذلك هو الران الذي قال الله في شأنه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(١).

قرأ الجمهور: ﴿بَل رَّانَ﴾ بإدغام اللام في الراء لتقارب مخرجيهما، وروى حفص عن عاصم سكتة خفيفة على لام بل فيمتنع له الإدغام بسبب السكت.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر عن سلوك الطريق المؤدي إلى حصول الرين على القلب، فتكون لما قبلها، أو هي بمعنى حقا فتكون لما بعدها.

المعنى: يخبرنا الله تعالى أن هؤلاء المكذبين سيكونون يوم القيامة محجوبين عن رؤية الله تعالى لسخطه عليهم، وممنوعين من رحمته، ثم إنهم بعد ذلك لداخلون في أشد طبقات النار حرا، ثم يقال لهم بواسطة خزنة جهنم على سبيل التقريع والتأنيب، هذا هو العذاب الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، وتقولون لمن يحذركم منه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

(١) رواه الترمذي برقم ٣٣٣٤، ورواه ابن ماجه برقم ٤٢٤٤، وهو حديث حسن.

والذي يلاحظ أن الآيات الكريمة السابقة اشتملت أشد ألوان الذل والخزي والإهانة، فقد أخبرت أن هؤلاء المكذبين:

(أ) محجوبون عن ربهم.

(ب) مقاسون حر جهنم.

(ج) لا يقابلون من خزنتها إلا بالتيئيس من الخروج منها، وبالتأنيب والتقريع.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر عن سلوك طريق الفجار المؤدي إلى العذاب والخسران، فتكون تابعة لما قبلها، أو هي بمعنى حقا أو بمعنى ألا فتكون تابعة لما بعدها.

وبعد أن بين الله تعالى مآل الفجار ذكر ما يقابل ذلك من أن كتاب الأبرار في عليين.

لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ جمع عِلِّيٍّ - بكسر العين وتشديد اللام المكسورة - من العُلُوِّ، وهو اسم للديوان الذي تكتب فيه أعمال الأبرار.

ومعنى ﴿كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: ما كتب من أعمالهم، فهو كتاب كريم مثبت في أعلى الأمكنة تكريما له وتعظيما، وما فيه من أعمال الأبرار سبب ارتفاع درجاتهم إلى أعالي المقامات في الجنة.

والمعنى: حقًّا إن ما كتبته الملائكة من أعمال صالحة للأتقياء الأبرار، لمثبت في ديوان الخير، الكائن في أعلى مكان وأشرفه، ولتفخيم شأن هذا الديوان قال تعالى ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ تعظيماً لأمره ومقامه.

ثم بيّن أن كتاب الأبرار ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾ أي: أنه كتاب واضح بين، يقرؤه أصحابه بسهولة ويسر، فتنشرح صدورهم، وتقر عيونهم، وهو فوق ذلك ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ يطلع عليه الملائكة المقربون من الله تعالى، ليكون هذا الاطلاع شهادة لهؤلاء الأبرار، بأنهم محل رضا الله تعالى وتكريمه وثوابه، وهذه الصفة جيء بها على سبيل المدح لهذا المكتوب من الأعمال الصالحة لهؤلاء الأخيار.

وبعد أن بين الله تعالى ما اشتمل عليه كتاب المؤمنين من خير وبر، بيَّن - سبحانه - حالهم في الجنة، ووصف حالهم فيها بصفات هي:

الصفة الأولى: كونهم في نعيم دائم لا يقادر قدره ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾.

الصفة الثانية : جلوسهم على السرر المهيأة لجلوسهم، ينظرون إلى كل ما يدخل البهجة والسرور على نفوسهم ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، ومعنى الأرائك: جمع أريكة - بزنة سفينة - وهي اسم للسرير الذي يكون مفروشا فرشا أنيقا جميلا، وحذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾: لقصد التعميم، أي: ينظرون إلى كل ما يبهج نفوسهم.

الصفة الثالثة: رؤية آثار النعمة والرفاهية على وجوههم من البهجة والحسن مما يدل على صلاح الحال. ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، وإضافة النضرة - وهي الجمال الواضح - إلى النعيم - الذي هو بمعنى التنعم والترفه - من إضافة المسبَّب إلى السبب.

الصفة الرابعة: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي: يسقيهم ربهم من الرَحِيق - وهي خمر طيبة بيضاء لذيذة، خالصة من كل كدر -، وهذه الخمر مخْتُوم على إنائها بخاتم، بحيث لم تمسها يد قبل أيديهم، ومن صفاتها أن شاربها يجد في نهاية شربها ما يشبه المسك في جودة الرائحة.

قرأ الجمهور ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾ وقرأ الكسائي ﴿خَاتَمهُ﴾، والخاتم والختام يتقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾: اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى الرحيق المختوم، الدال على حسن أحوالهم، أو إلى ما وصف من نعيم أهل الجنة.

والتنافس: أصله: التغالب في الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه النفوس، بحيث يبتغيه ويطلبه كل إنسان لنفسه خاصة.

أي: ومن أجل الحصول على ذلك الرحيق المختوم، والنعيم المقيم فليتسابق المتسابقون في وجوه الخير.

والمقصود من الآية الكريمة: تحريض الناس وحضهم على تقديم العمل الصالح، الذي يوصلهم يوم القيامة إلى أعلى الدرجات.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾: بعد وصف شراب أهل الجنة بأنه مختوم وبأن ختامه مسك وُصف في هذه الآية ما يمزج به، والمزج الخلط، وهذا المزج كائن من تسنيم: وهي عين في الجنة مسماة بهذا الاسم، وهذا اللفظ مصدر سنمه إذا رفعه، قالوا: وسميت هذه العين بهذا الاسم، لأنها تنبع من مكان مرتفع، أو لعلو مكانتها.

وإعراب ﴿عَيْنًا﴾: منصوب على المدح.

والمعنى: ومزاج هذا الرحيق وخليطه كائن من ماء عَينٍ في الجنة، مرتفعة المكان والمكانة، هذه العين يشرب منها المقربون إلى الله تعالى شرابهم، وتعدية الشرب في الآية بالباء بدل من لبيان حصول الخلط والمزج لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

في هذه الآيات الكريمة يحكي الله تعالى جانبا من الرذائل التي كان يفعلها المشركون مع المؤمنين فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾: أي إن الذين ارتكبوا في دنياهم أقبح الجرائم وأشنعها، وهم زعماء المشركين كانُوا في حياتهم يتهكمون بالمؤمنين، ويسخرون منهم، ويعتبرونهم الأراذل الذين يجب الابتعاد عنهم، وإذا مر هؤلاء بالمؤمنين سخروا منهم، وتغامزوا فيما بينهم على سبيل الاستهزاء بفقراء المؤمنين. والتغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفون والحواجب على سبيل الطعن والتهكم، أي: يغمز أحدهم الآخر لينبهه إلى ما عليه فقراء المسلمين من شظف العيش، وغير ذلك من الأحوال التي لا يرضاها المشركون لجهلهم وغرورهم وبلادة حسهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾: أي: وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من مجالسهم التي كانوا فيها، رجعوا متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين والسخرية منهم، فهم لإيغالهم في الكفر والفسوق والعصيان لا يكتفون بالغمز واللمز عندما يرون المؤمنين، بل يجعلونهم

عند عودتهم إلى أهليهم مادة تفكههم وضحكهم، ولم يكتفوا بذلك بل تجاوزوه، فهم عندما يرون المؤمنين يقولون عنهم: هؤلاء هم الضالون، لأنهم تركوا دين آبائهم وأجدادهم، ودخلوا في دين آخر، والحال أن هؤلاء المشركين ما أرسلهم الله تعالى ليكونوا وكلاء عنه، حتى يحكموا على هذا الفريق بالضلال.

روى حفص عن عاصم ﴿فَكِهِينَ﴾ جمع فِكه، وهي صفة مشبهة، وقرأ الجمهور ﴿فاكهين﴾ اسم فاعل: من فَكِه إذا مزح في كلامه ليضحك أو يضحك غيره.

فالمقصود بالآية الكريمة: تأنيب الذين أجرموا وتوبيخهم على تصرفاتهم، لأن الحكم على الغير بالهداية والضلال هم ليسوا أهلا له إطلاقا، لأن الله تعالى لم يكلفهم بذلك، وإنما كلفهم باتباع الرسول الذي أرسله لهدايتهم.

فحكمهم على المؤمنين بالضلال يدل على نهاية الغرور والجهل، وهذه بشارة من الله تعالى للمؤمنين بما سيكونون عليه يوم القيامة من نعيم.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾: الفاء في قوله ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: للسببية، والمراد باليوم: يوم الجزاء والحساب.

أي: فبسبب استهزاء الذين أجرموا من المؤمنين في الدنيا، كافأ الله تعالى المؤمنين على صبرهم، بأن جعلهم يوم القيامة يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مهانين، كما كان الكفار يضحكون من المؤمنين في الدنيا.

والمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين، وتبشيرهم بأنهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب، وأنهم - أي: المؤمنون - سيكونون يوم

القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش، وأنهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرهم ويبهج نفوسهم.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: الاستفهام للتقرير.

ومعنى ﴿ثُوِّبَ﴾: يقال: ثوَّب فلان فلانًا وأثابه، بمعنى جازاه المجازاة اللائقة به.

والمعنى: لقد جوزي الكفار بالجزاء المناسب لتهكمهم بالمؤمنين في الدنيا، فقد أنزلنا بهم ما يستحقونه من عقاب أليم، جزاء وفاقا، والتعبير بثوب - مع أنه أكثر ما يستعمل في الخير - إنما هو من باب التهكم بهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وجاء الجزاء بأسلوب الاستفهام: لتأكيد هذا الجزاء، حتى لكأن المخاطب هو الذي نطق بهذا الجزاء العادل الذي استحقه الكافرون، ولبيان أن عدالة الله تعالى تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين، وأن يبعدنا عن التطفيف وأهله.

فوائد ولطائف:

١- تطفيف الكيل والوزن من كبائر السيئات ومن مظاهر الأنانية، ولذا كثر وعيد فاعله في هذه السورة.

٢- للتطفيف صور عديدة فهو غير مقتصر على الكيل والوزن، فقد يكون التطفيف في الصلاة والوضوء، وسائر العبادات، بعدم أدائها على الوجه التامّ.

٣- يلحظ بناء هذه السورة على الوعيد والتخويف، فقد ورد فيها ﴿وَيْلٌ﴾ مرتين، وافتتحت بأحدهما، و﴿كَلَّا﴾ أربع مرات، وكثرت فيها عبارات

الوعيد أمثال: ﴿سِجِّينٍ﴾ ، ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٤- الوعيد على التطفيف عام يدخل فيه المسلم والكافر.

٥- أهل التطفيف عادة هم الكبراء وأصحاب النفوذ والسلطة، حيث يستغلون نفوذهم لفعل ما يريدون.

٦- إذا كان التطفيف متوعدا عليه بكل هذا الوعيد فكيف بما هو أعظم وأكبر منه، من أكل الحقوق ومنع أدائها وظلم الآخرين، وخداعهم وتضليلهم، وتجاوز الحدود وسائر المنكرات العظيمة.

٧- يروى أن أعرابيًّا وعظ عبد الملك بن مروان بقوله: «قد سمعتَ ما قال الله في المطففين، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟»[1]، وماذا كان هذا الأعرابي سيقول لمن في زماننا؟

٨- شمول علم الله تعالى لدقائق الأمور وخفيها، ومنها التطفيف في الكيل والوزن وغيرهما.

٩- شمول الإسلام لجميع جوانب الحياة، ومنها التطفيف، ولأهميته نزلت فيه الآيات قبل قيام دولة الإسلام، ولذا حارب الطغاة هذا الدين ووقفوا في وجه انتشاره لأنه يكشف انحرافهم وظلمهم.

١٠- قد يحصل التطفيف في قول أو عمل أو وزن أو كيل دون قصد من فاعله، وهذا يقتضي اليقظة والانتباه حال التعامل مع حقوق الآخرين.

١١- يجتمع في التطفيف مجموعة من الأعمال السيئة كالاستخفاف بالآخرين وظلمهم واستغفالهم وغشهم وأكل أموالهم بالباطل.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤/ ٧٢٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ٢٥٥.

١٢- الدعوة إلى إقامة العلاقات في المجتمع على التراحم والتسامح والصدق والوفاء.

١٣- إذا حصل الران على القلب اسودّ وانتكس، ويصل بعدها إلى مرحلة أن يقفل عليه، ثم يطبع عليه، ويُختم فلا يصله خير، ولا يؤمل فيه صلاح.

١٤- التناسب بين أعمال وجزاء الفجار عليها مع اسم المكان الذي تحفظ فيه ﴿سِجِّينٍ﴾، والتناسب بين أعمال المؤمنين وجزائهم مع اسم المكان الذي تحفظ فيه ﴿عِلِّيُّونَ﴾.

١٥- كثرة الذنوب تؤدي إلى الغرق في الضلال.

١٦- أطيب النعم ما كان آخره أحسنه، وما مُزج بغيره.

١٧- الحض على التنافس فيما يؤدي إلى نعيم الجنة.

١٨- الاستهزاء بالمؤمنين واستصغارهم والحكم عليهم بالضلال هو ديدن أهل الشرك والكفر، وسيلقون عاقبته الوخيمة.

١٩- عظيم الأجر لمن صبر واحتمل الأذى في الدنيا، ولم يقابل الاعتداء والاستهزاء بمثله، بل قابله بالإعراض عن السفه والطيش.

٢٠- كما ضحك الكافرون من المؤمنين في الدنيا، فإن المؤمنين سيضحكون منهم في الآخرة، فكما تدين تدان.

٢١- حذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾ في حق أهل الجنة يفيد العموم، من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ، وإلى ما أعده لهم من نعم في دار الخلد، وإلى حال الكفار في جهنم فيحمدون الله على النجاة منها.

تفسير سورة الانشقاق (٨٤)

تمهيد:

أسماؤها: سورة «الانشقاق» وتسمى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و«الشفق».

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: خمس وعشرون آية في العدد المكي والمدني والكوفي، وثلاث وعشرون آية في العدد الشامي والبصري.

فضلها: ورد في فضلها الحديث السابق ذكره في فضل سورة التكوير.

مقاصدها:

- وصف أشراط الساعة، والحديث عن أحوال السعداء والأشقياء يوم القيامة.
- لفت النظر إلى آيات الله في الكون، وتبيين بعض سنن الله في خلقه.
- حث المؤمنين على أن يزدادوا من الإيمان والعمل الصالح، وتحذير الكافرين من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم وفسوقهم.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة المطففين ببيان حال السعداء والأشقياء، وفي هذه السورة تأكيد وتفصيل شيء من ذلك.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

بدأت هذه السورة الكريمة بذكر بعض علامات بدء يوم القيامة وهي:

(١) انشقاق السماء: وهو بمعنى الانفطار والتصدع، وقد ورد في ذلك آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن].

ومعنى ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ «أذنت»: يقال: أذن له، بمعنى استمع له بإصغاء تام، والمراد استمعت لربها.

ومعنى ﴿وَحُقَّتۡ﴾ من قولهم فلان محقوق بكذا أي: وجب عليه ذلك وجوبا لا انفكاك له عنه.

والمعنى: جُعلت حقيقةً وجديرةً بالاستماع والانقياد لما يريده الله تعالى منها.

(٢) بسط الأرض: بحيث تصير في مستوى واحد، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه:١٠٧].

(٣) طرح الأرض ما بداخلها من موتى ومن كنوز، ومن غيرهما، وخلوّها من ذلك خلوّا تاما.

وقوله ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾﴾ تأكيد لقدرته تعالى ونفاذ أمره، أي: واستمعت الأرض كما استمعت السماء لأمر ربها، وحق لها أن تستمع وأن تنقاد لحكمه تعالى لأنها خاضعة خضوعا تاما لقضائه وأمره.

وجواب الشرط ﴿إِذَا﴾ وما عطف عليه: محذوف ليذهب المقدِّر فيه كل مذهب.

والمعنى: إذا السماء تصدعت واختل نظامها، وبُسطت الأرض وأخرجت ما بداخلها من أموات وغيرهم، واستمعت كل من السماء والأرض لأمر

ربها استماعًا تامًّا، وانقادت لحكمه انقياد العبد لسيده، وهما جديرتان بالانقياد والاستماع والطاعة في جميع الأحوال، إذا حدث كل ذلك قامت الساعة، ووجد كل إنسان جزاءه عند ربه سبحانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

لم يرد في الآيات نداء للإنسان بصيغة المفرد إلا هنا وفي سورة الانفطار، وفي ذلك تكريم وتنبيه وليستشعر كل واحد أنه المقصود بالنداء.

الكدح: هو السعي في سبيل الحصول على الشيء بجد واجتهاد.

والضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يعود إلى الكدح، بمعنى ملاقٍ جزاء هذا الكدح.

والمعنى: يا أيها الإنسان إنك ساع إلى ربك سعيا وعاملٌ عملا ثم إنك ستلقى جزاء ما عملت من خير أو شر، حيث يحاسبك ربك على عملك وكدحك، فكن مع الله واعمل الصالحات لكي تنال ثوابه ورضاه.

وقد جاء في الأثر: «قال جبريل: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استعناؤه عن الناس»[1].

والمراد بالكتاب هنا: صحيفة العمل التي سجلت فيها حسنات الإنسان وسيئاته.

(١) رواه الطبراني في الأوسط برقم ٤٢٧٨، والحاكم في المستدرك برقم ٧٩٢١، وهو حديث حسن.

وعبر - سبحانه - عن فوز هذا الإنسان، بأنه يؤتى كتابه بيمينه: للإشعار بأنه من أهل السعادة والتقوى، فقد جرت العادة أن اليد اليمنى إنما تتناول بها الأشياء الزكية الحسنة.

والباء في قوله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾: للملابسة أو المصاحبة، أو بمعنى في.

والحساب اليسير: هو السهل الذي لا مناقشة فيه بفضل الله تعالى. أي: الناس جميعًا يكدحون في هذه الحياة، ثم يعودون إلى خالقهم للحساب والجزاء، فأما من أُعطي كتابه بيمينه، وهم المؤمنون الصادقون، فسوف يحاسَب من ربه تعالى حسابا يسيرًا سهلًا، بدون مناقشة أو مطالبة بعذر أو حجة، وورد في الحديث توضيح معنى الحساب اليسير، فعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب إلا هلك، قلت يا رسول الله، جعلني الله فداك، أليس الله تعالى يقول ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، قال: ذلك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك»[1].

وعنها - أيضًا - قالت: «يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه»[2].

ثم يعود هذا الإنسان بعد ذلك إلى أهله وعشيرته، مبتهجًا مسرورًا، بسبب فضل الله تعالى عليه، ورحمته به.

ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء، بعد بيانه لحال السعداء فقال:

---

(١) رواه البخاري برقم ١٠٣، ومسلم برقم ٧٤٠٦.

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند برقم ٢٤٢١٥، وهذا الجزء من الحديث صحيح، كما ذكر محقق المسند.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾: أي: وأما من أُعطي صحيفة أعماله بشماله من وراء ظهره وهو الكافر - والعياذ بالله - قيل تغل يمناه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره، على سبيل الإهانة والإذلال له، فسوف يطلب الهلاك، بأن ينادي عليه بحسرة وندامة ويقول: أيها الموت أقبل فهذا أوانك، لتريحني مما أنا فيه من سوء.

وفي طلبه للهلاك، وتفضيله على ما هو فيه، دليل على أن هذا الشقي - والعياذ بالله - قد وصل به الحال السيئ إلى أقصى مداه، حتى لقد أصبح الهلاك نهاية أمانيه، كما قال الشاعر[1]:

كفى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحسبُ المنايا أن يكُنَّ أمانِيَا

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ بيان للعذاب الذي يحل به، أي: ويدخل النار الشديدة الاشتعال فيتقلب فيها، ويقاسي حرها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾: كان هذا الكافر في الدنيا منغمسا في الشهوات والملذات، منشغلا بها عن العبادة والطاعة.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾: حار فلان يحور إذا رجع، ومنه قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ»[2] يعني: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ تعليل لما أصابه من سوء، أي إن هذا الشقي كان في الدنيا يرى أنه لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب، ثم يثاب أو يعاقب، فهو لا يعمل حسابا لغير ملذاته وشهواته.

---

(١) القائل المتنبي، والبيت مطلع قصيدة له، في ديوانه ١/ ١٤٥.

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في المسند برقم ٢٠٧٨١، وهو صحيح.

والمراد بـ: ﴿بَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾: إيجاب لما نفاه، وإثبات لما استبعده، وجملة ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾ بمنزلة التعليل لما أفادته ﴿بَلَىٰٓ﴾ من إبطال لما نفاه.

أي: ليس الأمر كما زعم من أنه لن يبعث ولن يرجع إلى ربه، بل الحق الذي لا يشوبه باطل، أن هذا الشقي سيرجع إلى ربه يوم البعث والنشور، ليجازيه على أعماله، لأنه - سبحانه - كان - وما زال - عليما بأحوال هذا الشقي وغيره، إذ لا يخفى عليه - سبحانه - شيء في الأرض ولا في السماء.

والمراد بالبصر هنا: العلم التام بأحوال الخلق.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾: الفاء هنا فصيحة وهي واقعة في جواب شرط مقدر، أي: إذا تيقنتَ من البعث فلا أقسم، وجيء بـ﴿فَلَآ﴾ لتأكيد القسم.

ومعنى الشفق: الحمرة التي تظهر في الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وهو ضياء من شعاعها، وسمي شفقا لرقته.

والوسق: يقال: وَسَقَ الشيء يسِقُه إذا جمعه فاجتمع، والمراد جمع الأشياء، وضم بعضها إلى بعض.

واتساق القمر: اجتماع ضيائه ونوره، وذلك يكون في الليلة الرابعة عشرة من الشهر.

أي: أقسم بالحمرة التي تظهر في الأفق الغربي، بعد غروب الشمس، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله تعالى وبالقمر إذا ما اجتمع نوره، واكتمل ضياؤه، وصار بدرا متلألئًا.

ويدل القسم بهذه الأشياء على قدرة الله تعالى الباهرة، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال، ومن هيئة إلى هيئة، فالشفق حالة تأتي في أعقاب غروب الشمس، والليل يأتي بعد النهار، والقمر يكتمل بعد نقصان، وكل هذه الحالات الطارئة، دلائل على قدرة الله تعالى.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾، والمراد بالركوب: الملاقاة والمعاناة، والخطاب للناس، والطبق جمع طبقة، وهي الشيء المساوي لشيء آخر، والمراد بها هنا: الحالة أو المرتبة، وعن بمعنى بعد.

وفي ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ قراءتان؛ الأولى بضم الباء، وأصلها لتركبونّ وحذفت الواو اكتفاء بالضمة الدالة عليها وللتخفيف، والقراءة الثانية بفتح الباء، على أن المخاطب بها مفرد.

والمعنى على قراءة ضم الباء أي: وحق الشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق؛ لتلاقن - أيها الناس - أحوالا بعد أحوال، وفي المراد بهذه الأحوال عدة أقوال هي:

أ - طبقاتٌ ومراتب في الشدة، بعضها أصعب من بعض، وهي الموت، وما يكون بعده من حساب وجزاء يوم القيامة.

ب - تقلب الصروف والأحوال بالناس، قال مكحول: «كل عشرين عامًا تجدون أمرا لم تكونوا عليه»[1].

ج - مراحل الحياة من ولادة وطفولة وشباب وما بعدها إلى الشيوخة والضعف والعجز.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ٢٧٩، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٤٤٠.

والمعنى على قراءة ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفتح الباء أنه خطاب للإنسان والمراد به الجنس، ويحتمل المعاني الثلاثة التي ذُكرت مع قراءة ضم الباء، أو الخطاب للنبي الكريم ﷺ، أي: لتركبَن - أيها الرسول الكريم - أحوالا شريفة بعد أخرى من مراتب القرب، أو مراتب من الشدة بعد مراتب من الشدة، ثم تكون العاقبة لك، أو لتركبن سماء إثر سماء، وذلك في رحلة المعراج.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾: الفاء: لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها، ومعنى «ما» الاستفهام الإنكاري، أي: إذا كان الأمر كما وضحنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن البعث حق، ومن أن المستحق للعبادة هو الله تعالى وحده، فأي شيء يمنع هؤلاء الكافرين من الإيمان، وأي مانع منعهم من السجود والخضوع لله تعالى عندما يُقرأ عليهم القرآن الكريم، الذي أنزلناه عليك لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

والمقصود من الآيتين الكريمتين: تعجيب الناس من حال هؤلاء الكافرين الذين قامت أمامهم جميع الأدلة على صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه، ومع ذلك فهم مصرون على كفرهم وجحودهم وعنادهم.

وقد صح عنه ﷺ أنه سجد عند قراءة هذه الآية، فعن أبي هريرة أنه سجد لما قرأ هذه السورة، وقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد حتى ألقاه[1].

(١) رواه البخاري برقم ٧٦٦، وروى أبو داود برقم ١٤٠٧، وابن ماجه برقم ١٠٥٨، وأحمد في المسند برقم ٩٩٣٤، زيادة سورة العلق، وهي صحيحة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾: ﴿بَلِ﴾: إضراب انتقالي من التعجيب من عدم إيمانهم مع ظهور كل الأدلة على وجوب الإيمان، إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على كفرهم، أي: ليس هناك أي مانع يمنع الكافرين من الإيمان، بعد أن قامت جميع الشواهد على صدق الرسول ﷺ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين إنما استمروا على كفرهم وتكذيبهم للحق بسبب عنادهم وحسدهم للرسول ﷺ على ما آتاه الله تعالى من فضله.

والمقصود بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾: التهديد والوعيد، وهو كلام معترض بين سابقه ولاحقه.

ومعنى ﴿يُوعُونَ﴾: أصل الإيعاء حفظ الأمتعة في الوعاء، يقال: أوعى فلان الزاد والمتاع، إذا جعله في الوعاء، والمراد به هنا: الإضمار والإخفاء.

أي: والله تعالى أعلم من كل أحد بما يضمره هؤلاء الكافرون، وبما يخفونه في صدورهم من تكذيب للحق، ومن جحود للقرآن الكريم، ومن معاداة للمؤمنين.

والفاء في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾: تفريع على قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ومعنى التبشير: الإخبار بما يسر، والمراد به هنا التهكم بهم، بدليل توعدهم بالعذاب الأليم.

أي: فبشر - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين المكذبين للحق، بالعذاب الأليم.

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ استثناء منقطع، أي: هذا هو حال الكافرين، لكن الذين آمنوا

إيمانًا حقًّا، وقدموا في دنياهم الأعمال الصالحة، فلهم في الآخرة أجر غير مقطوع، فقوله ﴿مَمْنُونٍ﴾ من منّ: إذا قطع يقال: مننت الحبل إذا قطعته، أو لهم أجر خالص من شوائب الامتنان، وهو: أن يعطيَ الإنسانُ غيرَه عطاءً، ثم يتباهى عليه به.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصالحين، الذين لهم أجر غير ممنون.

فوائد ولطائف:

١- كل ما في الكون مطيع لأمر الله تعالى.

٢- إذا كانت الجمادات تستجيب لأمر الله تعالى فحريٌّ بالإنسان العاقل أن يستجيب لأمره سبحانه ويبادر إلى طاعته.

٣- إثبات حصول يوم القيامة.

٤- من أساليب الكلام حذف جواب الشرط لتذهب النفوس في تقديره كل مذهب.

٥- الحياة الدنيا هي دار الابتلاء والكدح والتعب.

٦- كرم الله تعالى بالتجاوز عن عباده.

٧- من طبع الإنسان أنه إذا فرح لأمر يسره سارع إلى إخبار غيره به، وصعب عليه كتمانه.

٨- ورد في آيات أن الكافر يستلم كتابه بشماله، وورد في هذه السورة أنه يستلمه وراء ظهره، والجمع بين الآيات يحتمل أن منهم من يستلم كتابه بشماله ومنهم من يستلمه وراء ظهره، ويحتمل أن كلّ واحد منهم يستلم كتابه بشماله وهي وراء ظهره.

٩- شدة العذاب على الكافر حتى إنه يتمنى الموت والهلاك للخلاص من هذا العذاب.

١٠- لا يجوز للمؤمن أن يدعو على نفسه، كما يفعل الكافر الذي يدعو على نفسه بالهلاك.

١١- ذكرت الآيات حال كل من المؤمن والكافر في الدنيا والآخرة، فالمؤمن في الدنيا في خوف وحزن وبكاء وشفقة، ومآله في الآخرة سرور ورضى، وحال الكافر في الدنيا سرور وشهوات وفرح وضحك، ومآله في الآخرة آلام وعذاب.

١٢- كثرة الآيات الدالة على عظمة الله.

١٣- على الإنسان أن يتهيأ لما سيقدم عليه من عظائم الأمور.

١٤- القسم بآيات الله تعالى فيه لفت النظر إليها للتأمل في عظمتها ودلالتها على الخالق.

١٥- في تعدد القراءات ثراء المعنى وغزارته وتنوع احتمالاته.

١٦- عجيب حال الكفار بإصرارهم على الكفر مع قيام الأدلة والشواهد على التوحيد.

١٧- قد يصل تأثر المؤمن بتلاوة القرآن أو استماعه إلى السجود، بخلاف الكافر الذي يمتنع منه مكابرة وعنادا.

١٨- بيان مآل كل من المؤمن والكافر يوم القيامة.

١٩- اقتران العمل الصالح بالإيمان في كثير من الآيات للدلالة على أهميته.

٢٠- عطاء الله تعالى لعباده دائم لا ينقطع ولا ينقص ولا يزول.

تفسير سورة البروج (٨٥)

تمهيد:

أسماؤها: البروج، وتسمى سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: اثنتان وعشرون آية.

فضلها: ورد في فضلها أن النبي ﷺ كان يقرأ بها كثيرا، فعن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة «بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق»[(١)]، وعن جابر بن سمرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ونحوهما من السور[(٢)].

مقصدها: الإخبار عن ابتلاء أصحاب الأخدود، وتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم أصاب من قبلهم مثله أو أكثر منه، وبيان عظمة الله تعالى وقدرته.

مناسبتها لما قبلها: أن السورتين متكاملتان في المحتوى، تبدآن بالقسم وتتحدثان عن يوم القيامة، وتأكيد رقابة الله لخلقه، وتصرفه المطلق في الكون.

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٨٣٣٢، وهو ضعيف.

(٢) رواه أحمد في المسند برقم ٢٠٩٨٢، وأبو داود برقم ٨٠٥، والترمذي برقم ٣٠٧، وهو صحيح.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

الواو في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾: للقسم.

والبروج: جمع برج، وهي في اللغة: القصور العالية الشامخة، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] أي: ولو كنتم في قصور عظيمة محصنة.

والمراد بها هنا: المنازل الخاصة بالكواكب السيارة.

والمقصود بـ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾﴾: يوم القيامة، لأن الله تعالى وعد الخلق به، ليُجازِيَ فيه الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى.

والشاهد: اسم فاعل بمعنى الرائي، أو المخبرُ غيرَه عما رآه وشاهده.

والمشهود: اسم مفعول، بمعنى الشيء المرئي، أو المشهود عليه بأنه حق.

وللمفسرين في المراد بهذين اللفظين أقوال كثيرة، والذي يظهرأنه أقرب الآراء إلى الصواب: أن المراد بالشاهد هنا: الحاضر في ذلك اليوم

العظيم وهو يوم القيامة، والرائي لأهواله، وأن المراد بالمشهود: ما يشاهد في ذلك اليوم من عجائب يشيب لها الولدان.

وجاء: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ بالتنكير: لتهويل أمرهما، وتفخيم شأنهما.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾: جواب القسم قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ بتقدير اللام وقد، أي: وحق السماء ذات البروج، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود، وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم.

وقيل: إن جواب القسم محذوف، دل عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أن كفار مكة لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود.

وبناء الفعل ﴿قُتِلَ﴾ للمجهول، لتوجيه الاهتمام إلى الفعل نفسه، وإيثار التعبير بالقتل بدل اللعن للإشارة إلى شناعة الفعل الذي استحق فاعلوه هذا الجزاء.

ومعنى الأخدود؛ يقال: تخدد وجه الرجل، إذا صارت فيه التجاعيد والمراد به: الحفرة العظيمة المستطيلة في الأرض، كالخندق.

و﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾: هم قوم من الكفار السابقين، حفروا حفرا مستطيلة في الأرض، ثم أضرموها بالنار، ثم ألقوا فيها المؤمنين، الذين خالفوهم في كفرهم، وأبوا إلا إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

و﴿الْوَقُودِ﴾: اسم لما توقد به النار كالحطب ونحوه، و﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾: صفة للنار.

أي: قتل وطرد من رحمة الله أصحاب الأخدود، الذين أشعلوا فيه النيران ذات اللهب الشديد، لكي يلقوا المؤمنين فيها.

ومتعلق الظرف في قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾: قُتِلَ، أي: لعنوا وطردوا من رحمة الله، حين فعلوا ذلك، وليس معنى ﴿قُعُودٌ﴾ هنا القعود المقابل للوقوف، ولكنه قعود الحال، بمعنى أنهم أقاموا على الأخدود، ليشرفوا على من يعذبونهم من المؤمنين.

ويعود الضمير ﴿هُمْ﴾: على أولئك الطغاة الذين كانوا يعذبون المؤمنين.

وجملة ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾: في موضع الحال، أي: إن هؤلاء الطغاة الظالمين، لم يكتفوا بإشعال النار، والإقامة حولها وهم يعذبون المؤمنين، بل أضافوا إلى ذلك، أنهم يشهدون تعذيبهم، ويرونه بأعينهم على سبيل التشفي منهم، ويشهد بعضهم لبعض أمام ملكهم الظالم، بأنهم ما قصروا في تعذيب المؤمنين، وهذا الفعل منهم يدل على شدة القسوة والظلم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾: النقمة؛ يقال: نقم فلان هذا الشيء إذا كرهه وأنكره، وهي هنا بمعنى الإنكار والكراهية.

أي: أن هؤلاء الكافرين ما كرهوا المؤمنين، إلا من أجل إيمانهم بخالقهم، وكأن الإيمان في نظرهم جريمة تستحق الإحراق.

ويفيد الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ...﴾: براءة المؤمنين مما يعاب وينكر، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم.

والله سبحانه الذي آمن به هؤلاء عزيز قاهر لا يغلبه أحد، محمود على نعمه وأفعاله، وسع ملكه كل ما في هذا الكون بسماواته وأرضه، ويعلم كل دقائق الخلق وخفاياه، ولو علم أهل الكفر ذلك لما تجرؤوا على إيذاء

المؤمنين به، ولكنه الجهل المطبق والضلال البعيد، وقد توعّدهم الله سبحانه بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾: ﴿فَتَنُواْ﴾: من الفَتْنِ، تقول: فتنت الذهب بالنار، أي: أدخلته في النار لتعلم جودته من رداءته، بمعنى الاختبار والامتحان، والمراد به هنا: التعذيب والتحريق بالنار.

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات: كفار قريش، كأبي جهل وأمية بن خلف، وغيرهما، فقد عذبوا بلالا، وعمار بن ياسر وأباه وأمه سمية، وغيرهم من ضعفاء المؤمنين.

ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات، ويدخل فيه أصحاب الأخدود، وكفار قريش دخولًا أوليًّا.

وجمع - سبحانه - بين عذاب جهنم لهم، وبين عذاب الحريق: لبيان أن العذاب لهم مضاعف، بسبب طغيانهم وشركهم، والنص على الحريق في مقابل حرقهم المؤمنين في الدنيا.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعده للمؤمنين والمؤمنات من ثواب وعطاء كريم فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾: المعنى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الأعمال الصَّالِحاتِ لَهُمْ عند ربهم جَنَّاتٌ تَجْرِي من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار ذلِكَ العطاء هو الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الذي لا فوز يضارعه أو يقاربه.

وقد اختلف في أهل هذه القصة من هم؟ قيل: إنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود، فقذف فيه من أنكر عليه منهم.

وقيل: هم قوم من اليمن، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فتغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخدُّوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها.

وقيل: هم المذكورون في الحديث الطويل المشهور الذي ذكر قصة الغلام والساحر والراهب[1].

والمقصود في هذه الآيات: تسلية المؤمنين عما أصابهم من أعدائهم وتثبيتهم على ما هم عليه من الإيمان، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم، وقد اقتضت سنته تعالى أن يجعل العاقبة للمتقين.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

البطش: هو الأخذ بقوة وسرعة وعنف، أي: إن عذاب ربك الواقع بالظالمين والطغاة لَبالغ نهاية القوة والعنف.

ومعنى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ أي: إنه وحده هو الذي يخلق الخلق أوّلاً في الدنيا، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم للحساب والجزاء.

ووجه حذف المفعول في الفعلين: لقصد العموم، ليشمل كل ما من شأنه أن يبدأ وأن يعاد من الخلق أو من العذاب أو من غيرهما.

ومعنى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ أي: وهو - سبحانه - الواسع المغفرة لمن تاب وآمن، وهو الكثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه.

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم ٣٠٠٥.

ومعنى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾: أي: وهو - عز وجل - صاحب العرش العظيم، الذي لا يعرف كنهه إلا هو - سبحانه -، وهو الْمَجِيدُ أي: العظيم في ذاته وصفاته، فالمجيد صفة لله تعالى على قراءة الرفع، وقرئ ﴿المَجيدِ﴾ بالجر على أنه صفة للعرش، والعرش المنسوب إلى الله عرش كريم ومجيد وعظيم، ليكون لائقا أن ينسب إلى صاحب العظمة المطلقة سبحانه.

ومعنى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ أي: وهو تعالى الذي يفعل كل شيء يريده دون أن يعترض عليه أحد، بل فعله هو النافذ، وأمره هو الساري والمطاع.

وجاءت كلمة ﴿ فَعَّالٌ ﴾ بصيغة المبالغة: للدلالة على أن ما يريده ويفعله - مع كثرته - هو في غاية النفاذ والسرعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

فهذه الصفة من الصفات الجامعة لعظمته الذاتية، وعظمة نعمه ومننه وعطاياه.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾: الاستفهام في قوله ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾: للتقرير والتهويل.

والمراد بالجنود: الجموع الكثيرة التي عتت عن أمر ربها، فأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وقوله: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود.

والمقصود بفرعون وثمود: قومهما الذين آثروا الغي على الرشد، والضلالة على الهداية، والباطل على الحق، أي: لقد بلغك - أيها الرسول الكريم - حديث فرعون الذي طغى وبغى، واتبعه قومه في طغيانه وبغيه، وحديث قوم صالح، عليه السلام، وهم الذين كذبوا نبيهم وآذوه، وعقروا

الناقة التي نهاهم عن أن يمسوها بسوء، وكيف أنه - سبحانه - قد دمر الجميع تدميرا شديدا، جزاء كفرهم وبغيهم.

وخص - سبحانه - جند فرعون وثمود بالذكر: لأنهم كانوا أشد من غيرهم بغيا وظلما، ولأنهم كانت قصصهم معروفة لأهل مكة أكثر من غيرهم.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾: هذا إضراب انتقالي، والمقصود منه: بيان أن هؤلاء المشركين المعاصرين للنبي ﷺ لم يتعظوا بمن سبقهم، ونسوا أن الله تعالى مطلع على أعمالهم عالم بكل شؤونهم وأحوالهم وأنه لا يخفى عليه منها شيء، وقادر على إهلاكهم وغيرهم، فعلمه وقدرته محيطان بخلقه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾: هذا إضراب انتقالي آخر، من بيان شدة تكذيبهم للحق، إلى بيان أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أي: ليس الأمر كما قال هؤلاء المشركون في القرآن من أنه أساطير الأولين بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى البالغ النهاية في الشرف والرفعة والعظمة، وأنه كائن في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، ومن وصول الشياطين إليه، وفي ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾ قراءتان: بالجر على أنه صفة للوح، وبالرفع على أنه صفة لقرآن.

فوائد ولطائف:

١- البروج هي المنازل التي تسير فيها الكواكب، وليس لها تأثير في صفات الناس وأعمالهم، واعتقاد ذلك لا يجوز وقد يصل إلى الشرك.

٢- كل شيء في هذا الكون شاهد من وجه، ومشهود من وجه.

٣- شمول القسم في هذه السورة لكل موجود في الدنيا والآخرة، وفي السماء والأرض.

٤- تأكيد حصول يوم القيامة من خلال القسم وتسميته موعودا، والله تعالى لا يُخلف وعده

٥- إيذاء الكفار للمؤمنين حاصل من قديم الزمان.

٦- قسوة قلوب الكافرين وحقدهم على المؤمنين وتعذيبهم بأبشع الصور وأكثرها إيلاما.

٧- ابتلاء المؤمنين بالفتن ليظهر صادق الإيمان من مدّعيه.

٨- عذاب الحريق للمؤمنين في الدنيا مدته لحظات ومترافق مع رضى الله تعالى، وعذاب الحريق في الآخرة شديد دائم فظيع، قوة ناره سبعين ضعفا عن قوة نار الدنيا، ومترافق مع غضب الله تعالى عليهم، فشتان ما بين النارين والحريقين.

٩- في ثبات أهل الإيمان على الحق أمام أعتى الفتن وأشدها، عبرة وقدوة لغيرهم أن يثبتوا على الحق مهما أوذوا وفتنوا.

١٠- الشهادة أعظم منزلة يمكن حصولها للمؤمن.

١١- إيذاء المؤمنين يؤدي إلى غضب الله تعالى وانتقامه ممن يؤذي الصالحين من عباده.

١٢- بيان عظمة الله تعالى وقدرته المطلقة في الكون، وإحاطته بخلقه علما وقدرة، وهو سبحانه مجيدن وعرشه مجيد، وكلامه مجيد.

١٣- الجمع بين الترغيب والترهيب.

١٤- إثبات وجود العرش، وهو أعظم المخلوقات، وُصف في الآيات أنه مجيد كريم عظيم.

١٥- بيان قدرة الله على إهلاك المكذبين من خلقه، مهما بلغوا من القوة وكثرة الجنود والأتباع.

١٦- تبيين منزلة القرآن العالية وأنه محفوظ عند الله تعالى في اللوح.

تفسير سورة الطارق (٨٦)

تمهيد:

أسماؤها: «الطارق»، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ووجه التسمية بهما ظاهرة.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: سبع عشرة آية عند الجمهور، وست عشرة في العدد المدني الأول.

فضلها: ورد فيه ما سبق ذكره في فضل سورة البروج، وقرأها النبي ﷺ في رحلته إلى الطائف قبل الهجرة(١).

مقصدها: إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى كمال قدرته، وبليغ حكمته، وسعة علمه، وتذكير الإنسان بأصل نشأته.

مناسبتها لما قبلها: في آخر سورة البروج إخبار عن حفظ القرآن، وفي هذه السورة إخبار عن حفظ الإنسان وعمله، وفي سورة البروج ذكر كيد الكافرين بالمؤمنين، وفي هذه السورة ذكر كيد الله تعالى بهم وإبطال كيدهم وإزهاقه.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

(١) رواه أحمد في المسند برقم ١٨٩٥٨، وهو ضعيف.

﴿ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾: النجم الذي يظهر ليلا في السماء، وقد يكون المراد به أحد هذه النجوم، أو جنس النجوم المشعة التي يظهر ضوؤها في الليل.

وجاء التعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ للتنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به، فالاستفهام مستعمل في تعظيم أمره.

وجملة: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾: جواب عن السؤال، فهو بيان وتفسير للطارق، والثاقب. أي: المضيء الذي يثقب الظلام ويخرقه بنوره فينفذ فيه، ويبدده.

وجواب القسم: قوله - سبحانه -: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾، وما بينهما كلام معترض لتفخيم شأن المقسم به.

أي: أقسم بالسماء البديعة الصنع، وبالنجم الذي يطلع فيها فيبدد ظلام الليل، ما كل نفس من الأنفس إلا وعليها من الملائكة من يحفظ عملها ويسجله، سواء أكان هذا العمل خيرا أم شرا.

والحافظ: أحد الحفظة من الملائكة الذين يحفظون على النفوس عملها وقولها وفعلها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، وحفظ الملائكة إنما هو من حفظه تعالى، لأنهم يحفظون بأمره سبحانه.

والمقصود من الآية الكريمة: تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه، وأنه سيحاسب عليها وسيجازى عليها بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾:

الفاء في قوله ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾ للتفريع على ما تقدم، وهي بمعنى الفصيحة المنبئة عن محذوف.

والمقصود بالاستفهام في قوله ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾: الحض على التفكر والتدبر.

وجواب الاستفهام: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾.

ومعنى ﴿دَافِقٍ﴾: الصب للشيء بقوة وسرعة، وهو اسم فاعل من الدفق. والمراد به هنا: الماء الذي يخرج من الرجل ويصب في رحم المرأة.

و﴿ٱلصُّلْبِ﴾: يطلق على فقار الظهر بالنسبة للرجل، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: هي العظام التي تكون في أعلى صدر المرأة.

والمعنى: ليسأل الإنسان نفسه من أي شيء خُلق؟ لقد خلقه الله تعالى بقدرته، من ماء متدفق، يخرج بقوة وسرعة من الرجل، ليصب في رحم الأنثى، وهذا الماء الدافق من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل، ومن بين ترائب المرأة، حيث يختلط الماءان، ويتكون منهما الإنسان بقدرة الله تعالى.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾: أي أن الله تعالى الذي قدر على خلق الإنسان من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب لقادر - أيضا - على إعادة خلق هذا الإنسان بعد موته، وعلى بعثه من قبره للحساب والجزاء، يوم القيامة، يوم تكشف المكنونات، وتبدو ظاهرة للعيان، وترفع الحجب عما كان يخفيه الإنسان في دنياه من عقائد ونيات وغيرهما، وفي هذا اليوم لا يكون للإنسان من قوة تحميه من الحساب والجزاء، ولا يكون له من ناصر ينصره من بأس الله تعالى أو من مدافع يدافع عنه.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾: ﴿ٱلرَّجْعِ﴾.

المطر. سمي بذلك لأنه يجيء ويرجع ويتكرر.

و﴿ٱلصَّدْعِ﴾: الشق والانفطار، يقال: تصدع الشيء، إذا تشقق، والمراد به هنا: ما تتشقق عنه الأرض من نبات.

أي: أقسم بالسماء التي ينزل المطر من جهتها مرة فأخرى، لنفع العباد والحيوان والنبات، وأقسم بالأرض التي يبزغ النبات من شقوقها، على أنَّ هذا القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، وقد بلغ النهاية في ذلك حتى لكأنه نفس الفصل، وأنه ليس فيه شائبة من شوائب الهزل أو اللعب أو المزاح، بل هو جد كله، فيجب على كل عاقل، أن يتبع هداه، وأن يستجيب لأمره ونهيه.

والمقصود في هذه الآيات الكريمة: الرد البليغ، على أولئك المشركين الجاهلين، الذين وصفوا القرآن، بأنه نزل على الرسول ﷺ ليهزل به، لأنه يخبرهم بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة.

وعاد الضمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى القرآن مع أنه لم يسبق له ذكر؛ لأنه معلوم من المقام.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾.

الكيد: العمل على إلحاق الضرر بالغير بطريقة خفية، فهو نوع من المكر.

والمراد به هنا لهؤلاء المشركين: تكذيبهم الرسول ﷺ، ومكرهم به وبما جاء به، وجيء بالفعل المضارع في ﴿يَكِيدُونَ﴾ للدلالة على تجدد كيدهم واستمراره.

والمراد به بالنسبة لله تعالى: إمهالهم واستدراجهم، حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، في الوقت الذي يختاره ويشاؤه، ومجازاتهم على هذا الكيد.

ومعنى: ﴿رُوَيْدًا﴾: من قولهم: فلان يمشي على رَود، أي: على مَهل.

أي: إن هؤلاء المشركين يحيكون المكايد لإبطال أمرك - أيها الرسول الكريم -، وإني أقابل كيدهم ومكرهم بما يناسبه من استدراج من حيث لا يعلمون، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر، فتمهل - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء المشركين، ولا تستعجل عقابهم، وانتظر تدبيري فيهم، وأمهلهم وأنظرهم إمهالا قريبا أو قليلا، فإن كل آت قريب، وقد حقق - سبحانه - لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه.

فوائد ولطائف:

١- النجوم من أعظم الدلائل على عظمة الله تعالى وقدرته، وقد أثبت العلم حديثا وجود نجم أسماه علماء الفلك الطارق لصدور صوت عنه يشبه الطرق، وإذا واجه أي نجم فإنه يخترقه ويثقبه[١]، فسبحان من هذا كلامه وهذا خلقه.

٢- يُطلق الطارق على من يأتي في الليل، وأصل الطرق الدقّ، وسُمِّيَ قاصد الليل طارقا لحاجته إلى الدقّ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال في تعوذه: «أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ في الأرض وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن»[٢].

٣- من رحمة الله بعباده أن هيأ لهم ما يحفظهم.

٤- كشفت الآية الكريمة عن مصدر ماء الرجل والمرأة قبل معرفة الناس ذلك بقرون.

---

(١) الظواهر الكونية في القرآن الكريم، د.مروان وحيد شعبان ص١٨٥ -١٩١.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ برقم ٣٥٠٠ (٥/ ١٣٨٦).

٥- من أبلغ ما يبطل في الإنسان التكبر والغرور، التفكر في أصل خلقه وفي مآله، وقديما وعظ أحد الصالحين متكبرا حين سأله: أتعرفني، فقال له: «أعرفك تماماً أوَّلُك نطفة مذِرة، وآخرك جيفة قذِرة، وأنت في ما بين ذلك تحمل العذِرَة»[1].

٦- كل الأسرار في الدنيا ستكشف يوم القيامة وتُعلن، فيظهر ما كان يخفيه الناس من نفاق أو غلّ أو سوء ظن، فليحذر العاقل اللبيب من أن يكون في سرّه ما لا يسرُّه، وأن يكون في باطنه ما لا يرضيه ظهوره في ذلك اليوم.

٧- نزول المطر إلى الأرض وخروج النبات منها من أعظم الآيات الدالة على الخالق المدبّر.

٨- دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ وعن كتابه بتبيين حقيقة القرآن.

٩- كيد أعداء الله تعالى لنبيه ولدينه لا قيمة له إذا أراد الله إبطاله ومحوه.

١٠- نسبة الكيد إلى الله تعالى في مقابل كيد الكافرين من باب المشاكلة اللفظية، ولا يجوز إطلاقه على الله تعالى استقلالاً.

١١- دل قوله تعالى ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا﴾ على أن علوّ الباطل وانتفاشه لا يدوم ولا يطول زمنه، وأن مآله إلى زوال واندثار.

١٢- المغايرة في التعبير بِـ (مَهِّل) و(أَمهِل) للتلوين والتفنن في الخطاب، ولتجنب تكرير اللفظ نفسه.

(١) نظم الدرر للبقاعي ٦/ ٣٥.

تفسير سورة الأعلى (٨٧)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾، وتسمى سورة: ﴿سَبِّحِ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: تسع عشرة آية.

فضلها: هذه السورة من السور التي كان النبي ﷺ يحب قراءتها، لاشتمالها على تنزيه الله تعالى، وعلى الكثير من نعمه ومننه، فعن علي بن أبي طالب قال: «كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة»(١).

وعن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الصبح بأطول من ذلك(٢).

وقرأ ﷺ في صلاة العيدين: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا(٣).

وكان ﷺ يقرأها في أول ركعة من الوتر، ويقرأ في الثانية ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾(١).

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٧٤٢، وهو ضعيف.

(٢) رواه مسلم برقم ٤٦٠.

(٣) رواه أحمد في المسند برقم ١٨٣٨٣، وهو صحيح.

وحث رسول الله ﷺ على قراءتها في حديث معاذ عندما بلغه أنه يطيل الصلاة وهو يصلي إماما بجماعة، فقال له: «أفتان أنت يا معاذ؟ هلّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى»(٢).

مقاصدها:

- إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى أنه تعالى منزه عن كل نقص، ومتصف بكل كمال.
- إبراز جانب عظيم من نعمه التي لا تحصى، وامتنانه على نبيه ﷺ بالشريعة السمحة، وبالقرآن الكريم.

مناسبتها لما قبلها: احتوت كلتا السورتين على ما يدعو إلى تعظيم الله تعالى، من خلال التأمل والنظر في خلقه.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣﴾.

الخطاب للنبي ﷺ فقد أمر بالمداومة على تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه، ويدخل في هذا الأمر، كل من يصلح للخطاب.

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٧٢٥، وبرقم ٢٥٩٠٦ وفيها زيادة أنه يقرأ في الثالثة مع الإخلاص المعوذتين، والحديث صحيح.

(٢) رواه البخاري برقم ٧٠٥.

والمراد بالاسم الجنس، فيشمل جميع أسمائه تعالى.

والمعنى: نزه - أيها الرسول الكريم - أسماء ربك الأعلى عن كل ما لا يليق بها، فلا تطلقها على غيره تعالى إذا كانت خاصة به، كلفظ الجلالة، وكلفظ الرحمن، ولا تذكرها في موضع لا يتناسب مع جلالها وعظمتها، ولا تحرفها عن المعاني التي وضعت لها كما يفعل الزائغون، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف]، ونزه ربك الأعلى، عن الشريك، وعن الوالد، وعن الولد، وعن الشبيه، وعن كل ما لا يليق به.

عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤ و٩٦، والحاقة:٥٢] قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»[2].

ثم ذكرت الآيات من مظاهر عظمة الله تعالى:

(أ) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ الخلق: هو الإيجاد للشيء على غير مثال سابق، والتسوية: هي جعل المخلوقات على الحالة والهيئة التي تناسبها، وتتلاءم مع طبيعتها.

أي: خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية، ولم يجعله متفاوتا غير ملتئم، ولكن على إحكام واتساق، ودلالة على أنه صادر عن عالم، وأنه صنعة حكيم.

(١) رواه أبو داود برقم ٨٦٩، وابن ماجه برقم ٨٨٧، وأحمد برقم ١٧٤١٤، وهو ضعيف.
(٢) رواه أحمد في المسند برقم: ٢٠٦٦، ورواه أبو داود برقم: ٨٨٣، وهو صحيح.

(ب) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ التقدير: وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، بمقدار معين، وبكيفية معينة تقتضيها الحكمة، ويقرها العقل السليم.

الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة على طريق الخير والبر، أي: وهو - سبحانه - الذي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة في أجناسها، وفي أنواعها، وفي أفرادها، وفي صفاتها وأفعالها، وهدى كل مخلوق إلى ما ينبغي له طبعًا واختيارًا، ووجهه إلى الوظيفة التي خلقه من أجلها، بأن أوجد فيه العقل والميول والإلهامات والغرائز والدوافع التي تعينه على أداء تلك الوظيفة، فلو تتبعنا أحوال النباتات والحيوانات، لرأينا في كل منها ما تحار فيه العقول، ولأدركنا هذه الحقيقة ماثلة في كل شيء في هذا الوجود، ويشهد بها كل شيء في رحاب هذا الكون، من الكبير إلى الصغير.

فالطيور لها غريزة العودة إلى الموطن دون أن تضل عنه مهما بعد، والنحلة تهتدي إلى خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يرى، ومثل هذا في غيرها من المخلوقات كثير.

وأما أنواع وفروع هداياته - سبحانه - للإنسان على الخصوص، ففوق ذلك بمراحل لا يعلمها إلا اللطيف الخبير.

وحذف - سبحانه - المفعول في المواضع الأربعة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ للعموم، لأن هذه الأفعال تشمل جميع مخلوقاته سبحانه.

(ج) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾: المرعى: النبات الذي ترعاه الحيوانات، وهو اسم مكان للأرض الذي يوجد فيها النبات.

والغثاء: هو اليابس الجاف من النبات الذي ترعاه المواشي.

والأحوى: أي المائل إلى السواد، مأخوذ من الحوّة - بضم الحاء مع تشديد الواو المفتوحة - وهي لون يكون بين السواد والخضرة أو الحمرة، ووَصفُ الغثاءِ بأنه أحوى، لأنه إذا طال عليه الزمن، وأصابته المياه، اسود وتعفن فصار أحوى.

أي: وهو - سبحانه - وحده، الذي أنبت النبات الذي ترعاه الدواب، حالة كون هذا النبات أخضر رطبا، ثم يحوله بقدرته تعالى بعد حين إلى نبات يابس جاف.

وهذا من أكبر الأدلة المشاهدة، على أنه تعالى يتصرف في خلقه كما يشاء، فهو القادر على تحويل الزرع الأخضر إلى زرع يابس جاف، كما أنه قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

والمقصود من هذه الآيات الكريمة: الإرشاد إلى كمال قدرته، وتنوع نعمه - سبحانه -، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الواضح الحكيم.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾: النسيان: زوال ما كان موجودا في حافظة الإنسان.

ومفعول المشيئة محذوف جريا على غالب استعماله في كلام العرب.

والاستثناء مفرَّغ[1] من أعم المفاعيل، والمراد به: بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير الرسول ﷺ ناسيا للقرآن لقدر على ذلك، كما قال - سبحانه -: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:٨٦].

(١) هو الاستثناء الذي لا يُذكر فيه المستثنى منه، ويُنظر في تفصيل أحواله وأحكامه: النحو الوافي لعباس حسن ٢/ ٣١٧.

والمعنى: سنقرئك - أيها الرسول الكريم - القرآن على لسان أمين وحينا جبريل - عليه السلام -، وسنجعلك حافظًا وواعيًا لما سيقرؤه جبريل عليك، بحيث لا تنساه في وقت من الأوقات، أو في حال من الأحوال، إلا في الوقت أو في الحال الذي يشاء الله تعالى أن ينسيك شيئا من ذلك، فإنك ستنساه بأمره تعالى لأنه وحده - عز وجل - هو العليم بما كان ظاهرا من الأشياء، وبما كان خافيا منها.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾: معنى التيسير: التسهيل والتخفيف، وهو جعل العمل يسيرا على عامله بأن يهيئ الله تعالى للعامل الأسباب التي تهون له العسير، وتقرب له البعيد.

ومعنى اليسرى: الأسهل.

والمعنى: وسنوفقك توفيقا دائما للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين: علما وعملا، واهتداء وهداية، وسنرزقك الأمور الحسنة التي تجعلك تعيش سعيدا في دنياك، وظافرا برضواننا في أخراك.

ولقد أنجز الله تعالى لنبيه ﷺ وعده، حيث أعطاه شريعة سمحة، ومنحه أخلاقا كريمة، من مظاهرها أنه ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ودعا أتباعه إلى الأخذ بمبدأ التيسير، فقال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[1].

فهاتان بشارتان عظيمتان للرسول ﷺ؛ أولاهما: تتمثل في إلهامه الذاكرة الواعية الحافظة لما يوحى اليه، وثانيتهما: توفيقه ﷺ إلى الشريعة اليسرى، وإلى الأخلاق الكريمة وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر في كل أحواله.

(١) رواه البخاري برقم ٦٩.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ : الفاء للتفريع على ما تقدم، والأمر مستعمل هنا في طلب المداومة على التذكير بدعوة الحق التي أرسله - سبحانه - بها.

و ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ : بمعنى التذكير.

والمعنى: إذا كان الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فداوم على تذكير الناس بالهدى ودين الحق، واتبع في ذلك الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، واهتم في تذكيرك بمن تتوقع منهم قبول دعوتك، وأعرض عن الجاحدين والمعاندين والجاهلين.

واشتراط النفع مع أن الرسول ﷺ كان مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع: للتنبيه على أشرف الحالين، وهو وجود النفع الذي من أجله شرعت الذكرى، وللإشعار بأن المراد من الشرط: البعث على الانتفاع بالذكرى، كما يقول الإنسان لغيره بعد أن بين له الحق، قد أوضحت لك الأمر إن كنت تعقل، فيكون مراده الحض على القبول.

والمقصود بالآية الكريمة تحريض النبي ﷺ على المداومة على دعوة الناس إلى قبول الحق الذي جاء به، فإن هذا التذكير إن لم ينفع الناس جميعا، فسينفع بعضهم، فقد اقتضت سنة الله تعالى أن لا تخلو الأرض ممن يستمع إلى الحق، ويستجيب له.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي: سينتفع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - من يخشى الله تعالى ويخاف عذابه، ويرجو ثوابه.

ومعنى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ : أي: ويبتعد عن الموعظة والنصيحة الإنسان الشديد الشقاوة والتعاسة، الذي أبى إلا الإصرار على كفره

وعناده، والمراد بالأشقى: الجنس، أي: يبتعد عن الانتفاع بالتذكير جميع الأشقياء وهم الكافرون.

﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي: الذي من صفاته أنه سيصلى وسيلقى في أشد طبقات النار سعيرا وحريقا، وهي الطبقة السفلى منها.

فوصف النار بالكبرى: من قبيل التهويل والإنذار للمصرّين على كفرهم.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: ثم إن هذا الشقي بعد أن يلقى به في النار الكبرى، لا يَمُوتُ فِيها فيستريح من العذاب وَلا يَحْيا حياة طيبة فيها شيء من الراحة، بل يبقى هكذا يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

جاء التعبير بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾: ليجمع في هذا التعبير البليغ، كل معاني الخير والنفع، لأن الفلاح معناه: وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع.

وجاء التعبير بالماضي المسبوق بقد: للدلالة على تحقق هذا الفلاح بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة في قوله تعالى: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، وعلى استحضار معرفة الله تعالى ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾، وعلى أداء التكاليف الشرعية التي على رأسها الصلاة ﴿فَصَلَّىٰ﴾، وهذه المعاني هي التي تصل بصاحبها إلى الفلاح.

والذي تفيده ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: الإضراب عن كلام مقدر يفهم من السياق.

والمعنى: لقد بينت لكم ما يؤدى إلى فلاحكم وفوزكم، ولكنكم - يا بنى آدم - كثير منكم لم يستجب لما بينته له، بل أنتم تؤثرون الحياة الدنيا، بأن تقدموا زينتها وشهواتها ومتاعها على ما ينفعكم في آخرتكم، والحال أن ما في الدار الآخرة من نعيم خير وأبقى من حطام الدنيا، لأن الدنيا ومتاعها زائلة، أما الآخرة فخيرها باق لا يزول.

والمخاطب: جميع الناس، ويدخل فيه الكافرون دخولا أوليا، وعليه يكون المراد بإيثار الحياة الدنيا بالنسبة للمؤمنين، ما لا يخلو منه غالب الناس، من اشتغالهم في كثير من الأحيان بمنافع الدنيا، وتقصيرهم فيما يتعلق بآخرتهم.

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب للكافرين على سبيل الالتفات، ويؤيد هذا القولَ قراءةُ ﴿يؤثرون﴾ بالياء، أي: بل إن الكافرين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، مع أن الآخرة خير وأبقى.

ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ أي: إن هذا الذي ذكرناه من فلاح من تزكى، ومن إيثاركم الحياة الدنيا على الآخرة، لكائن وثابت ومذكور في الصحف الأولى، التي من جملتها صحف إبراهيم وموسى، التي أنزلها - سبحانه - على هذين النبيين الكريمين، ليعلما الناس ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ومواعظ، وفي إبهام هذه الصحف، ووصفها بالقدم، ثم بيان أنها لنبيِّيْنِ كريمين من أولي العزم من الرسل، تنويه بشأنها، وإعلاء من قدرها.

فوائد ولطائف:

١- فضل التسبيح ومنزلته بين سائر أنواع الذكر، وهو تنزيه لله سبحانه، وقد افتتحت عدة سور به، منها ما افتتح بالاسم ﴿سُبْحَانَ﴾ وبالفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ وبالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ وبفعل الأمر ﴿سَبِّحِ﴾ كما في هذه السورة.

٢- التعامل مع أسماء الله تعالى يكون بما يليق بها من تقدير واحترام.

٣- من رحمة الله تعالى بخلقه هداية كل صنف منه إلى ما يصلح معاشه.

٤- من رحمة الله تعالى بخلقه - خاصة المخلوقات الضعيفة - أن هيّأ لها الزاد والقوت.

٥- من مظاهر عناية الله تعالى بنبيه ﷺ تثبيت القرآن في قلبه.

٦- أهمية التذكير وكثرة فوائده.

٧- حث الدعاة على سلوك الطريق التي تجعل الذكرى نافعة مؤثرة، واختيار التذكير لمن يرجى أن ينتفع منها ويعمل بها.

٨- ما حصل مع النبي ﷺ من نسيان آيات في مرات قليلة، كما في الرواية عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: سمع النبي ﷺ رجلًا يقرأ في المسجد، فقال: «رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهنَّ من سورة كذا وكذا»[1]، يُحمل على أحد معاني الآية الكريمة ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه، وتتذكره بعد ذلك إما بنفسك أو بغيرك، ولا يُعارض حصول هذا النسيان المؤقت التلبيغ، فإنه ﷺ كان يبلّغ الآيات فوراً بعد نزولها[2].

٩- من أعظم أوجه العذاب في النار أنه ممتد لا نهاية له حيث لا موت فيها.

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٦٥٥، ومسلم برقم ٧٨٨.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١٠/ ٢٢٤، وفتح الباري لابن حجر ٩/ ٨٦.

١٠- أهمية مصاحبة العمل للإيمان.

١١- ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أدى زكاة الفطر ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بتكبيرات العيد ﴿فَصَلَّىٰ﴾ صلاة العيد، يدخل في عموم معنى الآيتين، وليس المعنى المقدَّم لهما، مع ملاحظة أن السورة مكية نزلت قبل تشريع صلاة العيد.

١٢- ذم الانشغال بالدنيا عن الآخرة.

١٣- قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف - أو: طين - يبقى، لكان الواجب أن يؤثَرَ خرف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى[1].

١٤- تعهّد الله تعالى عباده بالإرشاد والتوجيه في القرآن الكريم وفي الصحف المنزلة من قبله.

١٥- تأكيد أن القرآن يوافق ما في الصحف والكتب المنزلة قبله، فكلها من مصدر واحد.

١٦- ورد ذكر صحف إبراهيم وموسى هنا وفي سورة النجم، وورد في حديثٍ بيان بعض ما فيها[2]، ورجّح بعض المفسرين أن صحف إبراهيم هي الكلمات التي ابتلي بها، وأن صحف موسى نزلت قبل نزول التوراة، أو أنها هي.

١٧- وجه تخصيص النبيَّيْنِ الكريمين إبراهيم وموسى بالذكر، أن إبراهيم - عليه السلام - معروف لدى العرب، وأن موسى - عليه السلام - معروف لدى اليهود، وأنهما أفضل الرسل بعد نبينا ﷺ، وكلٌّ منهما يمثل بداية مرحلة وإنشاء أمّة.

---

(١) البحر المديد لابن عجيبة ٨/ ٤٤٣، وفتح القدير للشوكاني ٥/ ٥١٧.

(٢) رواه ابن حبان ٢/ ٧٦، وأورده السيوطي في الدرالمنثور ٨/ ٤٨٩، وهو ضعيف جدًّا.

تفسير سورة الغاشية (٨٨)

تمهيد:

أسماؤها: الغاشية، وتسمى سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: ست وعشرون آية.

فضلها: هي من السور التي كان النبي ﷺ يقرؤها كثيرا، وسبق ذكر الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ في صلاة الجمعة والعيدين.

مقاصدها: بيان أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، ولفت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله في خلقه، لكي يتفكروا ويتدبروا أن الخالق لهذه الأشياء بتلك الصورة البديعة، هو المستحق للعبادة والطاعة، وأنهم سيعودون إليه للحساب.

مناسبتها لما قبلها: في آخر سورة الأعلى بيان فضل الآخرة على الدنيا، وفي هذه السورة تفصيلٌ وتبيينٌ لما في الآخرة من عذاب ونعيم.

التفسير:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن

جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

يفيد الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ التحقيق والتقرير، وقد يفيد الترغيب والتشويق إلى الاستماع إليه.

ومعنى ﴿الْغَاشِيَةِ﴾: يقال: غشيه الأمر، إذا غطاه، والمقصود بالغاشية يوم القيامة، ووصف يوم القيامة بذلك، لأنه يغشى الناس بأهواله وشدائده، ويغطي عقولهم عن التفكير في أي شيء سواه.

والمعنى: هل بلغك - أيها المخاطب - حديث يوم القيامة، الذي يغشى الناس بأحواله المفزعة، ويعمهم بشدائده، إن كان لم يأتك فهذا خبره.

وفي هذا الافتتاح للسورة دلالة على أهمية هذا الخبر، وأنه من الأخبار التي ينبغي الاستعداد لما اشتملت عليه من معان لا يصح التغافل عنها.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾: إعراب ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ وإن كانت نكرة، لوقوعها في مقام التفصيل.

والمراد بالوجوه: أصحابها، من باب التعبير عن الكل بالبعض، وخصت الوجوه بالذكر، لأنها أشرف أعضاء الإنسان، ولأنها هي التي تظهر عليها الآثار المختلفة من حزن أو فرح.

ووصفت هذه الوجوه بصفات هي:

(أ) ﴿خَاشِعَةٌ﴾: بمعنى ذليلة خاضعة.

(ب) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: مكلفة بالعمل الشاق المرهق في يوم القيامة، وتتعب تعبا ما عليه من مزيد، كجر السلاسل، وحمل الأغلال، والخوض في النار.

فعامِلَةٌ هنا بمعنى: العمل الشاق المهين.

وناصبة بمعنى: التعب والإعياء يقال: نصِب فلان - بكسر الصاد - ينصَب نصباً، إذا تعب في عمله تعبا شديدا.

وفي هذه الصفات زيادة توبيخ لأهل النار، لأنهم لما تركوا في الدنيا العمل الصالح، وآثروا متع الدنيا على ثواب الآخرة، كان جزاؤهم يوم القيامة، الإذلال، والعمل الشاق المهين الذي لا تعقبه راحة.

(ج) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ أي: أن هذه الوجوه تشوى بالنار الحامية يوم القيامة، يقال: صلى فلان النار فهو يصلاها، إذا لفحته بحرّها لفحا شديدا.

ثم بين سبحانه شرابهم وطعامهم، فقال:

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ أي: هذه الوجوه يسقى أصحابها من عين قد بلغت النهاية في الحرارة والغليان.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾: معنى الضريع: اليابس من نبات الشِّبْرِقِ، وهو جنس من الشوك، ترعاه الإبل ما دام رطبا، فإذا يبس تجنبته الإبل لتحوله إلى سم قاتل لما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة، والمراد به في الآية: شجر في النار، كما تدلّ تسميته بالضريع على أن أهل النار يضّرّعون عند أكله طلبا للخلاص منه.

ووصف - سبحانه - طعامهم بأنه ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾: لزيادة تقبيح هذا الطعام، وأنه شر محض، لا مكان لأية فائدة معه.

ومعنى ﴿يُسْمِنُ﴾: من السّمن - بكسر السين وفتح الميم - وهو وفرة اللحم والشحم في الحيوان وغيره، يقال: فلان أسمنه الطعام، إذا عاد عليه بالسمن.

ومعنى ﴿يُغْنِي﴾: من الإغناء ودفع الحاجة، يقال: أغناني هذا الشيء عن غيره، إذا كفاه واستغنى به عن سواه.

المعنى: أن أصحاب هذه الوجوه التعيسة بجانب شرابهم من الماء البالغ النهاية في الحرارة، لهم - أيضًا - طعام من أقبح الطعام وأردئه وأشنعه وأشده مرارة، هذا الطعام لا يأتي بسِمَنٍ، ولا يسد جوعهم، بل إن آكله ليزدرده رغما عنه.

وقال هنا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ وفي الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ لأن العذاب ألوان، والمعذبون طبقات، فمنهم: أكلة الزقوم - المذكور في سورة الصافات والدخان -، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾: قدمت هذه الآيات حكاية أهل النار، لأنه أدخلُ في تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها، وأخرت بيان حسن حال أهل الجنة، لما يترتب على ذلك من زيادة المحكي حسنا وبهجة.

وإنما لم تعطف هذه الجملة على تلك الجملة: إيذانا بكمال التباين بين مضمونيهما.

ومعنى ﴿نَّاعِمَةٌ﴾: أي متنعمة في الجنة بما أعطاها - سبحانه - من خير عميم، جزاء عملها الصالح في الدنيا.

وتفسير ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا راضية، لأنها قد وجدت من الثواب عليه في الآخرة، أكثر مما كانت تتوقع وترجو.

فالمراد بالسعي: العمل الذي كان يعمله الإنسان في الدنيا، ويسعى به من أجل الحصول على رضا خالقه.

وقدم السعي: للاعتناء بشأن هذا السعي.

ووصف الجنة التي أعدها - سبحانه - لعباده المتقين بأنها:

(أ) ﴿عَالِيَةٍ﴾: وصفت بالعلو، للمبالغة في حسنها وفي علو منزلتها، فقد جرت العادة أن تكون أحسن الجنات ما كانت مرتفعة على غيرها، وفي ذلك بيان سموّ مكانة المؤمنين.

(ب) ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ أي: لا تسمع في هذه الجنة كلمة ذات لغو، واللغو: هو الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه، فلا يسمع في الجنة إلا الكلام الذي تسر له النفس، وتقرّ به العين.

(ج) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: في هذه الجنة عيون تجري بالماء العذب الزلال المتدفق.

فالمراد بالعين هنا: جنس العيون، وبالجارية: التي لا ينقطع ماؤها.

(د) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: في الجنة أماكن يجلس عليها أهلها جلوسا مرتفعا عن الأرض، وينامون فوقها نوما هادئا هانئا، والسرر: جمع سرير، وهو المكان ذو القوائم المرتفعة الذي يتخذ للجلوس والاضطجاع.

ووصف - سبحانه - هذه السرر بالارتفاع: لزيادة تصوير حسنها، وقيل: ليرى من عليها ملكه في الجنة.

(هـ) ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ الأكواب جمع كوب، وهو عبارة عن الإناء الذي تشرب فيه الخمر، أي: وفي الجنة أكواب كثيرة قد وضعت بين أيدي أهلها، بحيث يشربون من الخمر التي وضعت فيها، دون أن يجدوا أي عناء في الحصول عليها.

(و) ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ النمارق: جمع نُمرُقة - بضم النون وسكون الميم وضم الراء -، وهي الوسادة الصغيرة التي يتكئ عليها الجالس

والمضطجع، أي: وفي الجنة وسائد كثيرة، قد صف بعضها إلى جانب بعض صفا جميلا، بحيث يجدها الجالس قريبة منه في كل وقت.

(ع) ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ الزرابي جمع زِرْبِيَّة،وهي البساط الواسع الفاخر، أو ما يشبهه من الأشياء الثمينة التي تتخذ للجلوس عليها، والمبثوثة: المنتشرة على الأرض، من البث بمعنى النشر.

أي: وفيها بسُط فاخرة جميلة مبسوطة في كل مكان، ومتفرقةٌ في كل مجلس.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعا من أهلها.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

الاستفهام: للتقريع والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، والمراد بالنظر: التدبر في تلك المخلوقات، فإن من شأن هذا التدبر، أنه يؤدي إلى الاعتبار والانتفاع، والخطاب لأولئك الكافرين الجاهلين، الذين تظهر أمامهم الشواهد الواضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته، ومع ذلك لم ينتبهوا لها.

ومظاهر قدرة الله تعالى في الآيات الكريمة السابقة: خلق الإبل، ورفع السماء، ونصب الجبال، وبسط الأرض.

والمعنى: أَفَلا يَنْظُرُ الكافرون المنكرون للبعث إِلَى الْإِبِلِ نظر اعتبار كَيْفَ خُلِقَتْ خلقا عجيبا، دالا على تقدير مقدر، شاهدا بتدبير مدبر، حيث

إنها تحمل الأثقال، وتنقلها إلى البلاد البعيدة، وتبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وهي منقادة لكل من اقتادها بأزمتها، لا تعارض ضعيفًا، ولا تمانع صغيرًا.

وخص - سبحانه - الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات: لأنها أعز الأموال عند العرب، وأقربها إلى مألوفهم وحاجتهم، وأبدعها خلقا وهيئة وتكوينا.

وألم ينظروا إِلَى السَّماءِ نظر اعتبار واتعاظ كَيْفَ رُفِعَتْ بغير عمد، ، وأُحكم بناؤها فلا خلل فيها ولا فطور، وزُيّنت بالنجوم الكثيرة المتنوعة في إضاءتها وحجمها وبُعدها.

وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، أي: كيف وجدت بهذا الوضع الباهر بأن نصبت على وجه الأرض نصبا ثابتا راسخا، يحمي الأرض من الاضطراب والتزلزل.

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، أي: كيف سويت وفرشت وبسطت بطريقة تجعل الناس يتمكنون من الانتفاع بخيرها، ومن الاستقرار عليها، وهذا لا ينافي كونها كروية، لأن الكرة إذا اشتد عظمها كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع بها.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ : الفاء للتفريع وترتيب ما بعدها على ما قبلها.

والأمر بالتذكير مستعمل في طلب الاستمرار والدوام في دعوة الناس إلى الحق.

ومفعول: ﴿فَذَكِّرْ﴾: محذوف للعلم به.

وجملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للأمر بالمواظبة على تبليغ الناس ما أمره بتبليغه.

ومعنى المصيطر: هو المتسلط، المتجبر، الذي يجبر الناس على الانقياد لما يأمرهم به، ويُقرأ بالصاد، وبالسين، وبالإشمام أي بخلط الصاد صوت الزاي.

والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾: استثناء منقطع، أي لكن من أعرض عن دعوتك وكفر بما أرسلت به يعذبه الله في جهنم التي وصف عذابها بالأكبر، تهويلا وتفخيما لشأنه وترهيبا منه.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾: معنى الإياب: الرجوع إلى المكان الذي كان فيه قبل ذلك، مأخوذ من الأوب. والمراد به هنا: الرجوع إلى الله تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء.

وصدر - سبحانه - الآيتين بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ وعطف الثانية على الأولى بحرف ﴿ثُمَّ﴾ المفيد للتراخي في الرتبة، وقدم خبر ﴿إِنَّ﴾ في الجملتين على اسمها: لإفادة التهديد والوعيد، وتأكيد أن رجوعهم إليه تعالى أمر لا شك فيه، وأن حسابهم يوم القيامة سيكون حسابا عسيرا، لأنه صادر عمن لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والمعنى: داوم - أيها الرسول الكريم - على دعوة الناس إلى الدين الحق، فهذه وظيفتك التي لا وظيفة لك سواها، فأنت لست بمكرِه إياهم على اتباعك، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب.

لكن من تولوا وأعرضوا عن تذكيرك وإرشادك، وأصروا على كفرهم، فنحن الذين سنتولى تعذيبهم تعذيبا شديدا، فإن إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا، ثم إن علينا وحدنا - أيضا - حسابهم على أعمالهم، ومجازاتهم عليها بالجزاء الذي نراه مناسبا لهم.

فوائد ولطائف:

١- تعددت أسماء يوم القيامة، ولكل منها دلالته على حدث وصفة له، ويدل اسم ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ على ما في ذلك اليوم من شمول للخلق جميعاً، فلا يفلت منه أحد.

٢- عذاب الكافرين في النار متنوع كما أن نعيم المؤمنين في الجنة متنوع.

٣- على المرء العاقل اجتناب كل ما لا ينفعه من قول أو عمل، وكل ما لا ينفعه مما لا يسمن ولا يغني من جوع من طعام أو شراب.

٤- ما يحصل في الوجه من علامات الحسن أو النعومة أو الحزن يدل على حال الجسم كله، فهو كالعنوان له.

٥- كل ما في الجنة من نعيم لا ضرر فيه ولا أذى ولا إيذاء.

٦- من صور نعيم أهل الجنة: ارتفاع السرر وكثرة الوسائد والبسُط لزيادة التنعم والترفه.

٧- لفت نظر العباد إلى ما يدل على عظيم الصنع وإتقان الخلق.

٨- وصفت الإبل بأنها سفينة الصحراء، وفيها من عجائب الخلق، الصبر على الماء أياما، والأكل من كل نبات في البراري، وخفها مهيأ للمشي على رمال الصحراء الناعمة، وشفتاها مهيأتان لأكل الشوك ونبات الصحراء، وتجتر طعامها، وتطرب لسماع الحداء، وقد جمعت خصال الحيوان الأربعة فهي: حَلوبة رَكوبة أَكولة حَمولة.

٩- التذكير مهمة نبيلة وعمل شريف وله أثر كبير في أصحاب القلوب الحية والنفوس الطائعة، وربُّ تذكير لمقصر ينجيه من السقوط والتردي، ويكون فيه الأجر العظيم لمن ذكَّر.

١٠- في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ قصر موصوف على صفة، أي أن مهمة النبي الكريم ﷺ محصورة في التذكير، وهو يشمل بمعناه الواسع الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والتربية والتوجيه.

١١- يدل قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ على عدم جواز الإكراه على أيّ فعل، والمرءُ يؤمن يقناعته لا بالإكراه، ويؤدي العبادات برغبته لا بالإكراه، ومن أُكره على قول أو فعل يبحث عن أقرب مخرج للخلاص منه، فالإكراه مشكلة ويؤدي إلى إشكالات عديدة، وليس حلا لها.

١٢- أعلمنا الله تعالى أن رجوع الخلق جميعا إليه يوم القيامة، وأنه سيحاسبهم على أعمالهم دقيقها وجليلها، ظاهرها وباطنها، سرها وعلنها، حسنها وسيئها، فالعاقل اللبيب من أخذ لذلك اليوم أهبته وأعدّ له عدّتَه.

تفسير سورة الفجر (٨٩)

تمهيد:

أسماؤها: سورة الفجر، وتسمى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ بالواو قبلها.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: ثلاثون آية في العدد الكوفي والشامي، واثنتان وثلاثون في الحجازي، وتسع وعشرون في البصري.

مقاصدها:

- تذكير المشركين بما حل بالمكذبين من قبلهم، كقوم عاد وثمود وفرعون.
- بيان أحوال الإنسان في حال غناه وفي حال فقره، وردعه عن الانقياد لهوى نفسه.
- لفت الأنظار إلى أهوال يوم القيامة، وأنه في هذا اليوم لن ينفع الندم على ما فات، وتبشير أصحاب النفوس المؤمنة المطمئنة، برضا ربها عنها، وبظفرها بجنة عرضها السماوات والأرض.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة الغاشية بالإخبار عن معاد الخلق إلى الله، وافتتحت هذه السورة بالقسم على ذلك، وختمت السورتان ببيان مصير الخلائق.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

أقسم الله تعالى بخمسة أشياء لها دلالتها الواضحة على كمال قدرته تعالى كما أنها تتصف بالشرف والعظمة.

(أولًا) أقسم بالفجر، وهو وقت بزوغ الضياء وانتشاره على الكون بعد ليل بهيم، فالمراد بالفجر: الوقت الذي يبدأ فيه النهار في الظهور، بعد ظلام الليل، والتعريف فيه للجنس، لأن المقصود هذا الوقت من كل يوم، وقيل المراد صلاة الفجر، لأنها صلاة مشهودة، أي: تشهدها الملائكة، ويكون في الكلام حذف المضاف.

وقيل: التعريف في الفجر للعهد، والمراد: فجر يوم النحر، وقيل: فجر يوم الجمعة.

(ثانيًا) أقسم بلَيالٍ عَشْرٍ، والمراد بها: الليالي العشر الأُوَل من شهر ذي الحجة، لأنها وقت مناسك الحج، ففيها الإحرام، والطواف، والوقوف بعرفة، وفي الحديث قوله ﷺ «ما من أيام العمل الصالح، أحب إلى الله تعالى فيهن، من هذه الأيام - يعنى: عشر ذي الحجة - قالوا: ولا الجهاد في

سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[١]، وقيل: هي ليالي العشر الأواخر من رمضان.

(ثالثًا) (ورابعًا) أقسم تعالى بالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، والشفع: ما يكون ثانيا لغيره، والوتر: هو الشيء المنفرد، وفيه قراءتان بفتح الواو وكسرها، وهما بمعنى واحد.

وفي تحديد المراد بهذين اللفظين أقوال متعددة، أرجحها أن المراد بالشفع: جميع المخلوقات، وبالوتر: الله تعالى الواحد الصمد، ويُستدل له بالحديث: «إن الله وتر يحب الوتر»[٢]، وما سواه شفع، ولأنه ثبت علميا أنه لا يوجد مخلوق بمعنى الوتر قط. والله أعلم.

(خامسًا) وأقسم تعالى باللَّيْلِ إِذا يَسْرِ أي: وحق الليل عندما يسري ويمضي، تاركا من خلفه ظلامه، ليحل محله النهار بضيائه.

وفي هذا القسم مجاز حيث أسند السّرى إلى الليل، كما في قولهم: ليل نائم، أي: ينام فيه الناس.

وفي ﴿يَسْرِ﴾ ثلاث قراءات، الأولى بحذف الياء وصلا ووقفا، اكتفاء عنها بالكسرة تخفيفا، والثانية بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً، والثالثة بإثبات الياء وصلا ووقفا.

والمراد بالليل هنا: عمومه، وقيل: المراد به هنا: ليلة القدر، أو ليلة المزدلفة.

والمقصود من القسم بهذه الأشياء: تحقيق المقسم عليه بأسلوب فيه ما فيه من التأكيد والتشويق وتحقيق المقسم عليه.

---

(١) رواه أبو داود برقم ٢٤٤٠، والترمذي برقم ٧٥٧، وأحمد برقم ١٩٦٨، وهو صحيح.
(٢) رواه أحمد الترمذي برقم ٤٥٣، ورواه أحمد في المسند برقم ١٢٢٥، وهو صحيح.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ الاستفهام في هذه الآية: للتقرير والتعظيم لما أقسم به - سبحانه - من مخلوقات، واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾: يعود إلى تلك الأشياء التي أقسم الله تعالى بها.

والمراد بالحجر: العقل، وسمي بذلك لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عن ارتكاب ما لا ينبغي، كما سمي عقلًا، لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب السيئات، كما يعقل العقال البعير عن الضلال.

والمعنى: أي ما أقسمنا به من الفجر و... حقيق أن تؤكد به الأخبار عند كل ذي عقل سليم؟

وليس من شك أن كل ذي عقل سليم، يعلم تمام العلم، أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق أن يقسم به، لكونها أمورا جليلة، خليقة بالإقسام بها لفخامة شأنها، كما أن كل ذي عقل سليم يعلم - أيضا - أن المقسِم بهذا القسم، وهو الله - عز وجل - صادق فيما أقسم عليه.

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾.

والتقدير: اقسم بهذه المخلوقات لتعذبن - أيها الكافرون - كما عذب الذين من قبلكم، مثل عاد وثمود وفرعون.

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾: الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للتقرير.

والرؤية: علمية، تشبيها للعلم اليقيني بالرؤية في الوضوح والانكشاف، لأن أخبار هذه الأمم كانت معلومة للمخاطبين، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية، لكل من شاهد آثار هؤلاء الأقوام البائدين.

والمراد بعاد: القبيلة المشهورة بهذا الاسم، التي كانت تسكن الأحقاف، وهو مكان في جنوب الجزيرة العربية، يقع حاليا في اليمن، وسموا بذلك نسبة إلى أبيهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد، لأنه جده الأدنى، وقد أرسل الله تعالى إليهم هودا - عليه السلام -، وكانوا معروفين بقوتهم وضخامة أجسامهم، وقد جاء الحديث عنهم كثيرا في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت:١٥].

وفي هذه الآيات وصفت هذه القبيلة بأنها:

أ- ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ فقد كانت تسكن بيوتا ذات أعمدة، ترفع عليها خيامهم ومبانيهم الفارهة.

ب- ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾ وذلك لقوتهم وشدتهم، وعظم أجسامهم، وما أعطاهم الله تعالى من غنى وقوة.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾: المراد بثمود: القبيلة المسماة بهذا الاسم، نسبة إلى جدها ثمود، وقد أرسل الله تعالى إليهم نبيهم صالحا - عليه السلام - فكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، وكانت مساكنهم بين الشام والحجاز، وما تزال معروفة حتى الآن باسم مدائن صالح.

﴿جَابُوا۟﴾ بمعنى قطعوا؛ من الجوْب بمعنى القطع والخرق، والصخر الحجارة العظيمة، وكان هؤلاء القوم يقطعون الصخور من الجبال، ليتخذوا منها بيوتهم في الوادي الذي كانوا يسكنونه.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾: المراد بالأوتاد: الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه ويقوونه، ووصف فرعون بذلك لكثرة جنده.

وقيل: وصف فرعون بذي الأوتاد، لأن مملكته كانت تحتوي على الأهرامات، التي بناها أسلافه، لأن صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق.

والمعنى: لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وعلم معك كل من هو أهل للخطاب، ما فعله ربك بقبيلة عاد، التي جدها إرم بن سام بن نوح، والتي كانت صاحبة أعمدة عظيمة ترفع عليها بيوتها، والتي لم يخلق في بلادها مثلها في القوة والغنى، وعلمتَ - أيضا - ما فعله ربك بقوم ثمود، الذين قطعوا صخر الجبال، واتخذوا منها بيوتا يسكنونها، وعلمت - كذلك - ما فعله بفرعون صاحب المباني القوية الفخمة وصاحب الجنود والعساكر الذين يشيدون ملكه، والَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فأفسدوها، وتجاوزوا كل حد في العصيان والظلم، فَأَكْثَرُوا في البلاد الْفَسادَ عن طريق بكفرهم وفسقهم.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ أي: فكانت نتيجة طغيانهم وفسادهم، أن أنزل ربك عليهم، نوعا عظيما من العذاب المهين.

والسوط: آلة تتخذ من الجلود القوية، يُضرَب بها الجاني، وإضافتها إلى العذاب، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: فصب عليهم ربك عذابا سوطا أي: كالسوط في سرعته، وشدته، فهو تشبيه بليغ.

وعبر - سبحانه - عن إنزال العذاب بهم بالصب: للإيذان بكثرته وتتابعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾: تعليل لإصابتهم بسوط عذاب.

والمرصاد: اسم للمكان الذي يجلس فيه الجالس لترقب شيء ما أو رؤيته.

والمراد: أن الله تعالى يرصد عمل كل إنسان، ويحصيه عليه، ويجازيه به، دون أن يخفى عليه - سبحانه - شيء في الأرض أو السماء.

وفي هذه الآيات الكريمة تخويف شديد للكافرين، وتهديد لهم على إصرارهم في جحودهم، وأنهم إذا ما ساروا في طريق الجحود والعناد، فسيصيبهم ما أصاب هؤلاء الطغاة.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ للتفريع على ما تقدم، ولترتيب ما بعدها على ما قبلها.

والمراد بالإنسان هنا: جنسه، وقيل المراد به الكافر.

يقول هذا الإنسان عند ابتلائه بالغنى بالمال والجاه وأسباب القوة: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي: ربي أعطاني ذلك، لأني مستحق لهذه النعم ويتباهى ويتفاخر.

ويقول عند ابتلائه بسلب بعض النعم عنه وبضيق الرزق، على سبيل التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضائه سبحانه: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: ربي أذلني بالفقر، وأنزل بي الهوان والشرور.

وقول هذا الإنسان في الحالين قول مذموم، يدل على سوء فكره، وقصور نظره، فهو لا يخطر بباله أن نعم الله، إنما هي فضل تفضل به - سبحانه - عليه ليختبره، أيشكر أم يكفر، وأن تضييقه عليه في الرزق، ليس من الإهانة في شيء، بل هو للابتلاء والامتحان، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء].

وهذه في الواقع صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة.

واقتصر - سبحانه - في الآية الكريمة على تقتير الرزق، في مقابلة النعمة، دون غير ذلك من الأمراض والآفات؛ للإشعار بأن هذا الإنسان يعتبر دنياه جنته ومنتهى آماله، فهو لا يفكر إلا في المال ولا يحزن إلا من أجله، وأن المقياس عنده لمقادير الناس هو على حسب ما عندهم من أموال.

ولما كان هذا القول مذموما من هذا الإنسان في الحالين، لعدم شكره لله تعالى في حالة الرخاء، ولعدم صبره على قضائه في حالة البأساء جاء حرف الردع بعد ذلك:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾: ﴿كَلَّا﴾: زجر وردع عن قول هذا الإنسان ﴿رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ عند حصول النعمة، وعن قوله ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ عند حصول التقتير في الرزق.

و﴿بَل﴾ هنا: للإضراب الانتقالي، من ذمهم على القبيح من القول، إلى ذمهم بما هو أشنع منه، وهو ارتكابهم للقبيح من الأفعال.

أي: كلا ليس قولكم هذا وهو أن الإكرام في الإعطاء والإهانة في المنع هو القبيح فحسب، بل هناك ما هو أقبح منه؛ وهو أنكم لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ أي: لا تعطفون على اليتيم وهو الذي مات أبوه وهو صغير، بأن تتركوه معرَّضاً للفقر والاحتياج، دون أن تعملوا على تقديم يد المساعدة إليه.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولا يحث بعضكم بعضا على إطعام المساكين والبائسين.

ونفيُ الحضِّ على إطعام المساكين: نفي لإطعامهم من باب أولى، فهم لا يُطعمون، ولا يحضون غيرهم عليه، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الرحمة والعطف.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ بيان لرذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة، ومعنى التراث: هو المال الموروث عن غيره.

والمراد بالأكل: مطلق الانتفاع، وخص الأكل بالذكر: لأنه يشمل معظم وجوه التصرفات المالية.

ومعنى اللّمّ: مأخوذ من قولهم: لمّ الطعام، إذا أكله كله دون أن يترك منه شيئا، والمراد: الجمع بدون تفرقة بين الحلال والحرام، أي: ومن صفاتكم القبيحة أنكم تأكلون المال الموروث عن غيركم أكلا شديدا، بحيث لا تتركون منه شيئا، ولا تفرقون بين ما هو حلال أو حرام، ولا بين ما يحمد وما لا يحمد، بل تأخذون حقوقكم وحقوق غيركم من النساء والصبيان.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾: ومن صفاتكم - أيضًا - أنكم تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا أي: حبا كثيرا مع حرص وشره، يقال: جمّ الماء في الحوض، إذا كثر واجتمع، ومنه الجموم للبئر الكثيرة الماء.

والحب المفرط للمال من الصفات الذميمة، لأنه يؤدى إلى جمعه من كل طريق، بدون تفرقة بين ما يحل منه وما يحرم.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

يحتمل أن تكون ﴿كَلَّآ﴾ هنا حرف ردع وزجر لما ذكر في الآيات السابقة مما يصدر عن الإنسان من أفعال مذمومة، أي لا يليق حصول ذلك منكم، ويحتمل أن تكون ﴿كَلَّآ﴾ هنا لاستفتاح الكلام.

ثم أخبر عن بعض أحداث يوم القيامة.

معنى ﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾: من الدك: بمعنى الكسر والدق والزلزلة الشديدة، والتحطيم الجسيم.

وإعراب لفظ ﴿دَكًّا﴾ الأول مصدر مؤكد للفعل، والثاني توكيد للأول.

والمعنى: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، فهو رد لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، فإن من فعل ذلك يندم يوم تدك الأرض، ولا ينفعه الندم.

ومعنى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال السلف هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات: يجب الايمان بها كما جاءت، من غير تحريف ولا تعطيل ولاتكييف ولا تمثيل.

والخلف يؤولون ذلك بأن المجيء هنا بمعنى مجيء أمره وقضائه.

واللام في ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: للجنس فيشمل جميع الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصطفين، أو ذوي صفوف.

ومعنى قوله: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: وأحضرت جهنم وظهرت وبرزت للكافرين والفاسقين يوم القيامة، يوم تدك الأرض دكا.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[1].

(١) رواه مسلم برقم ٢٨٤٢.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في هذا اليوم العسير، وهو يوم القيامة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ما فرط منه من ذنوب، وما ارتكبه من سيئات، وما وقع فيه من كفر وفسوق عن أمر ربه.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومن أين له الانتفاع بهذا التذكر، لأنه تذكُّرٌ جاء في غير وقت الانتفاع به.

﴿يَقُولُ﴾ هذا الإنسان الشقي - على سبيل التحسر والتفجع - وقد رأى العذاب ماثلًا أمامه: يا ليتني قدمت أعمالًا صالحة لأجل حياتي هذه في الآخرة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾: الوثاق: الرباط الذي يقيد به الأسير.

أي: في هذا اليوم لا يعذّب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، فالضمير في قوله: ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ يعود إلى الله تعالى ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ فاعل، وهذا المعنى على القراءة بكسر ذال ﴿يُعَذِّبُ﴾ وكسر ثاء ﴿يُوثِقُ﴾.

وقرأ الكسائي: ﴿لا يعذَّب﴾ و﴿لا يوثَق﴾ - بفتح الذال المشددة، وفتح الثاء - على البناء للمفعول، والضمير في قوله ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ يعود للكافر. أي: فيومئذ لا يعذَّبُ أحدٌ مثلَ عذاب ذلك الإنسان الكافر المتحسّر، ولا يوثَقُ أحدٌ مثلَ وثاقه، ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ نائب فاعل.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه البشارة العظيمة للمؤمنين فقال:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾: و﴿ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: هي النفس الآمنة من الخوف أو الحزن في يوم القيامة، بسبب إيمانها الصادق، وعملها الصالح، والكلام على إرادة القول، أي: يقول الله

تعالى على لسان ملائكته، إكراما للمؤمنين، عند وفاتهم، أو عند تمام حسابهم: يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة، الناعمة بروح اليقين، الواثقة بفضل الله تعالى ورحمته: ارجعي إلى ربك الذي خلقك، وأنت راضية تمام الرضا بما أعطاك - سبحانه - من ثواب، ومرضي عنك منه تعالى بسبب إيمانك الصادق، وعملك الصالح.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ أي: فادخلي في زمرة عبادي الصالحين المرضيين، ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ التي وعدتهم بها، والتي أعددتها لنعيمهم الدائم المقيم.

وقد ذُكر أن هذه الآيات الكريمة نزلت في شأن عثمان بن عفان لما تصدق ببئر رومة، وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب حين استشهد[1]، ويعارضهما أن السورة مكية، والصحيح أنها عامة في نفس كل مؤمن مخلص طائع.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعا من أصحاب النفوس المطمئنة.

فوائد ولطائف:

١- قسم الله تعالى بمخلوقاته للفت النظر إلى عظمتها وأهميتها.

٢- تتفاوت الأوقات في شرفها وأهميتها، فوقت الفجر له خصوصية تميزه على سائر أوقات اليوم، وهو آية تدل على قدرة الله تعالى، حيث يزول ظلام آخر الليل مع بدء نور النهار، وهو وقت مبارك.

٣- مجموع ما أقسم به في هذه السورة شامل، للخالق والمخلوق، ولجميع الأوقات والأشياء.

٤- تخصيص أصحاب العقل والحجر بالذكر، دلالة على شرفهم ورفعة مقامهم وعظيم منزلتهم عند الله، وأن عقلهم ينبغي أن يقودهم إلى ما فيه الخير لهم في الدارين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٥٨.

٥- معرفة الإنسان البناء على الأعمدة قديمة.

٦- حاول فرعون تثبيت ملكه بالأوتاد وكثرة الجنود ونشر الفساد بين الرعية، وبدلا من أن ينفعه ذلك كان سبب هلاكه.

٧- مهما طغا الإنسان وبغى فإنه لن يفرّ من عقاب الله له.

٨- علم الله تعالى بكل من يعاند ويكابر ويكفر ويتعدّى حدوده، والعقاب مهيّأ لهم بما يستحقون جزاء عملهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

٩- البلاء يكون بالخير والشرّ.

١٠- من طبع الإنسان الظن بأن كثرة المال دلالة محبة ورضى من الله.

١١- البخل والطمع من الصفات اللازمة للإنسان إلا من جاهد نفسه وانتصر عليها.

١٢- سوء ظن الكافر بربه، وقبح تعبيره بالإهانة عن حكمة الله بالمنع وتقدير الرزق.

١٣- وجوب إكرام اليتيم وعدم استغلال ضعفه لإذلاله وإهانته، مع شدة حاجته إلى من يجبر كسره ويحسن إليه.

١٤- تصوير شدة هول يوم القيامة بدكّ الأرض دكّا، ومجيء الخالق الجبار للفصل بين الخلق، ومجيء الملائكة الكرام في صفوف، والإتيان بجهنم في مشهد مهيب رهيب.

١٥- على الإنسان المبادرة إلى الأعمال الصالحة وتذكر أوامر الله قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه الذكرى.

١٦- شرف الانتماء إلى عباد الله الصالحين، حيث نسبهم سبحانه إليه ﴿عِبَدِى﴾، وكفى به شرفًا ومقامًا ومنزلة.

تفسير سورة البلد (٩٠)

تمهيد:

أسماؤها: سورة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ وتسمى سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: عشرون آية.

مقاصدها:

- التنويه بشأن مكة المكرمة لوجود البيت المعظم بها، ولمكانتها العظيمة ومنزلتها الشريفة وحرمتها.
- تعداد نعم الله تعالى على الإنسان حتى يرجع عن عصيانه وغروره، ويخلص العبادة لخالقه.
- حث الإنسان على عمل الخير والإكثار منه وجعله في موضعه الصحيح.
- بيان حسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

مناسبتها لما قبلها: لما ذكر في آخر سورة الفجر أشرف النفوس، بدأ هذه السورة بذكر أشرف البقاع، ولما ذكر في سورة الفجر أن الإنسان متعلق بالمال محب له، بين في هذه السورة الأعمال التي تطلب من صاحب المال.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

افتتحت السورة الكريمة بالقسم: تشويقًا لما يرد بعده، وتأكيدًا للمقسم عليه.

وورود ﴿لَآ﴾ النافية جريًا على عادة العرب في القسم، عندما يكون المقسم عليه ظاهرًا أمره.

وجيء باسم الإشارة هنا: لتمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به ورفع شأنه.

و﴿حِلٌّۢ﴾: هو اسم مصدر من أحل بمعنى الحلال الذي هو ضد الحرام فيكون المعنى: وأنت أيها الرسول الكريم - قد أحل الله تعالى لك أن تفعل بهؤلاء المشركين ما شئت من القتل أو العفو، وفي ذلك بشارة للنبي ﷺ بأن الله تعالى سينصره على مشركي قريش، ويمكنه من رقابهم، وقد أنجز له - سبحانه - ذلك يوم فتح مكة.

وقيل في معنى ﴿حِلٌّۢ﴾ أنه من حل بالمكان إذا أقام فيه.

وجيء بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دون «مَن» مع أنها أكثر استعمالًا في العاقل الذي هو مراد هنا: لأن «ما» أشد إبهامًا لقصد التفخيم والتعظيم.

وتنكير لفظ ﴿وَالِدٍ﴾ هنا للتعظيم أيضا، والمقصود العموم أي كل والد وولد.

والمراد بالإنسان: جنسه، والكبد: الشدة والتعب والمشقة، من المكابدة للشيء، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب في فعله، وهذا حال معظم الناس، لا تكاد تجد إنسانا إلا وهو مهموم ومشغول بمطالب حياته، وتحقيق آماله ورغباته وغاياته، فمنهم من يصل إلى مراده ومنهم من يقصر عن ذلك.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

والمعنى: أقسم الله تعالى بالبلد الحرام الذي له ما له من الشرف وأقسم بكل والد وولده على أن الإنسان خلق فِي كَبَدٍ فإنه لا يزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾: معنى الاستفهام في قوله ﴿أَيَحْسَبُ﴾: الإنكار والتوبيخ، ومعنى: ﴿أَهْلَكْتُ﴾: أنفقت، والتعبير بهذا اللفظ: للإشعار بأن ما أنفقه من مال هو شيء هالك، لأنه لم ينفق في الخير، وإنما أنفق في الشر، والقصد من ذلك: التباهي والتعالي على غيره.

ومعنى ﴿لُّبَدًا﴾: جمع لُبْدَة، والمراد به: المال الكثير الذي تلبد والتصق بعضه ببعض لكثرته.

والمعنى: أيظن هذا الإنسان الذي هو في تعب ومشقة، أنه قد بلغ من القوة والمنعة بحيث لا يقدر عليه أحد، إن كان كذلك فهو في ضلال مبين، لأن الله تعالى الذي خلقه قادر على إهلاكه في لمح البصر، وقادر على أن يسلط عليه من يذله، ويقضي عليه.

ويظن كذلك هذا الجاهل المغرور حين أنفق المال الكثير في المعاصي والسيئات، أن الله تعالى غير مطلع عليه، إن كان يظن ذلك في كل فهو في نهاية الجهالة، لأن الله تعالى مطلع عليه، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبه على ذلك حسابًا عسيرًا.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: الاستفهام للتقرير، لأن الله تعالى قد جعل له كل ذلك، ولكنه لم يشكر الله تعالى على هذه النعم، بل قابلها بالجحود والبطر.

والنجد: الأرض المرتفعة، وجمعه نجود، ومنه سميت بلاد نجد بهذا الاسم، لأنها مرتفعة عن غيرها، والمراد بالنجدين هنا: طريق الخير وطريق الشر، وإنما سميا النجدين: للإشارة إلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه، وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك الخير، بل الغالب أن يكون طريق الشر أشق وأصعب، وأحوج إلى الجهد.

يذكّر الله - سبحانه - ببعض نعمه على الإنسان الجاهل المغرور؛ بأن جعل له عينين، يبصر بهما، وجعل له لسانا ينطق به، وشفتين تساعدانه على النطق الواضح السليم ويستر بهما ثغره.

وكذلك أرشده إلى طريق الخير والشر، بواسطة الرسل الكرام، وعن طريق ما منحه الله تعالى من عقل، يميز به بين الحق والباطل، ثم وهبه الاختيار لأحدهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا

﴿بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

الفاء للتفريع على ما تقدم.

و﴿فَلَا﴾ بمعنى: هلا التي تفيد التحضيض.

ويقال ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾: إذا كان الدخول بقوة وسرعة وبشدة.

و﴿ٱلۡعَقَبَةَ ١٢﴾ في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، والمراد بها هنا: مجاهدة النفس، وحملها على القول والفعل الذي يرضي الله تعالى.

والنكتة البلاغية التي تضمنتها كلمة العقبة: الاستعارة[1]، فقد استعيرت لمجاهدة النفس، وحملها على الإنفاق في سبيل الخير، لأن هذه الأعمال شاقة على النفس، فجعلت كالذي يتكلف سلوك طريق وعر.

والذي يفيده الاستفهام في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾: تفخيم شأنها، والتهويل من أمرها، والتشويق إلى معرفتها.

وقد ورد في هذه الآيات توجيه إلى فضائل تؤدي إلى مجاهدة النفس، وحملها على طاعة الله - تعالى وهي:

الفضيلة الأولى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾: والمراد به: إعتاقها وتخليصها من الرق والعبودية، إذ الفك معناه: تخليص الشيء من الشيء، ومن الأحاديث التي وردت في فضل عتق الرقاب وتحريرها من الرقّ، قوله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة، أعتق الله بكل إرب منها - أي عضو منها - إربا منه من النار»[2].

---

(١) الاستعارة: تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، فإذا حُذف المشبه فهي تصريحية، وإذا حُذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه فهي مكنية.

(٢) رواه مسلم برقم ٣٨٦٨.

وقيل إن المراد بفك الرقبة: أن يخلص الإنسان نفسه من المعاصي والسيئات، التي تكون سببًا في دخوله النار.

الفضيلة الثانية: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾، والمسغبة: المجاعة، ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة كما في قولهم: نهار صائم. والمعنى: إطعام المحتاجين في يوم يشتد فيه جوعهم.

والفضيلة الثالثة: أن يكون المُطعَم يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ.

قرأ الجمهور: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ برفع «فك» وإضافته إلى «رقبة»، ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ بكسر الهمزة وألف بعد العين وبتنوين الرفع، على أنه مصدر معطوف على المصدر الذي قبله وهو ﴿فَكُّ﴾، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيُّ: ﴿فَكَّ﴾ بفتح الكاف على أنه فعل ماض، ونصب لفظ ﴿رقبةً﴾ على أنه مفعول به. ﴿أو أطْعَمَ﴾ بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح العين والميم بلا ألف، على أنه فعل ماض معطوف على ﴿فكَّ﴾، وقوله: ﴿يَتِيماً﴾ منصوب على أنه مفعول به لقوله ﴿إطعام﴾ أو ﴿أطْعَمَ﴾ على القراءة الثانية.

واليتيم: هو الشخص الذي مات أبوه وهو صغير.

والمقربة: بمعنى القرابة، من قرب فلان من فلان، إذا كان بينهما نسب قريب.

والمتربة: الحاجة والافتقار الشديد، من ترب الرجل إذا افتقر، حتى لكأنه قد لصق بالتراب من شدة الفقر، وأنه ليس له مأوى سوى التراب.

وخص - سبحانه - الإطعام بكونه في يوم ذي مجاعة: لأن إخراج المال في وقت القحط، أثقل على النفس، وأوجب لجزيل الأجر، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقيد – سبحانه – اليتيم بكونه ذا مقربة: لأنه في هذه الحالة يكون له حقان: حق القرابة، وحق اليتم، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾: ﴿ثُمَّ﴾: للتراخي الرُّتْبيّ.

والمعنى: هلا كان هذا الإنسان ممن فكوا الرقاب، وأطعموا الطعام لليتامى والمساكين، ثم كان – فضلا عن كل ذلك – من الذين آمنوا بالله تعالى إيمانا حقا، وممن أوصى بعضهم بعضا بفضيلة الصبر، وفضيلة التراحم والتعاطف.

وخص الله تعالى من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر، وتواصيهم بالمرحمة: لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله تعالى.

واسم الإشارة في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: يعود على الذين آمنوا وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة، هم أصحاب الجهة اليمنى التي فيها السعداء الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم، فالمراد بالميمنة: جهة اليمين.

وعاقبة الكافرين أنهم أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ أي: هم في جهة الشمال التي فيها الأشقياء، أو هم أصحاب الشؤم على أنفسهم بسبب إصرارهم على كفرهم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ يقال: آصدت الباب وأوصدته، إذا أحكمت غلقه، والمعنى: إن مآل الكافرين إلى نار مغلقة حتى لا يخرجوا منها، وليزداد حرُّها عليهم فالمكان المغلق يتجمع فيه الحر وينحبس، فيزداد بذلك عذابهم.

فوائد ولطائف:

١- المكانة الكبرى لمكة المكرمة بين المدن.

٢- جريُ القرآن الكريم على عادة العرب في تأكيد القسم بلا النافية قبله.

٣- عظيم منزلة النبي ﷺ وسمو مقامه، حيث كان حلوله في البلد الحرام ومقامه فيه مدعاة لزيادة تعظيمه ورفعة مكانته.

٤- حياة الإنسان مليئة بالمصاعب والمتاعب، ومع ذلك لا يحب معظم الناس فراقها.

٥- غرور الإنسان وظنه بنفسه العظمة والقدرة المطلقة.

٦- الكبَد والمشقة في حياة الإنسان من لحظة الولادة إلى وقت الوفاة.

٧- عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»[1]، وعلى اللبيب اغتنام أوقات عمره ونعم الله تعالى عليه للعمل بما يرضيه وليكون مستعدًّا للإجابة عن هذه الأسئلة.

٨- العينان واللسان والشفتان من أعظم النعم على الإنسان، فبالعينين يرى ما حوله، وباللسان والشفتين يعبر عما في نفسه، كما أنها من أعظم مظاهر الجمال فيه.

٩- خلق الله للإنسان لسانا واحدا وأذنين ليسمع أكثر مما يتكلم، وجعل له على اللسان قفلين هما: الأسنان والشفتان، لينتبه إلى ما يقول، وقد

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم ١٦٤٨، والدارمي برقم ٥٣٩، والطبراني في الأوسط ٤٧١٠، وفي الكبير في عدة مواضع، وهو ضعيف، وفي بعض الروايات يروى موقوفا عن معاذ، وفي بعض ألفاظه اختلاف.

ورد في الحديث: «هل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

١٠- قال بعض الصالحين: إن نازعك لسانك على معصية فله طبقان أطبقهما، وإن نازعك بصرك على معصية فله طبقان أطبقهما، وإن نازعك فرجك على معصية فله طبقان أطبقهما.

١١- الغفلة عن مراقبة الله من أعظم أسباب التجرؤ على ارتكاب المعاصي.

١٢- وهب الله الحرية للإنسان في أن يسلك الطريق الذي يختاره، طريق الخير أو طريق الشر.

١٣- الحث على فعل ما ينجي من العقوبة في النار، وإن كان فيه مشقة وعنت.

١٤- تخير الأوقات والأحوال المناسبة لفعل الخير.

١٥- الصدقة على القريب أفضل منها على البعيد.

١٦- من صفات أهل الإيمان التواصي بالصبر والتراحم.

١٧- شدة عذاب أهل النار حيث إنها تغلق عليهم فلا ضوء ولا فرَج ولا تخفيف، فهم في ضيق وغمّ مستمر، لا يخرجون منها ولا يموتون.

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٢٠١٦، ورواه الترمذي برقم ٢٦١٦، وهو صحيح.

تفسير سورة الشمس (٩١)

تمهيد:

أسماؤها: سورة الشمس، وتسمى ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾، كما تسمى ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: خمس عشرة آية عند معظم علماء العدد، وست عشرة آية في العدد المدني الأول.

فضلها: ورد فيه حديث معاذ السابق ذكره في فضل سورة الأعلى.

مقاصدها:

- بيان مظاهر قدرته تعالى في خلقه.
- بيان حسن عاقبة من يزكي نفسه، وسوء عاقبة من يتبع نفسه هواها.
- تهديد المشركين بأنهم سيصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم، إذا استمروا في كفرهم.

مناسبتها لما قبلها: افتتحت كلتا السورتين بالقسم، وفي سورة البلد ورد ذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، وورد ذكرهما هنا، وختمت سورة البلد بذكر عذاب الكفار في الآخرة، وختمت هذه بذكر عذابهم في الدنيا.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

تبدأ السورة الكريمة بأحد عشر قسما متتابعة، وهي كلها أمور عظيمة هي:

الأول والثاني: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾: الشمس: هي الجرم الكبير الذي يضيء مجموعة من الواكب المحيطة به والدائرة في فلكه، والضحى: الوقت الذي ترتفع فيه الشمس بعد إشراقها، والمراد بضحاها: ضوؤها أو النهار كله، أو حرها ولا تعارض بين هذه الأقوال.

وبدأ - سبحانه - بالشمس: لأنها من أعظم الكائنات، وللتنويه بشأن الإسلام، وأن هديه كضياء الشمس، الذي لا يترك للظلام أثرا.

الثالث: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾ القمر هو الجرم السماوي الصغير الملازم للأرض والذي يدور حولها، والضمير في ﴿تَلَاهَا﴾ يعود إلى الشمس، والمراد: أن القمر تابع للشمس حيث يتعلق بهذا الارتباط مصالح الناس، ومنافع للأرض والمخلوقات عليها، أو أن القمر يستمد نوره من نور الشمس، وهو أمر قد أثبته علماء الفلك، وهذا من الإعجاز العلمي في كتاب الله تعالى.

الرابع: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾﴾ التجلية: الإظهار والكشف، أي: وأقسم بالنهار الذي يُظهر الشمسَ، وهذا من القلب فالشمس إذا طلعت هي التي

تُجلي النهار، ويكون إسناد التجلية إلى النهار مجازا عقليا[1]، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ إلى الظُّلمة المفهومة من الكلام، أي: وأقسم بالنهار إذا أزال الظلام وعمّ نورُه الأرض.

الخامس: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ الغشاء هو الغطاء، أي: أن الليل يغطي ضوء الشمس، فالضمير في ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ يعود إلى الشمس، وقيل إلى الأرض، أي يغطي الليلُ الأرضَ.

السادس والسابع: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾ أي: وأقسم بالسماء ومن بناها وأوجدها على تلك الصورة البديعة الرائعة، فـ ﴿مَا﴾ هنا: اسم موصول بمعنى مَن، والمراد بمَن بناها: الله - عز وجل - وأوثرت ﴿مَا﴾ على «مَن» التي تأتى للعاقل كثيرًا، لإفادتها معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء، والقادر العظيم الذي بناها.

ومنهم من يرى أن ﴿مَا﴾ هنا مصدرية، فيكون المعنى: وحق السماء وبنيانها.

الثامن والتاسع: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾ الطحو: البسط كالدحو المذكور في سورة النازعات ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ أي: وأقسم بالأرض ومَن بسطها مِن كل جانب، وجعلها مهيأة للاستقرار عليها. فَـ ﴿ما﴾ بمعنى «مَن»، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: والأرض وطحوها.

العاشر والحادي عشر: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾ المراد بالنفس هنا: ذات الإنسان، ويكون المراد بتسويتها: استواء خلقة الإنسان، وتركيب أعضائه في أجمل صورة.

---

(١) المجاز العقلي: هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، مع وجود قرينة تمنع الإسناد الحقيقي.

أي: وأقسم بالنفوس، ومن أنشأها من العدم في أحسن تقويم، وجعلها مستعدة لتلقّي ما يكملها ويصلحها، فـ ﴿ما﴾ بمعنى «مَن» كذلك، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى: وتسويتها.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾: الإلهام: هو التعريف والإفهام للشيء، أو التمكين من فعله أو تركه، والفجور: فعل ما يؤدي إلى الخسران والشقاء، والتقوى: هي الإتيان بالأقوال والأفعال التي ترضي الله تعالى وتصون الإنسان من غضبه، عز وجل.

فالله تعالى عرّف النفس الإنسانية وألهمها وأفهمها معنى الفجور والتقوى، وبيّن لها حالهما، ووضّح لها ما ينبغي أن تفعله وما ينبغي أن تتركه، من خير أو شر، ومن طاعة أو معصية، بحيث يتميز عندها الرشد من الغي، والخبيث من الطيب.

والسبب في تقديم الفجور على التقوى، مراعاة أحوال المخاطبين بهذه السورة، وهم كفار قريش، الذين كانت أعمالهم قائمة على الفجور والخسران، بسبب إعراضهم عما جاءهم به رسول الله ﷺ من حق وبر.

وقوله - سبحانه -: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾: جواب القسم، وقيل: جواب القسم محذوف، للعلم به، والتقدير: أقسم بالشمس وضحاها،... لَيَقعنّ البعث والحساب والجزاء، أو لتحاسبن على أعمالكم.

ومعنى الفلاح: الظفر بالمطلوب، والتزكية: التزود من الخير والطاعة، والحرص على تطهير النفس من كل سوء، و﴿دَسَّىٰهَا﴾ أي: أضل نفسه وأغواها، وقد يكون أصلها من دسَّسَ بمعنى أخفى، لإخفائهم الفطرة، أو لإخفائهم أنفسهم بدسّها في جملة الصالحين، توقيا من العقاب الدنيوي.

والمعنى: أقسم بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها.... لقد أفلح وفاز وظفر بالمطلوب، ونجا من المكروه، من طهر نفسه من الذنوب والمعاصي، وقد خاب وخسر نفسه، وأوقعها في التهلكة، من نقصها وأخفاها وحال بينها وبين فعل الخير بسبب ارتكاب الموبقات والشرور.

وإنما أقسم الله تعالى بهذه الكائنات المختلفة: لتأكيد وحدانيته، وكمال قدرته، وبليغ حكمته.

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها»(١).

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ المراد بثمود: قبيلة أرسل الله تعالى إلى أهلها صالحا - عليه السلام - لكي يأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، ومفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ محذوف للعلم به.

والطّغوى: مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد المعتاد، والباء في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ للسببية.

والظرف ﴿إِذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ متعلق بقوله ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾، لأن وقت انبعاث أشقاهم لقتل الناقة هو أشد أوقات طغيانهم وفجورهم.

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ١٩٣٣٩، والطبراني في المعجم الكبير برقم ١١٠٢٨ و١١١٩١، ورواه مسلم برقم ٧٠٨١ ضمن دعاء آخر ودون أن يقرنه بالآية.

وقوله ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أي: أشقى تلك القبيلة، وهو قُدار بن سالف[١]، الذي يضرب به المثل في الشؤم، فيقال: فلان أشأم من قدار[٢]، لأنه كان سبب هلاك قومه.

وعبر الله تعالى بقوله: ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ للإشعار بأنه قام مسرعا عند ما أرسله قومه لقتل الناقة، ولم يتردد في ذلك لشدة كفره وجحوده.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ عاطفة على قوله ﴿كَذَّبَتْ﴾ لإفادة الترتيب والتعقيب.

وقد قال لهم ذلك في أعقاب شعوره بتصميمهم على تكذيبه، وعلى قتل الناقة.

وأضيف لفظ ﴿نَاقَةَ﴾ إلى لفظ الجلالة: تشريفا لها، لأنها قد جعلها - سبحانه - معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ودليلا على صدقه، وهو منصوب على التحذير، وكذلك ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ منصوب على التحذير، والكلام على حذف مضاف، أي: احذروا عقر ناقة الله ومنع سقياها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ العقر: النحر.

ومعنى: ﴿فَدَمْدَمَ﴾ دمّر وأهلك، والباء في ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ للسببية، ومعنى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فسوى عليهم الأرض، أو سوّى عليهم الدمدمة فأهلكتهم جميعًا. وفي ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ قراءتان، إحداهما بالواو والأخرى بالفاء ﴿فلا﴾، والفاعل هو الله تعالى، والضمير في ﴿عُقْبَاهَا﴾ يعود على الإهلاك.

---

(١) ذكر اسمه عدد من المفسرين، منهم الطبري في جامع البيان ٢٤/ ٤٥٩، والبغوي في معالم التنزيل ٨/ ٤٤٠، والهرري في حدائق الروح والريحان ٣٢/ ٤٦.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي ٣/ ٢١١.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود نبيهم صالحًا، عليه السلام، بسبب طغيانهم وإفراطهم في الجحود، وقت أن أسرع أشقى شخص في تلك القبيلة، لعقر الناقة التي نهاهم نبيهم عن مسها بسوء، فقال لهم رسول الله تعالى إليهم، وهو صالح، عليه السلام، على سبيل التحذير والإنذار: احذروا عقر ناقة الله - تعالى، واحذروا الاعتداء على الوقت المحدد لشرابها فلا تمنعوها فيه من الشرب، فإن لها يوما لا تشاركونها فيه الشرب، وإن لكم يوما آخر هي لن تشارككم فيه، وقد قال لهم صالح، عليه السلام، هذا الكلام، عند ما شعر بأنهم قد بيتوا النية على عقرها.

ولكنهم أصروا على تكذيب نبيهم، وتجاوزوا ذلك إلى عقر الناقة التي نهاهم عن مسها بسوء، فكانت النتيجة أن أهلكهم الله تعالى بالصيحة وأطبق عليهم الأرض، وسواها من فوقهم جميعا دون أن يفلت منهم أحد، وصاروا كلهم تحت ترابها، ونجى - سبحانه - صالحا ومن آمن معه بفضله ورحمته، ولا يخاف الله تعالى عاقبة ما فعله بهؤلاء الطغاة الأشقياء، لأن الذي يخاف إنما هو المخلوق.

فوائد ولطائف:

١- كثرة الآيات الدالة على وحدانية الله وعظمته.

٢- تذكير الخلق بالنعم العظيمة وفوائدها الكثيرة من خلال القسم بها كالشمس والقمر والسماء، ولفت الانتباه إلى التدبر في خلقها، وحمد الله تعالى على نعمة إيجادها، والتأمل في بديع خلق الله وإحكام صنعه، ومن ذلك النظام الدقيق للشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم، ولكل منها مقام معلوم ومسار واضح ونظام دقيق، فسبحان الخالق العظيم.

٣- تأكيد القسم بكثرة المقسم به، وفي هذه السورة الكريمة أطول قسم في القرآن.

٤- من عدل الله تعالى أن جعل نفس الإنسان مهيّأة للخير والشرّ.

٥- الجمع بين المتقابلات كالشمس والقمر، والسماء والأرض، والنهار والليل، والفجور والتقوى، والتزكية والتدسية، لتظهر ميزة كل منها من خلال مقارنتها بما يقابلها، وهو ضرب من ضروب البلاغة يسمى: الطباق.

٦- التحذير من الطغيان والتمادي في الضلال والإثم.

٧- نسب الله تعالى عقر الناقة إلى القوم مع أن القائم به واحد لبيان رضاهم عن فعله.

٨- الحذر من أن يكون المرء رأسا في الشرّ والضلال.

٩- معنى العقر في اللغة: جرح إحدى قوائم البعير أو قطعها أو ربطها، ويتبعه النحر بإدخال السيف أو السكين بشكل طولي في أسفل رقبته، وأطلق العقر على النحر لأنه سبب له[1].

١٠- إن لم يمنع المصلحون المفسدين من فعلهم عمّ العقابُ الجميعَ.

١١- أخذ العبرة من قصص الأمم السابقة.

١٢- الحكم المطلق في هذا الكون لله وحده.

(١) تهذيب اللغة للأزهري ١/ ١٤٥، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٣٩٥.

تفسير سورة الليل (٩٢)

تمهيد:

أسماؤها: سورة «الليل»، وتسمى ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾، وتسمى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: إحدى وعشرون آية.

فضلها: وردت ضمن السور المذكورة في حديث معاذ السابق ذكره في فضل سورة الأعلى.

مقاصدها: بيان التفاوت الكبير بين الناس في سعيهم، وبيان حال ومآل أهل التقوى وأهل التكذيب.

مناسبتها لما قبلها: فيها تفصيل ما أجمل في السورة السابقة من قوله تعالى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، وورد في السورتين لفظ ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ و﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾.

التفسير:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ

﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

أقسم الله تعالى في افتتاح هذه السورة بثلاثة أشياء هي:

أولًا: بالليل إِذا يَغْشى أي: أن الليل يغطي ضياء النهار، ويذهب نوره، إذ عند حلول الليل يسكن الخلق عن الحركة، ويأوي كل إنسان أو حيوان إلى مأواه، ويستقبلون النوم الذي فيه ما فيه من الراحة لأبدانهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ].

وإنما حذف مفعول ﴿يَغْشَىٰ﴾ للتعميم، أي يغشى كل شيء ويواريه بظلامه.

ثانيًا: بالنهار إِذا تَجَلَّى أي: انكشف وظهر، وأزال الليل وظلمته، وخرج الناس معه ليباشروا أعمالهم المتنوعة.

وأسند - سبحانه - التجلي إلى النهار، على سبيل المدح له بالاستنارة والإسفار.

ثالثًا: بِما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى و﴿ما﴾ هنا موصولة، بمعنى الذي، فيكون سبحانه قد أقسم بذاته أنه خلق نوع الذكور، ونوع الإناث من ماء واحد، وجاء التعبير بما، للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم.

ويصح أن تكون ﴿ما﴾ هنا حرفا مصدريا، وعليه يكون سبحانه قد أقسم بفعل من أفعاله التي تدل على كمال قدرته، وبديع صنعته، حيث أوجد الذكور والإناث من ماء واحد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ هو جواب القسم.

ومعنى السعي: العمل. وقوله ﴿سَعْيَكُمْ﴾ مصدر مضاف فيفيد العموم فهو في معنى الجمع أي: إن مساعيَكم.

وشتى: جمع شتيت، من الشتات بمعنى الابتعاد والافتراق.

والمعنى: أقسم بالليل إذا يغشى النهار فيستر ضياءه، وبالنهار إذا تجلّى وأسفر وأزال الليل وظلامه، وبالذي أوجد الذكور والإناث، أن أعمالكم ومساعيَكم - أيها الناس - في هذه الحياة، لهي طرائق متعددة، وأنواع متفرقة، منها الطاعة، ومنها المعصية ومنها الهدى ومنها الضلال، والخير، والشر، وسيجازي - سبحانه - كل إنسان على حسب عمله.

وبعد أن بين الله تعالى تنوع أعمال الناس ومساعيهم في هذه الحياة، فصّل ما أجمله فبيّن أعمال المؤمنين والكافرين، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾: المتأمل في هذه الآيات الكريمة يراها، قد وصفت المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هي جماع كل خير، وأساس جميع الفضائل:

الصفة الأولى: السخاء: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ بأن أنفق من ماله في وجوه الخير: كإعتاق الرقاب، ومساعدة المحتاجين.

الصفة الثانية: الخوف من الله تعالى ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي اتَّقى المحارم والمعاصي.

الصفة الثالثة: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي: صدق بكل ما يجب التصديق به.

ورتب على ذلك توفيقهم للخصلة الحسنى التي توصلهم إلى اليسر والراحة وصلاح البال، وذلك بتوفيق الله تعالى لهم بأداء الأعمال الصالحة التي تهيئهم إلى السعادة التي تنتهي بهم إلى الفوز والسعادة.

وانما حُذِف مفعولا ﴿أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ للعلم بهما، أي: أعطى ما كلفه الله تعالى به، واتقى محارمه.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾: وصفت هذه الآيات أهل الفسوق والفجور بثلاث صفات، هي أساس البلاء، ومنبع الفساد، هي:

الصفة الأولى: البخل، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ أي: فلم يؤد حقوق الله تعالى في ماله، ولم يبذل شيئا منه في وجوه البر.

الصفة الثانية: الغرور ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: واستغنى عن ثواب الله تعالى، وتطاول على الناس بماله وجاهه، وآثر متع الدنيا على نعيم الآخرة.

الصفة الثالثة: التكذيب ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾ أي: وكذب بالخصلة الحسنى التي تشمل الإيمان بالحق، وبيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.

وقد رتب الله تعالى على ذلك تهيئتهم للخصلة العسرى، التي توصلهم إلى سوء المصير، وشديد العقاب بأن جعلهم بسبب سوء اختيارهم، يؤثرون الغي على الرشد، والباطل على الحق، والبخل على السخاء، فتكون نهايتهم الخسران والبوار.

﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾: ﴿مَا﴾ في الآية نافية، ومعنى التردي: يقال: تردى فلان من فوق الجبل، إذا سقط من أعلاه إلى أسفله، والمراد به هنا: النزول إلى القبر بعد الموت، أو السقوط في النار بسبب الكفر والفسوق والعصيان، من الردى بمعنى الهلاك.

والمعنى: ولا يغني شيئًا عن هذا الشقي الذي بخل واستغنى وكذب بالحسنى، ماله وجاهه وكل ما كان يملكه في الدنيا، إذا سقط يوم القيامة في النار.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية: ويكون المقصود بالاستفهام الإنكار والتوبيخ، أي: وماذا يغني عن هذا الشقي ماله بعد هلاكه، وبعد تردية في

جهنم يوم القيامة؟ إن ماله الذي بخل به في الدنيا لن يغني عنه شيئا، بل سيهوي في جهنم دون أن يشفع له شافع، أو ينصره ناصر.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾: المعنى: يبين الله تعالى أنه وضح للناس طريق الخير وطريق الشر بواسطة الرسل، ولله وحده كل ما في الدنيا، وكل ما في الآخرة، إذ الخلق والأمر بيده، والعطاء والمنع لا يملكه أحد سواه، وهذا الكون كله تحت تصرفه.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾: الفاء هنا: تفيد الإفصاح عن مقدر.

ومعنى ﴿تَلَظَّىٰ﴾ أي: تتوقد وتتوهج وتلتهب، وأصله تتلظى، أي: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم، من حسن عاقبة من أعطى واتقى، ومن سوء عاقبة من بخل واستغنى، ومن أن كل شيء تحت قدرتنا وتصرفنا فأكون بذلك قد حذرتكم من عذاب جهنم، التي لا يحترق بها إِلَّا من كَذَّبَ بالحق وَتَوَلَّى عن الطاعة وسار في طريق الكفر والجحود، حتى أدركه الموت، وهو على ذلك، واستعمال ﴿الْأَشْقَى﴾ للمبالغة.

وبعد أن بيّن الله تعالى حال الاشقياء بيّن حال الأتقياء، فقال تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾: المعنى: ان هذه النار المتأججة سيبتعد عنها الأتقى، وهو من بالغ في صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله تعالى، وحرص كل الحرص على فعل ما يرضيه - عز وجل -، ومن ذلك تقديم ماله لغيره، وإنفاقه في وجوه البر والطاعة، خاليا من شبهة الرياء والتفاخر، لا يفعل ما يفعل من وجوه الخيرات، من أجل المجازاة لغيره على نعمة سلفت من هذا الغير له، وإنما يفعل ذلك من أجل شيء

واحد، وهو طلب رضا الله تعالى والظفر بثوابه، والإخلاص لعبادته سبحانه، إن من يفعل هذا من أجل الظفر برضا ربه تعالى لا من أجل شيء آخر لسوف يعطى عطاء يرضيه ويسعده ويشرح صدره.

والتعبير بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يشعر بابتعاده عنها ابتعادا تاما.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع من قوله: ﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾ لأن الابتغاء لا يندرج فيها، فالمعنى: لكنه فعل ذلك لابتغاء وجه ربه - سبحانه - وطلب رضاه، لا مكافأةً لأحد على نعمة.

ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله[1]، أي: لا يؤتي ماله لأجل شيء من الأشياء إلا لأجل طلب رضا ربه، لا لأجل شيء آخر، فهو استثناء مفرَّغ من أعم العلل والأسباب.

وقد ورد في كتب التفسير أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق فقد كان يعتق العجائز من النساء إذا أسلمن، ويشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بني، أراك تعتق أناسا ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالا جلداء - أي: أشداء - يقومون معك، ويمنعونك، ويدفعون عنك، فقال أبو بكر: أي أبت إنما أريد ما عند الله، فنزلت هذه الآيات[2]، ولا شك أنه رضي الله عنه داخل في معنى الآية، وأنه أَولى الأمة بعمومها.

فوائد ولطائف:

١- التنبيه إلى عظيم النعمة على الخلق بحصول الليل والنهار وتتابعهما، وما في ذلك من ترتب مصالح كثيرة.

(١) إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ٥٠٤ و٥٠٥.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٧٣٣، وجامع البيان للطبري ٢٤/ ٤٧٩.

٢- التنبيه إلى آية عظمى في الخلق وهي التقابل والتكامل بين الذكر والأنثى، في عالم البشروالحيوانات والنباتات وسائر الخلق.

٣- عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: (والذكرِ والأنثى) بدل ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[1] وهي قراة مخالفة للرسم، ولا يُقرأ بها وإن وردت في الصحيح لمخالفتها الأصح منها وهو التواتر.

٤- التشويق إلى ما سيُذكر من تفصيل بعد الإجمال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

٥- من أعظم الأدلة على الخالق الحكيم تنوع أعمال العباد وما يملؤون به أوقاتهم، وكثرة ما يشغلهم ويهمهم.

٦- إرادة البشر تابعة لمشيئة الله تعالى، فلا يكون في الكون غير ما يشاؤه الله.

٧- جزاء الرؤساء - في الإيمان والضلال - أعظم من جزاء أتباعهم.

٨- على المؤمن أن يخلص عمله لله تعالى، ولا ينتظر جزاءً عليه من أحد.

٩- الحث على الإنفاق في سبيل الله وبيان أنه من مكارم الأخلاق وموجب لخير الدنيا والآخرة.

١٠- التحذير من البخل والتنفير منه، وتبيين أن المال المدّخر لن ينفع مالكه بشيء إذا هلك.

١١- التخويف من النار بذكر صفاتها وبيان حالها، والتحذير من الأسباب والأفعال المؤدية إلى دخولها.

١٢- استعمال ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ و﴿ٱلْأَتْقَى﴾ للمبالغة وللموازنة بين عظيم الكفر وعظيم الإيمان، ولتكون المقابلة بين الأسوأ في الكفر والأرسخ في الإيمان.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٧٦١، ومسلم برقم ١٩٥٣.

١٣- يُلحظ ورود وزن «أفعل» في السورة ثلاث مرات؛ صفة ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لله سبحانه، و﴿ٱلْأَتْقَى﴾ صفة للمؤمن الصادق، و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ صفة للكافر المعاند، فمن أراد رضى الأعلى سعى ليكون الأتقى ولا يعبأ بالأشقى.

١٤- أعدّ الله تعالى لعباده الصالحين من أصناف النعيم ما يرضيهم.

١٥- ورد الفعل ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ في السورة مرتين، الأولى في حق المتقين، والثانية في حق المكذبين، وحصول التيسير لأهل التقوى واضح، وبالنسبة للمكذبين يراد به أن من اعتاد على فعل الشر سهل عليه فعله والهبوط في حضيض الآثام والانغماس في أوحال الخطيئة[1].

١٦- فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومكانته المتقدمة ومنزلته العالية، فقد كان ينفق ويبذل ويقدم ولا ينتظر أي جزاء في الدنيا مقابل عمله، ونزول آيات من هذه السورة فيه حافز كبير ودافع للمؤمنين أن يكونوا مثله ويسيروا على طريقته ومنهجه.

١٧- من رضي الله تعالى عنه أرضاه.

[1] في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٢٢، وحدائق الروح والريحان ٣٢/ ٦٧.

تفسير سورة الضحى (٩٣)

تمهيد:

أسماؤها: سورة «الضحى»، وتسمى ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ بالواو.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: إحدى عشرة آية.

فضلها: ورد ذكرها في بعض روايات حديث معاذ الذي سبق ذكره في فضل سورة الأعلى، فعن جابر أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «اقرأ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، والضحى»[1].

مقاصدها: تبيين عظيم مقام النبي ﷺ عند ربه، وسرد بعض النعم عليه، وإرشاده إلى مكارم الأخلاق.

مناسبتها لما قبلها: المناسبة بين فاتحة السور الثلاث: الشمس والليل والضحى ظاهرة، وورد في سورة الليل حديث عن الآخرة والأولى، وفي هذه السورة بيان أن الآخرة أفضل من الأولى، وختمت سورة الليل بقوله ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ وورد في هذه السورة ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾.

سبب نزولها: ورد في سبب نزول هذه السورة الكريمة روايات عديدة، منها عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلة أو

(١) رواه الإمام مسلم برقم ١٠٦٨.

ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[1].

التفسير:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

الضحى: هو وقت ارتفاع الشمس بعد إشراقها، وخص بالقسم به: لأنه وقت النشاط والحركة، والإقبال على السعي والعمل، وقيل المراد به النهار كله.

ومعنى ﴿سَجَىٰ﴾: سكن وركد ظلامه يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة الريح: وقيل معناه: سكون الناس والأصوات فيه.

والمعنى: أُقسِم بالضحى وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس، ويتم إشراقها، ويأخذ الناس في النشاط والحركة، وأُقسِم بالليل إذا سكن وهجع فيه الناس بعد عناء العمل.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

ومعنى ﴿وَدَّعَكَ﴾: من التوديع وهو في الأصل الدعاء للمسافر ببلوغ الدعة وخفض العيش.

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٩٨٣، وقيل إن المرأة هي أم جميل زوجة أبي لهب كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٤٢٤.

و﴿قَلَىٰ﴾: من القِلَى وهو شدة البغض، يقال: قلا فلان فلانا يقليه، إذا كرهه وأبغضه بشدة.

أي: ما تركك ربك - أيها الرسول الكريم - منذ أن اختارك لحمل رسالته، وما أبغضك ولا كرهك، بل أنت محل الرضى والمحبة.

والمقصود: نفي أن يكون الله تعالى قد قطع وحيه عن نبيه ﷺ.

وفي ذلك رد بليغ على المشركين الذين زعم بعضهم أن الله تعالى قد ترك نبيه، بمعنى التخلي عنه، وزعم آخرون أنه قد أبغضه.

وإنما حذف مفعول ﴿قَلَىٰ﴾: لظهوره، دل عليه قوله تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾، وهو إيجاز لفظي، ومثله قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، ووجه ذكره مع التوديع دون القلي ما في معنى التوديع من حسن وأمل باللقاء، وما في معنى القلي من بغض وعدم رضى.

﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾: في هاتين الآيتين الكريمتين بشارتان عظيمتان لرسول الله ﷺ، قد بلغتا الدرجة العليا في السمو والرفعة.

أولاهما: أن الدار الآخرة وما أعده الله فيها من نعيم، خير لك من دار الدنيا التي أعطيناك فيها النبوة، والخلق الكريم.

ثانيتُهما: سوف يعطيك ربك من خيري الدنيا والآخرة، كل ما يسعدك ويرضيك، من نصر عظيم، وتمكين في الأرض، وإعلاء لكلمة الحق على يدك، وعلى أيدي أصحابك الصادقين، ومنازل عظمى في الآخرة كالمقام المحمود، والشفاعة، والوسيلة، وبذلك ترضى رضاء تاما بهذا العطاء.

فالمراد بالآخرة: الدار الآخرة التي تقابل الدار الأولى، وهي الحياة الدنيا.

وإنما قيد بقوله تعالى ﴿لَّكَ﴾: لأنها ليست خيرًا لكل أحد.

واللام في قوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ لام الابتداء، والمبتدأ محذوف، أي: ولأنت سوف يعطيك ربك.

وجيء بحرف الاستقبال - وهو السين - في ﴿وَلَسَوْفَ﴾: لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع.

وحذف المفعول الثاني في قوله: ﴿يُعْطِيكَ﴾: ليعم كل وجوه العطاء التي يحبها ﷺ من كمال النفس، وظهور الأمر، وإعلاء الدين.

والتعبير بقوله ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ المشتمل على فاء التعقيب: للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع، وأنه سيأتى إليه ﷺ في وقت قريب، وقد أنجز، سبحانه، وعده.

ثم ذكر عددا من نعم الله تعالى على نبيه ﷺ وهي:

أ- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾: الاستفهام هنا: للتقرير، واليتيم: هو من فقد أباه وهو صغير.

والمعنى: لقد كنت - أيها الرسول الكريم - يتيما، حيث مات أبوك وأنت في بطن أمك، فآواك الله تعالى بفضله وكرمه، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته، وسخر لك من يقوم على رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها.

ب- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾: المراد بالضلال هنا: الحيرة في الوصول إلى الحق، لأنه ﷺ قد نشأ في بيئة منحرفة في عقائدها وأخلاقها، لم تطمئن نفسه الكريمة إليها، إلا أنه كان حائرًا في الوصول إلى الدين الحق، فهداه الله تعالى إليه، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه، منَّة عظمى، ونعمة كبرى.

فوصف النبي ﷺ بالضال على هذا المعنى ليس فيه تقليل من شأنه، بل هذا رفع لمنزلته ومكانته حيث كان على غير علم فعلمه الله، ولم يكن مطلعا على الغيب، فأطلعه الله على ما يريد إطلاعه عليه.

ج- ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾: معنى العائل: الفقير الذي لا يستطيع الإنفاق على عائلته، ولا على نفسه لو لم تكن له عائلة.

أي: وقد كنتَ - أيها الرسول الكريم - فقيرا، حيث مات أبوك دون أن يترك لك مالا كثيرا، ثم أغناك الله تعالى بفضله وكرمه بأنواع من الغنى:

منها: غنى النفس، بأن منحك نفسا عفيفة قانعة بما أعطاك - سبحانه - من رزق.

ومنها: الغنى المادي عن الاحتياج إلى الناس، بما أجراه على يديك من الربح في التجارة، وبما وهبتك زوجك خديجة من مالها، وبما حصل لك من الغنائم والأنفال - بعد فرض القتال - فعشت غير محتاج إلى من ينفق عليك.

وبعد أن عدّد - سبحانه - هذه النعم لنبيه ﷺ أمره بشكرها، وأداء حقوقها، على النحو التالي:

أولًا: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾: القهر: التغلب على الغير والإذلال له.

والمعنى: إذا كان الأمر كما أخبرتك من أنك كنت يتيما فآويناك، وكنت ضالا فهديناك، وكنت فقيرا فأغنيناك، فتذكر هذه النعم، واشكر ربك عليها، ومن مظاهر هذا الشكر: مواساة اليتيم، وإكرامه والرفق به.

ولقد استجاب النبي ﷺ لما أمره ربه به، فكان يكرم الأيتام ويعطف عليهم، وحضّ أمته على ذلك في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار ﷺ بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئاً[1].

(١) رواه البخاري برقم ٥٣٠٤.

ثانيًا: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ المراد بالسائل: ما يشمل كل سائل عن مال، أو عن علم، أو عن غير ذلك من شئون الحياة.

بمعنى أن تفتح صدرك للسائل الذي يسألك العون، أو يسألك معرفة ما يجهله من علم فلا تزجره.

ثالثًا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ والتحديث بالشيء: الإخبار به، والإعلام عنه.

والمعنى: أن تُظهر نعمنا عليك ولا تسترها، وأَذِعْها بين الناس، وأْمُرْ أتباعك أن يفعلوا ذلك، دون رياء وتفاخر أو مباهاة، فإن ذكر النعم على سبيل الرياء والتفاخر والتطاول على الغير يبغضه الله تعالى، ويعاقب صاحبه عقابًا أليمًا.

فوائد ولطائف:

١- القسم بالضحى والليل فيه تبيين لأهمية هذين الوقتين في حياة الناس، ولكلٍّ منهما صلاة نافلة تخصه، لها فضلها وثوابها الجزيل.

٢- عظيم مقام النبي ﷺ عند ربه.

٣- فضل الله تعالى على نبيه ﷺ في إيوائه وهدايته وإغنائه.

٤- الإرشاد إلى مكارم الأخلاق والأعمال كالإحسان إلى اليتيم وإعطاء السائل المحتاج والتحدث بنعم الله تعالى وإظهارها.

٥- يلحظ كثرة الألفاظ المتقابلة في السورة (الضحى، والليل) (الآخرة، والأولى) (آوى، فلا تقهر) (عائلًا، فأغنى) (ضالًّا، فهدى).

٦- احتوت هذه السورة على قسم ووعد وتذكير وطلب، فالقسم يدل على أهمية الموضوع، والمقسم عليه ثلاثة أشياء، والوعد من العظيم نافذ

قطعًا وهو وعد بشيء عظيم جدًّا، والتذكير بمراحل عمر النبي الكريم الثلاث: النشأة وقبل البعثة وبعدها، والطلب لثلاثة أشياء: إكرام ذي الحاجة، وتكافل المجتمع، وسيادة الإيجابية، وهذه الثلاثة يكون بها قوام المجتمع الناجح.

٧- يُلحظ التوافق اللطيف والبديع في السورة بين المقسم عليه والمخبر عنه والمأمور به، فالمقسم عليه الأول متناسق مع الخبر الأول والمأمور به الأول، وهكذا الثاني والثالث، وفق منظومة الآيات (٣، ٦، ٩)، و(٤، ٧، ١٠) و (٥، ٨، ١١).

٨- من كمال السعادة أن يكون آخر الأحوال أفضل من أولها.

٩- من فوائد التذكير بالنعم تجدد شكرها والحرص على دوامها والعمل على زيادتها.

١٠- مشروعية إظهار النعمة وهي عادة أهل الكرم والفضل، بشرط الخلو من الرياء والمفاخرة، والحذر من الحساد وأهل الكيد، وفي الحديث قوله ﷺ: «إن الله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده»[1].

(١) رواه الترمذي، برقم ٢٨١٩، وهو صحيح، ويُنظر: الوافي في هدايات كلام الله الكافي، ص ٦٩٠ -٦٩٢.

تفسير سورة الشرح (٩٤)

تمهيد:

أسماؤها: سورة «الشرح»، وتسمى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، و«الانشراح».

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: ثماني آيات.

مقاصدها: بيان بعض نعم الله تعالى على نبيه ﷺ، وما ينبغي أن يقوم به من واجب الشكر ليزيده منها، وأن اليسر غالب العسر.

مناسبتها لما قبلها: تعد هذه السورة متممة ومكملة ومفصّلة لما ورد في سورة الضحى من ذكر نعم الله تعالى على نبيه ﷺ.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

من نعم الله على نبيه كما ورد في السورة الكريمة:

أولًا: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾: الاستفهام للتقرير، والمقصود به التذكير.

ونون العظمة في قوله تعالى: ﴿نَشْرَحْ﴾: تفيد عظمة النعمة، وفي ذلك إشارة إلى أن نعمة الشرح شيء كبير.

والمراد بشرح الصدر في السورة الكريمة: الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه من الكمالات، وإذهاب ما يصد عن الخير والهدى، وتنوير صدره ﷺ وجعله فسيحا رحيبا.

ويدخل فيه شق صدره ﷺ ليلة المعراج حيث تمت تزكيته وأودع فيه من الهدى والإيمان والمعرفة والفضائل ونحوها ما لم يعط لأحد سواه.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾: للتعليل، أي إن ما فعله الله تعالى برسوله ﷺ، إنما هو من أجل تكريمه وتشريفه ورفع منزلته.

وذَكَر الصدر ولم يذكر القلب: لأن الصدر هو محل الوسوسة ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، فإزالة تلك الوسوسة، وإبدالها بدواعي الخير، هي الشرح.

ثانيًا: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ والمراد بالوضع هنا: الإزالة والحط، والوزر: الحمل الثقيل، والمراد بوضع وزره عنه ﷺ: إزالة العقبات التي وضعها الكفار في طريق دعوته، وإعانته على تبليغ الرسالة على أكمل وجه.

ومعنى ﴿أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ أي: أثقله وأوهنه وأتعبه، وفي الآية تشبيه تمثيلي بديع[1]، والمراد هنا: أزلنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة، وعصمناك من الذنوب والآثام، وطهرناك من الأدناس، فقمت بأعباء الرسالة وبلغتها على أكمل وجه وأتمه.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٤١٠.

ثالثًا: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ بأن جعلناك رفيع الشأن، عظيم المنزلة والمكانة، ومن مظاهر ذلك: أننا جعلنا اسمك مقرونا باسم الله عند النطق بالشهادة، وفي الأذان، وفي الإقامة، وفي غير ذلك من العبادات، والتفضيل على جميع الرسل والأنبياء، وإعطاء الشفاعة العظمى.

رابعًا: وبالإضافة إلى هذه النعم الجليلة بين الله تعالى نعمة أخرى من جلائل النعم فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ فهذا وعد منه تعالى لرسوله ﷺ ولأتباعه بأن كل صعب يلين، وكل شديد يهون، وكل عسير يتيسر بالإيمان الصادق بقضاء الله تعالى وقدره، ولذا أكد - سبحانه - هاتين الآيتين، حتى ينزع الشك من صدر من تكاثرت عليه الهموم من المؤمنين بأن اليسر يعقب العسر لا محالة، والفرج يأتى بعد الضيق، فعليه أن يقابل المصائب بصبر جميل، وبأمل كبير في تيسير الله وفرجه ونصره.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ للإفصاح، و﴿مَعَ﴾: بمعنى بعد، والتعريف في ﴿ٱلْعُسْرِ﴾: لاستغراق أنواع العسر المعروفة للمخاطبين. من مرض وفقر، وغمٍّ وهمٍّ ونحو ذلك، والتنكير في قوله: ﴿يُسْرًا﴾ للتفخيم.

وإنما قال الله تعالى: ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ولم يقل بعد العسر يسرًا: للدلالة على أن اليسر سيأتي بعد العسر بدون زمن طويل، عند الصبر والأمل في فرج الله تعالى.

ويحتمل التعريف في ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ الثاني أن يكون للعهد، أي إن مع العسر المذكور سابقا يسرا جديدا، فيكون العسر واحدا واليسر اثنين، وقد ورد في الحديث: «لن يغلب عسر يسرين»[1].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٩٥٤١، وهو ضعيف، ورواه موقوفا عن عمر وعن علي الإمام مالك في الموطأ برقم ١٦٢١، والحاكم في المستدرك برقم ٣٩٤٩.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾: المراد بالفراغ هنا: الخلو من الأعمال التي تشغل الإنسان.

ومعنى النصب: التعب والاجتهاد في تحصيل المطلوب، وتقديم ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ للاختصاص، وحذف المفعول ليعم كل عمل.

والمعنى: فإذا فرغت يا محمد من عمل من الأعمال، فاجتهد في مزاولة عمل آخر من الأعمال التي تقربك من الله تعالى، كالصلاة، وقراءة القرآن الكريم، وفعل الخيرات، واجعل قصدك في جميع أعمالك وعباداتك، من أجل إرضاء ربك، لا من أجل شيء آخر.

فالمقصود بهاتين الآيتين: حث النبيِّ - عليه الصلاة والسلام - ومن سار على دربه على استمرار العمل الصالح، وعدم الانقطاع عنه، مع صدق النية لله تعالى والاتجاه إلى الله تعالى بالكلية، وفي هذا سعادة الدنيا والآخرة.

وهذا واقع الرسول ﷺ فقد سار على هذا النهج القويم، واستجاب لما أمره به ربه، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه، وعندما سئل عن سبب كثرة العبادة، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبك؟ قال: «أفلا أكون عبدا شكورا»[1]، وكان بفعله هذا منارة لأصحابه تضيء لهم الطريق وتبين لهم مفهوم هذا الهدي القويم فلم يكن للفراغ مكان في حياتهم، بل واصلوا الجهاد بالجهاد، وأعمال البر بمثلها.

اللهم اجعلنا ممن يعمرون أوقاتهم بالأعمال الطيبة الخالصة لوجهك الكريم.

---

(١) رواه البخاري برقم ١١٣٠، ومسلم برقم ٧٣٠٢.

فوائد ولطائف:

١- عظيم مكانة النبي محمد ﷺ عند الله تعالى حيث شرح صدره ووضع وزره ورفع ذِكره.

٢- استحباب الدعاء بشرح الصدر وتيسير الأمر، كما دعا نبي الله موسى، عليه السلام، بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦﴾ [طه].

٣- من صور رفع ذِكر النبي ﷺ اقتران اسمه باسم الله تعالى في الشهادتين، وهما ركن الإسلام الأول، وتذكران في الصلاة والأذان والإقامة، ولا يكاد الأذان ينقطع أبداً، فمع دوران الأرض تدخل أوقات الصلاة بتتابع متواصل.

٤- على الداعي إلى الله أن يحرص على الذكر الحسن بين الناس لما له من أثر كبير في تقبل دعوته والاجتماع حوله.

٥- الاستبشار بتحوّل حال العسر إلى اليسر، ووقوع الشدة علامة على قرب الفرج.

٦- حياة المسلم كلها عبادة وعمل ولا فراغ فيها، فإذا انتهى من عمل صالح شرع في آخر.

٧- لا مكان للكسل والفتور والضجر والملل في حياة المسلم، فهي عامرة بأنواع العبادات المختلفة والمتنوعة، وهذا من أعظم النعم.

تفسير سورة التين (٩٥)

تمهيد:

أسماؤها: «التين» وتسمى ﴿وَٱلتِّينِ﴾، كما تسمى ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾.

نزولها: هي من السور المكية، ويؤيد ذلك القسم بمكة في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

عدد آياتها: ثماني آيات.

فضلها: ورد في فضلها أن النبي ﷺ كان يكثر من قراءتها في صلاته، فعن البراء قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ فِي الْعِشَاءِ وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، أَوْ قِرَاءَةً»(١).

مقصدها: التنبيه إلى أن الله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، فيجب عليه أن يكون شاكرا لخالقه، مخلصا له العبادة والطاعة.

مناسبتها لما قبلها: ذكرت سورة الشرح كمال حال النبي الكريم ﷺ وعظمة مكانته عند الله، وذكرت هذه السورة مكانة الإنسان بين الخلق وأنه أفضلها وأتمها، وفي سورة الشرح ذكر أفضل الخلق، وفي هذه السورة ذكر أفضل الأماكن.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) رواه البخاري برقم ٧٦٩، ورواه مسلم بلفظ قريب برقم ٤٦٤.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

الواو للقسم والمقسم به:

(١) التين.

(٢) الزيتون.

والمراد من القسم بالتين والزيتون منابتهما، وهي بلاد الشام، فيكون القسم بهما إشارة إلى رسالة عيسى - عليه السلام -.

ويحتمل أن يراد بالقسم الثمرتان المعروفتان، فيكون المراد بالتين الذي يؤكل، وأقسم سبحانه به لأنه كثير المنافع، وقيل إنه كان ستر آدم في الجنة[1]. ويكون المراد بالزيتون الذي يعصر منه الزيت، وهو الشجرة المباركة وفيه منافع كثيرة.

ويرجِّحُ القولَ الأولَ ما بعده من القسم بالأماكن المباركة.

(٣) طور سينين: الطور: الجبل، والمراد به الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى - عليه السلام - ومعنى سينين، المبارك الحسن، ويسمى: سيناء.

(٤) البلد الأمين: المراد به مكة المكرمة، وسمي بالأمين لأن من دخله كان آمنا، وأقسم به لأنه من الأمكنة المباركة.

وجملة: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ وما عطف عليه جواب القسم.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١١١.

والمراد بالإنسان هنا: جنسه أي جنس الإنسان في أكمل صورة، وأحكم عقل، والتقويم: جعل الشيء على أحسن الوجوه التي ينبغي أن يكون عليها في التعديل والتركيب.

والمعنى: أقسم الله بالتين والزيتون وجبل سيناء ومكة البلد الأمين، أنه خلق الإنسان في أعدل قامة، وأجمل صورة، ومنحه بعد ذلك عقلا راجحا، وعلما واسعا، وقدرة وإرادة واختيارا لتحقيق ما يبتغيه في هذه الحياة، بمشيئة الله سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ معطوف على ما قبله وداخل في حيز القسم، وضمير الغائب يعود إلى الإنسان.

والمراد بالرد: تصيير الإنسان على حالة غير الحالة التي كان عليها.

و﴿أَسْفَلَ﴾: أفعل تفضيل، أي: أشد سفالة مما كان يتوقع.

والمعنى: ألقينا به في النار، بسبب استحبابه العمى على الهدى، والكفر على الإيمان، وهم الكفار، والفاسقون.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء متصل، فالمؤمنون لا يردون أسفل سافلين يوم القيامة، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾: الخطاب: للإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم.

و﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ، وخبره جملة ﴿يُكَذِّبُكَ﴾. والاستفهام هنا: للإنكار والتعجيب من هذا الإنسان.

المعنى: فأي شيء يحملك - أيها الإنسان - على التكذيب بالدين وبالبعث وبالجزاء، بعد أن خلقناك في أحسن تقويم، وبعد أن أقمنا لك

الأدلة على أن دين الإسلام هو الدين الحق، وعلى أن رسولنا صادق فيما يبلغك عن ربه، عز وجل؟

والمقصود بقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ : أي: لاعذر لك في التكذيب بالحق، لان كل عاقل يجب أن يخلص العبادة والطاعة لله تعالى، كما يجب عليه أن يصدق الرسول ﷺ فيما اخبر عنه ولا يكذبه.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ الاستفهام للتقرير إذ الجملة الكريمة تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان في أحسن تقويم.

فوائد ولطائف:

١- القسم في أول هذه السورة بالرسالات الثلاث من خلال أبرز ما في مواطنها، فيه تأكيد لمزية هذه الأماكن المباركة.

٢- التين والزيتون من الثمار الطيبة كثيرة الفوائد والمنافع، فالتين غذاء ودواء وفاكهة، ويؤكل كل ما فيه ولا نوى له، كما يؤكل رطبا ومجففا، والزيتون كثير الفوائد، ومن بركته الانتفاع بالثمرة والنواة والأوراق والساق والزيت، فكل ما ينتج من هذه الشجرة المباركة يُنتفع به.

٣- على الإنسان أن يشكر النعمة العظمى عليه بجعله المخلوق في أحسن تقويم.

٤- شمول حسن التقويم للجانبين الحسي والمعنوي للإنسان.

٥- من الناس من لا يستحق النعمة فيكفرها فيكون من أسوأ الخلق.

٦- فضل الإيمان والعمل الصالح على الإنسان كبير.

٧- يحتمل قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ الهَرم والكِبَر، ويكون الاستثناء منه بأن الأجر ثابت لمن انقطع عن عمل الصالحات بسبب

كِبَرِ سنّه وعجزه عن فعلها، وهذا من عظيم فضل الله سبحانه وتعالى على عباده.

٨- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ...﴾ ثم انتهى إلى قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»[1].

(١) رواه أبو داود برقم ٨٨٧، والترمذي برقم ٣٣٤٧، وهو ضعيف.

تفسير سورة العلق (٩٦)

تمهيد:

أسماؤها: «العلق»، وتسمى سورة ﴿اقْرَأْ﴾، و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

نزولها: هي من السور المكية، والآيات الخمس الأولى منها أول ما نزل من القرآن، كما ثبت في الحديث الصحيح[1].

عدد آياتها: ثمان عشرة في العدد الشامي، وتسع عشرة في العدد الكوفي والبصري، وعشرون للباقين.

مقاصدها:

- التنويه بشأن القراءة والكتابة، والعلم والتعلم.
- بيان عظيم قدرة الله تعالى في الخلق.
- التهديد والوعيد لكل من يقف أمام دعوة الإسلام التي جاء بها النبي ﷺ من عند ربه - عز وجل -.
- إعلام النبي ﷺ بأن الله تعالى مطلع على مكر الكافرين وحقدهم، وأنه - سبحانه - ناصره عليهم، وأمره ﷺ بأن يمضي في طريقه دون أن يلتفت إلى مكرهم أو سفاهاتهم.

مناسبتها لما قبلها: ورد في سورة التين خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفي هذه السورة إرشاد له كيف يزداد ارتقاء وحسنا في الطريق القويم، وذلك بالعلم الموصل لأعلى الدرجات في الدارين.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣، ومسلم برقم ٤٢٢.

سبب نزولها: عن أبي هريرة قال: «قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجههُ بين أظهركم، فقيل: نعم، فقالَ: واللاتِ والعُزَّى لئن رأيته يفعلُ ذلك لأطَأَنَّ على رقبته أو لأُعَفِّرَنَّ وجههُ في التراب، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبتِه، فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إلا وهو يَنْكِصُ على عَقِبيْهِ ويَتَّقِي بِيَدَيْه، قال: فقيل له: ما لَكَ؟ فقال: إنَّ بَيْنِي وبَيْنَهُ لَخَنْدَقاً من نَارٍ وهَوْلاً وأجْنِحَة، فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطفَتْهُ الملائكة عُضْواً عُضْواً»، قال: فَأنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ - لا نَدْرِي في حَدِيث أبي هُرَيْرَة أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ - ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة»[1].

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾

افتتحت السورة الكريمة بالأمر بالقراءة مع أن النبي ﷺ كان أُمّيّاً لتهيئة ذهنه لما سيلقى عليه ﷺ من وحي .

(١) رواه مسلم برقم ٧٢٤٣، وقائل عبارة: «لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه» أبو حازم سلمان الأشجعي الراوي عن أبي هريرة، وهي تدلّ على دقّة المحدّثين لأن أبا هريرة لم يشهد الحادثة فإسلامه متأخر، ويكون علمه بهذه الحادثة لا عن شهود لها بل نقلاً عمن أخبره (البحر المحيط الثجاج ٤٣/ ٣٨٩).

وجاء قوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ بوصف الربوبية: إشارة إلى كمال الرأفة والرحمة والرعاية بشأن المربوب، ولتكون القراءة باسم الرب لا باسم غيره، فهو - سبحانه - الذي خلق الأشياء جميعها، والذي لا يعجزه أن يجعلك قارئا.

ووصف - سبحانه - ذاته بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: لبيان أن الخلق هو أعظم النعم، وعليه تترتب جميع النعم الأخرى.

وخص - سبحانه - خلق الإنسان بالذكر: لأنه أشرف المخلوقات ولأن فيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه.

ومعنى «العلق»: الدم الجامد، وهو من أطوار خلق الإنسان التي فُصلت في آيات أُخر.

وفي هذه الآية بيان قدرة الله تعالى على أن يخلق من الدم الجامد إنسانا في أحسن تقويم.

وكرر سبحانه الأمر بالقراءة في قوله ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ لأنه من الملكات التي لا ترسخ في النفس إلا بالتكرار والإعادة مرة فمرة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ أي: علم الإنسان الكتابة بالقلم، فاستطاع عن طريقها أن يقيد العلوم والمعارف، وغير ذلك من الفوئد العظيمة.

والمقصود من تخصيص هذه الصفة بالذكر: الإشارة إلى قدرة الله تعالى فإن من قدر على تعليم غيرك القراءة والكتابة بالقلم، قادر على تعليمك ما شاء من العلوم وأنت لا تعرف الكتابة، ليكون ذلك من معجزاتك الدالة على صدقك، وكما قيل:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة[1].

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

أي: علم الإنسان بالقلم وبدونه ما لم يكن يعلمه من الأمور على اختلافها، والمراد بالإنسان في هذه الآيات: جنسه.

وقد احتوت هذه الآيات الخمس التي هي أول ما نزل من القرآن على جملة من الفضائل والمكارم، بدءا من الأمر بالقراءة التي هي مفتاح العلم، إلى الحث على أن يكون العلم منضبطًا ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، إلى التعريف بالخالق العظيم للكون ولهذا الإنسان المكرم بالعلم من ربه ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾، وفيها توجيه إلى الاستزادة من العلم والإيمان، والبحث عن بدائع الخلق وسنن الحياة، والتدرج في الوصول إلى المعلومة وإزالة أي عوائق أو حواجز في سبيل المعرفة والعلم.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التي تحمل الإنسان على الطغيان، فقال:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾: ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر لمن تكبر وتمرد، ويصح أن تكون هنا بمعنى حقا.

والمراد بالإنسان هنا: أبو جهل وهذا لا يمنع عموم حكمها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومعنى ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾: من الطغيان، وهو تجاوز الحق في التكبر والتمرد، فمن طبع الإنسان أن يطغى إذا ما كثرت النعم بين يديه.

(١) الشطر الأول من البيت ١٣٩ من قصيدة البردة للبوصيري، (موسوعة الشعر العربي، ١/ ١٨٨).

والضمير في قوله ﴿رَّءَاهُ﴾: يعود على الإنسان الطاغي، والرؤية بمعنى: العلم.

والمعنى: حقا إن الإنسان ليتعاظم ويتكبر ويتمرد على الحق إذا رأى نفسه ذا غنى في الجاه والسلطان والمال والعشيرة إلا من عصمه الله تعالى من هذا الخلُق الذميم، فقام بشكره سبحانه على نعمه، واستعملها في طاعته.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾: الرّجعى: مصدر بمعنى الرجوع، والمقصود بهذه الآية: تهديد ووعيد لهذا الطاغي وأمثاله فإن إلى الله وحده مرجعهم، وسيشاهدون بأعينهم ما أعدّه لهم من عذاب مهين، وسيعلمون حق العلم أن ما يتعاظمون به من مال، لن يغني عنهم من عذاب الله شيئا يوم القيامة.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾: الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتَ﴾: للتعجيب، والمراد بالعبد: رسول الله ﷺ وتنكيره: للتفخيم والتعظيم.

والمعنى: أرأيت وعلمت - أيها الرسول الكريم - حالا أعجب وأشنع من حال هذا الطاغي الأحمق، الذي ينهاك عن إقامة العبادة لربك.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾: أي: أرأيت - أيها الرسول الكريم - إن سلك هذا الإنسان الطاغي طريق الهدى، فاتبع الحق، ودعا إلى البر والتقوى، أليس ذلك خيراً له من الإصرار على الكفر، ومن نهيه إياك عن الصلاة؟ فجواب الشرط محذوف للعلم به، تقديره: إن كان على الهدى، ألم يعلم بأن الله يرى، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني.

فالمراد بالهدى: اهتداؤه إلى الصراط المستقيم، والمراد بالتقوى: صيانةُ نفسه عن كل ما يغضب الله تعالى، وأمرُه غيرَه بذلك.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾: أي: أرأيت - أيها الرسول الكريم - إن تولى هذا الكافر وأعرض عما تدعوه إليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين، أرأيت إن فعل ذلك، أفلا يدرك بعقله أن الله تعالى خالق هذا الكون يراه، وسيجازيه بما يستحقه من عذاب مهين؟

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة التي تكرر فيها لفظ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ ثلاث مرات: تسرية وتسلية النبي ﷺ وإنكار حال هذا الإنسان الطاغي، الذي قدّم الشرك على الإيمان وتهديده بسوء المصير، لأن الله تعالى مطلع على أعماله القبيحة وسيعاقبه العقاب الأكبر.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾: معنى ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر، والسفع: الجذب بشدة على سبيل الإذلال والإهانة، والناصية: الشعر الذي يكون في مقدمة الرأس، والتعبير بقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: للإشعار بالأخذ الشديد، والإذلال المهين.

والخاطئ: هو الذي يأتي الذنب متعمدا، وإنما وصفت الناصية بأنها خاطئة: مبالغة في تعمد هذا الإنسان لارتكاب المنكر، ولأن الناصية هي مظهر الغرور والكبرياء.

والمعنى: كلا ليس الأمر كما فعل هذا الإنسان الطاغية، ولئن لم يقلع عما هو فيه من كفر وغرور، لَنُذلَّنّه إذلالا شديدا في الدنيا والآخرة، ولَنسحبنّه إلى النار من ناصيته التي طالما كذبت بالحق، وتعمدت ارتكاب المنكر.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾: الأمر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ﴾: للتعجيز.

والنادي: المكان الذي يجتمع فيه الناس للحديث والسمر، وسمي بذلك: لأن الناس يتنادون إليه ويجتمعون للحديث فيه، والزبانية: جمع زَبنيٍّ، مأخوذ من الزَّبن، وهو الدفع الشديد.

والمعنى: فليدع هذا الفاجر المغرور أهله وعشيرته لإيذاء النبي ﷺ، ولمنعه من تأدية الواجبات، إن قدروا على ذلك، فنحن من جانبنا سندع الزبانية، وهم الملائكة نسلطهم عليه فلا قِبَل له ولا لقومه بهم، وما دام الأمر كذلك فامض في طريقك وواظب على أداء الصلاة في المكان الذي تختاره، ولا تطع هذا الكافر، واسجد لربك وتقرب إليه تعالى بالعبادة والطاعة، وداوم على ذلك.

والمقصود من الآيات السابقة: التهكم بهذا الإنسان المغرور، والاستخفاف به وبقومه، ووعيده إن استمر في فعلته، وحض النبي ﷺ على المداومة على الصلاة، وعدم المبالاة بنهي الناهين عن ذلك، فإنهم أحقر من أن يفعلوا شيئًا.

فوائد ولطائف:

١- التنويه بأهمية القراءة وفوائدها، ففعل الأمر ﴿اقْرَأْ﴾ أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، والقراءة مفتاح للتعلم والمعرفة.

٢- المخاطبة في فعل الأمر ﴿اقْرَأْ﴾ للمفرد، ليستشعر كل قارئ له أنه المقصود بالأمر، فيجد فيه ولا يقصر، ولا يتأخر.

٣- حُذف مفعول ﴿اقْرَأْ﴾ لقصد العموم أي اقرأ كل ما يمكن أن يقرأ فالعلم كله خير، والإسلام دين العلم، ولا يُحجَر على المسلم أن يقرأ ويتعلم ويُطالع في كل العلوم والتخصصات، مع مراعاة الأولويات، والانتباه إلى ما يوجد في كتب وعلوم من انحراف أو تحريف.

٤- الحث على البدء بذكر اسم الله تعالى في القراءة وكل أمر ذي بال، وعلى الاستعانة به سبحانه في القراءة والتعليم وسائر الأحوال.

٥- تقييد القراءة أن تكون ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ توجيه للبحث عن القراءة النافعة المفيدة، التي تقرب إلى الله، وتعين على الالتزام بأمره وحكمه.

٦- ذكر الخلق بعد الأمر بالقراءة فيه دعوة إلى التعرف على الخالق وبديع صنعه، فالتأمل في الخلق ومعرفة دقائقه من أوسع الأبواب إلى الإيمان والعلم بقدرة الخالق.

٧- وصف الرب بأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بعد الأمر بالقراءة، فيه توضيح أن الخالق هو من يأمر وينهى ويحكم في أمور عباده.

٨- في ذكر القلم بعد الأمر بالقراءة إشارة إلى أهمية تدوين العلوم وتثبيتها ودراستها والزيادة عليها.

٩- تخصيص الإنسان بالنص على خلقه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فيه تشريف له ورفع لدرجته بين سائر الخلق، وهذا مدعاة له أن ينتبه لمقامه ومنزلته في هذا الكون.

١٠- الاقتصار على ذكر مرحلة العلق في هذه السورة فيه إشارة إلى أن الإنسان من شأنه في حياته التعلق بما يحب ويهوى، فيتعلق بحب المكان والمال والإحسان وغيرها من الأمور، وفيه إشارة خفية إلى البعد عن هذا السلوك.

١١- وصفُ الله تعالى بِـ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ إشارة إلى عظيم كرم الله تعالى على الإنسان بتعليمه وخلقه وهدايته، فلا حدود لكرمه وعطائه.

١٢- في الآيات الخمس الأولى من السورة - وهي أول ما نزل -أصول الصفات الإلهية، فصفة الرب تتضمن الوجود والوحدانية، وصفة الخلق والتعليم تتضمنان صفات الأفعال، وصفة الأكرم تتضمن صفات الكمال والتنزيه[1].

(١) التفسير الوسيط، ص ٤٥٤١، والوافي في هدايات كلام الله الكافي، ص ٧٥٠.

١٣- الاقتصار في أول ما نزل على خمس آيات دليل على رأفة الله بعباده ولطفه بهم، وتدرجٌ في التعليم والتوجيه والدعوة إلى الخير، وتعليم للدعاة أن يراعوا أحوال المدعوّين ويترفقوا بهم.

١٤- الانتقال من الحديث عن العلم إلى الحديث عن الطغيان يشير إلى أن الجهل من أعظم أسباب الطغيان.

١٥- من طبع الإنسان التعالي والغرور حين يشعر باستغنائه عن غيره.

١٦- حال كثير من الناس الطغيان عند وجود المال والجاه.

١٧- حاجة الإنسان في كل أحواله إلى رعاية الله تعالى له، وظنُّ بعضِ الناس إمكانهم الاستغناء عن الله جهلٌ ووهمٌ وغرورٌ.

١٨- أهمية الصلاة في هذا الدين، فهي صلة مباشرة بين العبد وربه، وهي من أوائل ما شرع فيه، وثبتت بصورتها النهائية ومواقيتها ليلة المعراج.

١٩- مكانة النبي ﷺ وعلو منزلته عند ربه، حيث لم يمكِّن سبحانه الكافرَ من إيذائه ومنعِه من الصلاة، وهدّده بالزبانية إن تمادى ولم يرعوِ ويتوقف عن إيذاء النبي ﷺ، ومن الجدير التنبيهُ إليه هنا أن الله تعالى لم يوقف إيذاء النبي ﷺ وأصحابَه مطلقا فقد حصل إيذاء له ولهم في مرات عديدة، فلكل حالة خصوصيتها وحكمها.

٢٠- من صفات أهل الفساد معاداة أهل الفضل.

٢١- اليقين بقدرة الله على الانتقام من الطغاة متى شاء.

٢٢- مقابلة التهديد والرد عليه بمثله أو بأعظم منه، بما يناسب المقام ويردع المتمادي في باطله، فإن كثيرا من الناس إذا لم يعاملوا بمثل هذا تمادَوا وظنوا عدم الرد ضعفا وهوانا لا إعراضا وترفعا عن الخوض في باطلهم، فيكون الرد ضرورة لرفع الأذى وكف الإساءة.

٢٣- نسبة التكذيب إلى الناصية لأنها مركز التوجيه في الدماغ.

٢٤- من عادة الناس الاستعانة ببعضهم وأتباعهم لتأكيد موقف أو مواجهة خصم.

٢٥- يلحظ ما في السورة من تكرار ألفاظ ثلاث مرات مثل: ﴿رَبِّكَ، ٱلْإِنسَٰنَ، كَلَّآ، أَرَءَيْتَ﴾، أو مرتين مثل: ﴿ٱقْرَأْ، خَلَقَ، عَلَّمَ، يَعْلَمْ، نَاصِيَةٍ﴾.

٢٦- بدأت السورة بأمر وختمت بأمرين، ومجموع هذه الأوامر الثلاثة خلاصة الدين، وهي مراحل تسلم الواحدة منها للأخرى: اقرأ وتعلم لتعبُد بالسجود وغيره لتقترب بذلك من خالقك ومولاك.

٢٧- السجود في ظاهره خفض لأعلى ما في جسم الإنسان وأكرم ما فيه بوضعه على الأرض وجعله في مستوى القدم، وفي حقيقته ومآله ارتفاع وسموّ وقرب من الله تعالى، وخلاصته: انخفض لترتفع، وتواضع وتطامن ليقبَل دعاؤك، فإن: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[1].

٢٨- نزل المقطع الأول من السورة مع بداية الدعوة، وتأخر نزول المقطع الثاني منها إلى ما بعد الجهر بالدعوة، ومع هذا الفاصل الزمني بين نزول مقطعيها فإنّ آياتها مترابطة في معناها ومنسجمة في محتواها وتناسق ألفاظها، فسبحان من هذا كلامه.

(١) رواه مسلم برقم ١١١١.

تفسير سورة القدر (٩٧)

تمهيد:

أسماؤها: سورة ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ وتسمى سورة ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

نزولها: هي مكية على القول الراجح عند كثير من المفسرين، وقيل إنها مدنية لتضمنها الترغيب في قيام ليلة القدر وإنما كان ذلك بعد فرض الصيام بعد الهجرة.

عدد آياتها: خمس آيات، عند الجمهور، وست في العدد المكي والشامي.

مقاصدها: التنويه بشأن القرآن، والإعلاء من قدره، وبيان فضل الليلة التي نزل فيها، وتحريض المسلمين على إحيائها بالعبادة والطاعة لله رب العالمين.

مناسبتها لما قبلها: بدأت سورة العلق بالأمر بالقراءة، وبيّنت هذه السورة ما الذي يُقرأ، وختمت سورة العلق بالأمر بالعبادة، وبيّنت هذه السورة أحد مواطن العبادة، وكان صدر سورة العلق أول ما نزل، وبيّنت هذه السورة متى كان هذا البدء للنزول.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

افتتحت السورة بأداة التأكيد (إن) المتصل بها ضمير الجمع، لتبيين عظمة الأمر المتحدث عنه وأهميته، والضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعود إلى القرآن، وإنما جاء بضميره دون اسمه الظاهر، للإيذان بشهرة أمره، والتنويه بشأنه.

والمراد بإنزاله: نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، أو ابتداء نزوله إلى الأرض.

ومعنى ﴿ٱلْقَدْرِ﴾: الشرف والعظمة، وسميت هذه الليلة بذلك، لعظم قدرها وشرفها، يدل على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ أي: وما الذي يدريك بمقدار عظمتها وعلو قدرها، إن الذي يعلم مقدار شرفها هو الله، وهذه هي الليلة التي قال الله تعالى في شأنها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وهي من ليالي شهر رمضان، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثم ذكرت الآيات مزايا ليلة القدر، وهي:

(١) أنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ أي: ليلة القدر أفضل من ألف شهر لا يوجد فيها ليلةُ قدرٍ، بسبب ما أنزل فيها من قرآن كريم لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبسبب أن العبادة فيها أكثر ثوابًا، وأعظم فضلًا من العبادة في أشهر كثيرة؛ قال ﷺ «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه»[1].

(٢) ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ المراد بالروح هنا جبريل عليه السلام، وإنما خص جبريل بعد ذكر الملائكة، من باب ذكر الخاص بعد العام، لمزيد الفضل، واختصاصه بأمور لا يشاركه فيها غيره.

(١) رواه البخاري برقم ١٩٠١.

والمعنى: أن الملائكة - وفي مقدمتهم الروح الأمين جبريل - عليه السلام - ينزلون في ليلة القدر أفواجا إلى الأرض، بأمره تعالى وإذنه، من أجل نشر البركات التي تحفهم، فنزولهم في تلك الليلة يدل على شرفها، وعلى رحمة الله تعالى بعباده.

(٣) ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾: ﴿سَلَٰمٌ﴾ مصدر بمعنى السلامة، وهو خبر مقدم، و﴿هِيَ﴾ مبتدأ مؤخر، وإنما قدم الخبر تعجيلا للمسرّة، وانما أخبر عن هذه الليلة بالمصدر على سبيل المبالغة، والمراد بمطلع الفجر: طلوعه وبزوغه.

والمعنى: أن ليلة القدر يظلها ويشملها السلام المستمر والأمان الدائم لكل مؤمن يحييها بذكر الله تعالى إلى أن يطلع الفجر، وتُسلّم فيها الملائكة على العابدين القائمين الذاكرين.

أما وقت هذه الليلة فالذي عليه عدد من أهل العلم، أنها ليلة سبع وعشرين، وعند كثيرين هي إحدى الليالي الوتر من العشر الأواخر، أو من السبع الأواخر، وإنما أخفاها - سبحانه - بين ليالي شهر رمضان، لنجتهد في العمل والعبادة طمعا في إدراكها.

فوائد ولطائف:

١- تعظيم شأن القرآن الكريم بورود ضميره ولم يسبق له ذِكر، لشهرته وشرفه، والتعبير عن نزوله بضمير الجمع ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وتأكيد نزوله بأداة التأكيد (إن) مع دخول ضمير الجمع عليها.

٢- خص الله تعالى هذه الأمة بليلة القدر تكريمًا لها وتعويضا عن قصر أعمارها مقارنة بالأمم السابقة.

٣- الألف شهر تساوي ثلاثًا وثمانين سنة وثلاثة أشهر، وإنما ذكرت بالشهور دون السنوات تشجيعًا وحثًّا وترغيبًا في قيامها.

٤- لليلة القدر منزلة عظيمة ومزايا عديدة.

٥- على المرء المسلم اغتنام الأوقات المباركة بالإكثار من العمل الصالح.

٦- يتطلب الحصول على الشيء النفيس اجتهادًا كبيرًا لتحقيقه ورغبةً عظيمةً فيه، ومن لم يعرف قدره تركَه.

٧- مما يُستأنس به لترجيح أن ليلة القدر هي ليلة السابع والعشرين، أن عدد كلمات السورة ثلاثون، والضمير المنفصل الدال عليها ﴿هِيَ﴾ رقمه سبع وعشرون بين كلمات السورة، وأن مجموع حروف عبارة ﴿لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ تسع، ووردت في السورة ثلاث مرات، وحاصل ضرب العددينِ: سبع وعشرون[1].

٨- من حِكَم عدم تحديد ليلة القدر بدليل قاطع؛ الاجتهاد في العبادة والطاعة للحصول على ثوابها الجزيل.

٩- اجتمع في ليلة القدر التي ابتدأ فيها نزول القرآن، شرف الزمان والمكان والنازل والمنزل عليه والمنزل به.

١٠- على الأمة التي أكرمها الله بليلة القدر أن تسعى وتبذل الجهد لتكون أمة ذات قدر.

١١- من حِكَم كون ليلة القدر في العشر الأواخر أن كثيرًا من الصائمين يعرض لهم الكسل والفتور وقلة الهمة مع اقتراب أيام الشهر من الانقضاء، فتأتي ليلة القدر فيها لترفع الهمم وتذكي العزائم وتزيد من الإقبال على الطاعة والعبادة.

١٢- في نزول الملائكة ليلة القدر مجموعة من العبر والحِكَم منها؛ الاطلاع على أصناف من العبادة لا توجد في السماء كالصدقة والتوبة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ١٣٦.

تفسير سورة البينة (٩٨)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، وتسمى سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، و«المُنفكِّين»، و﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾، و﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾، و﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

نزولها: هي من السور المدنية على القول الراجح، لحديثها عن أهل الكتاب، وعن تفرقهم في شأن دينهم، ولورود ذكر الزكاة فيها.

عدد آياتها: ثماني آيات عند الجمهور، وتسع آيات في العدد الشامي والبصري.

فضلها: ورد في فضلها أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قال: وسمّاني لك؟ قال: نعم، فبكى»[1].

مقاصدها: توبيخ أهل الكتاب والمشركين، على إصرارهم على ضلالهم من بعد أن تبين لهم الحق، والتعجيب من تناقض أحوالهم، وبيان أن كفرهم لم يكن بسبب جهلهم، وإنما بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للنبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية، وأن المؤمنين هم خير البرية.

مناسبتها لما قبلها: ورد في السورتين ذكر القرآن، وامتداحه وبيان عظمته ودوره في الهداية، وورد فيهما الحث على العبادة وطاعة الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٨٠٩، ومسلم برقم ٧٩٩.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾.

معنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يقال: فككت الشيء فانفك إذا افترق بمعنى انفصل.

و﴿الْبَيِّنَةُ﴾: الحجة الظاهرة، والمراد بها هنا: رسول الله ﷺ.

وانما قدم الله تعالى ذكر أهل الكتاب في البيان، لأن كفرهم أشنع وأقبح، بحكم معرفتهم أوصاف النبي ﷺ.

والتعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصارى، لبيان سوء فعلهم لمعرفتهم أن رسولا كريما قد أرسله الله تعالى لهدايتهم، ومع ذلك كفروا.

والمعنى: إن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركين، بقوا متمسكين بدينهم ولم يتركوه حتى جاءهم رسول كريم، مرسل من عند الله تعالى لكي يقرأ على مسامعهم صحفًا من القرآن الكريم، مطهرة، أي: منزهة عن الشرك وهذه الصحف فيها توجيهات مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب ناطقة بالحق والصدق والهداية، فلما جاءهم هذا الرسول وهو محمد ﷺ تفرقوا فآمن بعض منهم وكفر به آخرون، وما كان هذا التفرق منهم وهذا الاختلاف في شأن نبوته إلا من بعد أن جاءهم بما يدل على صدقه، فلم يكن كفرهم وإعراضهم عن جهل بل عن حسد وحقد وعناد.

وفي ذلك تسلية له ﷺ عما أصابه من هؤلاء الجاحدين فكأنه يقول له: لا تحزن يا محمد لإعراضهم فإنه لم يكن عن جهل، وإنما عن عناد وحسد لك على ما آتاك الله من فضله.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾: الواو في قوله تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ للحال، فهذه الجملة حالية.

والمقصود منها بيان أن هؤلاء الضالين، قد بلغوا النهاية في قبح الأفعال، وفي فساد العقول، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى، في حال أنهم لم يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم.

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ من الحنف، وهو الميل من الدين الباطل إلى الدين الحق.

والمعنى: إن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا في شأن الحق، والحال، أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله تعالى وحده، مخلصين له الطاعة، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مؤمنين بجميع الرسل بدون تفرقة بينهم، إذ ملتهم جميعا واحدة، ولم يؤمروا - أيضاً - إلا بإقامة الصلاة في أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين، وبإيتاء الزكاة التي تطهرهم وتزكيهم، وَذلِكَ الذي أمرناهم به من إخلاص العبادة لنا، ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دين الملة المستقيمة الحقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾: معنى لفظ ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ من البرَى وهو التراب، يقال: فلان براه الله تعالى يَبْرُوه بَرْوًا، أي: خلقه من تراب، ويصح أن تكون ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾

مخففة من البريئة بالهمز، وهي قراءة نافع وابن ذكوان عن ابن عامر، ومعنى برأه: خلقه.

والمعنى: إن الذين أصروا على كفرهم، من اليهود والنصارى، ومن المشركين مع علمهم بالحق،مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أي: إنهم شر المخلوقات التي خلقها الله - تعالى، لإصرارهم على الكفر والإشراك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾: المعنى: إن الذين جمعوا مع الإيمان الأعمال الصالحة هم خير المخلوقات التي خلقها الله تعالى ولهم جزاؤهم الطيب عند ربهم ومالك أمرهم، جنات يقيمون فيها إقامة دائمة، تجري من تحت أشجارها الأنهار،خالدين في تلك الجنات خلودا أبديا، فقد قبل الله -تعالى - منهم أعمالهم ورضيها عنده، وفرحوا هم ورضوا بما أعطاهم من خير عميم، هذا العطاء كائن وثابت لمن خاف مقام ربه.

فوائد ولطائف:

١- الأصل في العلم أن يقود إلى الخير والاجتماع لا إلى التفرق والاختلاف.

٢- العناد والحسد من أكثر أسباب البعد عن الحق.

٣- بيان ما كان عليه الناس - من مشركين وأهل كتاب - وقت بعثة النبي ﷺ من ضلال بعيد وتمسك بالباطل.

٤- ذم التفرق والاختلاف بعد وضوح الحق وبيانه.

٥- العجب من حال أهل الكتاب والمشركين تمسكهم بدينهم الباطل وعدم الحياد عنه والاستمرار على ذلك، فإذا كان هذا حال أهل الضلال فحريٌّ بالمؤمنين حقا أن يتمسكوا بدينهم ولا يتنازلوا عن ثوابته الحقة.

٦- حاجة الناس إلى من يبين لهم الحق والصواب.

٧- منزلة القرآن الكريم فهو صحف مطهرة من الزيادة والتغيير ومن الأدناس والرجز، وفيه بيان الحق والخير والدعوة إلى كل ما يُصلح حياة الخلق.

٨- الإشارة إلى أدب التطهر عند مس المصحف فهو صحف مطهرة، يليق بمن يمسها أن يكون متطهرًا متوضئًا.

٩- عبادة الصلاة والزكاة موجودتان في الشرائع السابقة.

١٠- الإشارة إلى أن عقوبة العالم أشد من غيره، حيث قدم أهل الكتاب على المشركين عند ذكر أنهم في نار جهنم.

١١- أعظم النعم للمؤمن الوصول إلى رضوان الله تعالى.

١٢- تقديم رضوان الله تعالى على رضوان أهل الجنة لأنه أصل له وسبب لحصوله.

١٣- أكّدت السورة خلود أهل الجنة فيها بثلاثة ألفاظ: ﴿عَدْنٍ، خَٰلِدِينَ، أَبَدًا﴾، وفي المقابل أكدت خلود أهل النار فيها بلفظ واحد فقط: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وذلك لأن من كان في النعيم يحتاج إلى تأكيد بقائه فيه بخلاف من كان في الجحيم والعذاب.

١٤- خشية الله تعالى مفتاح للخير كلِّه.

تفسير سورة الزلزلة (٩٩)

تمهيد:

أسماؤها: «الزلزلة»، وتسمى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، و«الزلزال»، و﴿زُلْزِلَتِ﴾.

نزولها: الراجح أنها من السور المكية، لتضمنها الحديث عن أهوال يوم القيامة، شأن السور المكية، وقيل: إنها مدنية، ونسبه بعضهم إلى الجمهور.

عدد آياتها: ثماني آيات في العدد الكوفي والمدني الأول، وتسع آيات في الباقي.

فضلها: ورد فيه قوله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلت له بنصف القرآن»، وفي حديث آخر أنها تعدل ربع القرآن(١)، وكلاهما ضعيف، وورد أن النبي ﷺ قرأها في صلاة الصبح في الركعتين كلتيهما(٢).

مقاصدها: إثبات أن يوم القيامة حق، وبيان ما اشتمل عليه من أهوال، وتأكيد أن كل إنسان سيجازى على حسب عمله في الدنيا.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة البينة ببيان مصير فريقي الكافرين والمؤمنين، وبدأت هذه السورة ببيان الوقت الذي يكون فيه هذا الجزاء، فهي مكملة لمضمون ما قبلها.

---

(١) الحديثان رواهما الترمذي برقم ٢٨٩٣ و٢٨٩٥، وروى الثاني منهما أحمد برقم ١٢٤٨٨، وهما ضعيفان.

(٢) رواه أبو داود برقم ٨١٦، وهو حسن، وقال الراوي: «فلا أدري أنسي أم قرأ ذلك عمدًا» لأن المعتاد من قراءته ﷺ أن يقرأ في الثانية غير ما قرأ به في الأولى، فهذا الفعل متردد بين المشروعية وعدمها، وحمله على المشروعية أولى (عون المعبود ٣/ ٢٣).

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

افتتح الله تعالى هذه السورة بظرف الزمان ﴿إِذَا﴾: لإفادة تحقق وقوع الشرط.

ومعنى ﴿زُلْزِلَتِ﴾: حركت تحريكًا شديدًا مع الاضطراب، والأثقال: جمع ثِقْل - بكسر فسكون - وهو المتاع الثقيل، والمراد بها هنا: ما يكون في جوف الأرض من أموات وكنوز وغير ذلك.

والمراد بالإنسان: جنسه فيشمل المؤمن والكافر.

و﴿مَا﴾: استفهام وهو مبتدأ، وخبره: ﴿لَهَا﴾، والمقصود به: التعجب مما حدث من أهوال.

والمعنى: أنه حين تقع الساعة يسأل الناسُ بعضُهم بعضا: ما الذي حدث للأرض، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد، عندئذ تحدّث الأرضُ الخلائقَ أخبارَها، بأن تشهد للطائع بأنه كان كذلك، وتشهد على الفاسق بأنه كان كذلك، عن أبى هريرة قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ثم قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها،

بأن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»[١]، وما كانت هذه الشهادة إلا بسبب أن ربك قد أمر الارض بذلك.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾: معنى ﴿يَصْدُرُ﴾: فعل مضارع من الصّدَر - بفتح الدال -، يقال: صدر الناس عن الوِرْد، إذا انصرفوا بعد حضورهم.

و﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شت، بمعنى: متفرق.

و«المثقال»: الشيء القليل، و«الذرة»: تطلق على الغبار الدقيق الذي يتطاير من التراب عند النفخ فيه، والمقصود: المبالغة في الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها، وحقر وزنها.

والمعنى: في هذا اليوم الذي تتزلزل فيه الأرض زلزلة شديدة، يخرج الناس من قبورهم متفرقين فزعين إلى موقف الحساب، لكي يبصروا جزاء أعمالهم الدنيوية. فمن كان منهم قد عمل في دنياه عملا صالحا ولو قليلا رأى ثماره الطيبة، ومن كان منهم قد عمل عملا سيئا في دنياه ولو قليلا رأى ثماره السيئة.

قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[٢]. وقال ﷺ: «يا عائشة إياك ومحقَّرات الذنوب، فإن لها من الله تعالى طالبًا»[٣]. وقال ﷺ: «إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلِكْنَه»[٤].

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٤٢٩، وأحمد في المسند برقم ٨٨٦٧، وهو ضعيف.
(٢) رواه البخاري برقم ١٤١٣، ورواه مسلم برقم ١٠١٦.
(٣) رواه أحمد في المسند برقم ٢٥١٧٧، وهو حسن.
(٤) رواه أحمد في المسند برقم ٣٨١٨، وهو حسن.

فوائد ولطائف:

١- من أحداث يوم القيامة الكبرى زلزال عظيم رهيب شامل للأرض، يؤدي إلى تغير معالمها، وخروج ما في باطنها، ومن هول هذا المشهد يتساءل الناس عنه.

٢- الأرض تشهد يوم القيامة بما عُمل عليها من أعمال، ولذا وجب على المرء اللبيب التيقظ والانتباه حتى تشهد الأرض له لا عليه.

٣- الجزاء يوم القيامة على الأعمال يشمل صغائرها ودقائقها ولو كانت بوزن الذرة.

٤- عظيم فضل الله تعالى على خلقه، حيث تسجَّل لهم الأعمال مهما عظمت أو قلّت، ثم يجزيهم عليها الجزاء الكبير، ويعفو ويصفح عن كثير.

٥- استشهد النبي ﷺ على عموم الخير والشر الواردين في هذه السورة لما سأله رجل عن الحُمُر بعد أن بيّن أن الخيل أجر وستر ووزر، فقال: «ما أنزل الله عليَّ فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾»[1]، فهذا توجيه منه ﷺ لتطبيق هاتين الآيتين على ما لم يرد فيه نص من الأعمال الصالحة وضدها، وسمّى ﷺ الآيتين آية.

(١) رواه البخاري برقم ٤٩٦٢، ومسلم برقم ٢٣٣٧.

تفسير سورة العاديات (١٠٠)

تمهيد:

أسماؤها: «العاديات»، وتسمى ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ بإثبات الواو.

نزولها: اختلف العلماء هل هي مكية أو مدنية وقد ساق كل منهم من الأدلة ما يدل على صحة ما ذهب إليه، والأرجح أنها مكية، لكثرة خصائص السور المكية فيها، ولضعف رواية سبب النزول التي تنص على نزولها بعد الهجرة.

عدد آياتها: إحدى عشرة آية.

مقاصدها:

- التنويه بشأن الجهاد والمجاهدين، وبفضل الخيل التي تربط من أجل إعلاء كلمة الله تعالى.
- بيان ما جبل عليه الإنسان من حرص على منافع الدنيا.
- حث الناس على أن يتزودوا بالعمل الصالح الذي ينفعهم يوم الحساب.

مناسبتها لما قبلها: ورد في كلتا السورتين الحديث عن خروج ما في الأرض يوم القيامة، وورد في سورة الزلزلة ذكر الجزاء، وفي هذه السورة ذكر أعمال تؤدي إلى ذلك الجزاء.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

الواو: للقسم، والمقسم به:

(١) ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾: جمع عادية، وهو المشي السريع، والضّبح: اضطراب النّفَس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم، والمراد به هنا: صوت أنفاس الخيل عند جريها بسرعة.

(٢) ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾: جمع مورية، وهو إخراج النار بسبب احتكاك شيئين، والقدح: ضرب شيء بشيء لكي يخرج من بينهما شرر النار، والمراد به هنا: النار التي تخرج من أثر احتكاك حوافر الخيل بالحجارة خلال عدوها بسرعة.

(٣) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾ جمع مغيرة، يقال: أغار فلان على فلان، إذا باغته بفعل يؤذيه.

قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ أي: هيّجنَ وأثرنَ النقع أي: الغبار من شدة الجري، وقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ أي: فتوسطن في ذلك الوقت جموع الأعداء، ففرقنها.

والمراد بالعاديات، والموريات، والمغيرات: خيل المجاهدين في سبيل الله، وقيل غير ذلك إلا أن الأوصاف الواردة في الآيات الكريمة تؤيد أن المراد بها الخيل.

وإنما أقسم بالخيل: للتنبيه على فضلها، وفضل ربطها، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، ولما يترتب على استعمالها في تلك الأغراض من أجر وغنيمة، ومن ترويع لجموع المشركين، وتمزيق لصفوفهم.

وأسند الإغارة إليها مع أنها في الحقيقة لراكبيها: لأن الخيول هي عدة الإغارة، وهي على رأس الوسائل لبلوغ النصر على الأعداء.

والتعبير بالفاء في الآيات الكريمة، وبالفعل الماضي: للإشارة إلى أن إثارة الغبار، وتمزيق صفوف الأعداء، قد تحقق بسرعة، وأن الظفر بالمطلوب قد تم على أحسن الوجوه.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾: جواب القسم.

ومعنى الكنود: الجَحود، وقليل الشكر.

والمراد بالإنسان هنا: جنسه، إذ أن هذه الصفة غالبة على طبع الإنسان بنسب متفاوتة، ولا يسلم منها إلا من عصمه الله تعالى.

والمعنى: إن في طبع معظم الناس الكفرانَ لنعم الله، والنسيانَ لفضله وإحسانه، والتضرعَ إليه - سبحانه - عند الشدائد والضراء، والتشاغلَ عن ذلك عند العافية والرخاء، وإنه لشاهد على نفسه بذلك، لظهور أثر هذه الصفة عليه ظهورا واضحا، كما أن هذا الإنسان شديد الحب لجمع المال، ولكسبه من مختلف الوجوه بدون تفرقة بين الحلال والحرام، ولكنزه والتكثر منه، والبخل به على من يستحقه.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾: معنى ﴿بُعْثِرَ﴾: أُثير وأُخرج وقُلب رأسا على عقب.

﴿وَحُصِّلَ﴾: جُمع، وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، والمراد به هنا: الإظهار.

والمعنى: أيفعل ما يفعل هذا الإنسان الجحود لنعم ربه، وخفي عليه أن الله تعالى يعلم عاقبته إِذا أَخرج ما فِي القُبُورِ من أموات، وبعثهم للحساب والجزاء، وجمع ما في القلوب من خير وشر وأظهر ما كانت تخفيه، بحيث لا يبقى لها سبيل إلى الإخفاء، لأن ربهم لَعليم علماً تامّاً بأحوالهم الظاهرة والباطنة، في ذلك اليوم الهائل الشديد الذي يبعث فيه الناس من قبورهم، وسيجازي - سبحانه - الذين أساؤوا بما عملوا، وسيجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

فوائد ولطائف:

١- تظهر الآيات مشهد الخيل وهي تعدو وتوري وتغير وتثير بصورة في غاية الروعة والجمال.

٢- في الخيل من الخصال والصفات ما ليس في غيرها من الدواب، وكما ثبت في الحديث: «في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[1]، وهي من أكرم أموال العرب لما لهم فيها من العزّ والجمال والمتعة والقوة، وكان منهم من يبيت جائعا ويشبع فرسه.

٣- أهمية الأخذ بوسائل القوة والحركة والسرعة والمباغتة، لما لها من أثر في الظفر والنصر.

٤- يؤخذ من الآيات فضلُ اتخاذ الخيل - أو ما يقوم مقامها - وتعلّمُ الفروسية والإعدادُ للجهاد بمختلف الوسائل الممكنة.

(١) رواه البخاري برقم ٢٨٤٩، ورواه مسلم برقم ٤٩٣٥.

٥- مدح الشجاعة والجرأة واختراق صفوف الأعداء.

٦- وردت آثار في تفسير الآيات الأولى من السورة أنها الإبل في الحج، وورد عن بعض المفسرين الجمع بين القولين بأن المراد بها الخيل والإبل[١].

٧- معظم الناس بعيدون عن الخير والإيمان ومنشغلون بحب المال وحبسه عن مستحقيه.

٨- ذم البخل والمبالغة في التعلق بالمال.

٩- يظهر في يوم القيامة ما كان يخفيه الإنسان في نفسه من خير أو شرّ.

١٠- كل إنسان أدرى بنفسه وأعلم بحاله من غيره، وهو على نفسه بصيرة، أقرَّ بذلك أو أنكره.

١١- تسمية المال خيرًا لما يحصل به من قضاء المصالح وتحصيل الحاجات وكسب الأجر حال إنفاقه في الخير.

(١) موسوعة التفسير المأثور ٢٣/ ٤٧٣ -٤٨٩.

تفسير سورة القارعة (١٠١)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ ليس لها سوى هذا الاسم.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: إحدى عشرة آية في الكوفي، وعشر آيات في الحجازي، وثماني آيات في البصري والشامي.

مقصدها: تفصيل الحديث عن أهوال يوم القيامة، لكي يستعد الناس لاستقباله، بالإيمان والعمل الصالح.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة العاديات بالحديث عن يوم القيامة، وهو موضوع هذه السورة بتمامها، فكأنها تتمة لها ومفصلة لإجمالها.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

معنى ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾: من القرع، وهو الضرب بشدة، والمراد بها هنا: القيامة، وسميت بذلك: لأنها تقرع القلوب بأهوالها، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾: استفهام عن حقيقتها، والمقصود به: التهويل من أمرها، والتعجيب من حالها، والتنبيه إلى ما يقع فيها من أهوال، لا تستطيع العقول أن تدرك حقيقتها.

والخطاب في قوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾: لكل من يصلح له، والمعنى: أي شيء يعلمك عن حقيقتها وكنهها؟ إنه لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى.

فالمقصود من الآيات الكريمة: تعظيم شأنها،، وأنها تختلف عن قوارع الدنيا - مهما بلغ عظمها - اختلافا كبيرا.

ثم ذكر سبحانه الحال التي يكون عليها الناس يوم القيامة في قوله:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾: الفراش هي الحشرات الطائرة التي تتهافت على النار، وتمتاز في طيرانها بعدم الاتزان في الحركة، و﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ أي المتفرق أو المتناثر.

أي: تحصل القارعة يوم يكون الناس في انتشارهم وكثرتهم وإقبالهم نحو الداعي لهم نحو أرض المحشر، كالفراش المنتشر المتهافت نحو النار، وذلك لأن الناس في هذا اليوم يكونون في فزع وخوف شديدين، يجعلان كل واحد منهم مشغولا بنفسه.

ثم ذكَر الحالَ التي تكون عليها الجبال في قوله سبحانه:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾: أي: وتكون الجبال المعروفة بصلابتها - في ذلك اليوم -، كالصوف الذي يُنفَشُ ويُفرَّقُ باليد، لخفَّتِه وتناثر أجزائه، حتى يسهل غزله.

وفي ذلك تحذير من أهوال يوم القيامة، وفيه الحض على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾: الموازين جمع ميزان وهو ما ستوزن به الأعمال أو ثوابها يوم القيامة، والتعبير بالجمع في الآية يفيد تعدد الموازين في ذلك اليوم، وقد يكون لكل شخص ميزانه الخاص به.

أي: فأما من ثقلت موازين حسناته، ورجحت أعماله الصالحة على غيرها. فهو في عيشة مرضية هنية كريمة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨﴾ أي: خفت موازين حسناته، وثقلت موازين سيئاته، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ والمراد بالأم هنا: المرجع والمأوى، وبالهاوية: النار التي يسقط فيها، وسميت النار بذلك: لشدة عمقها، وسُمِّي المأوى أمّاً، لأن الإنسان يأوي إليه كما يأوي ويلجأ إلى أمه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾: السؤال للتهويل وتبيين عظم أمر هذه الهاوية فهي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ أي: أنها نار قد بلغت النهاية في حرارتها.

فوائد ولطائف:

١- تهويل شأن يوم القيامة وتبيين أنها تقرع القلوب وتفزع الخلائق.

٢- تبيين مشهد الناس يوم القيامة بسبب الفزع والفجأة.

٣- تشبيه الناس بالفراش عند البعث لأنهم يكونون في اضطراب وفزع، يتحركون بلا تركيز ولا انضباط، كما هو شأن الفراش في طيرانه.

٤- تشبيه نار جهنم بالأم التي يأوي إليها الطفل للحماية والاطمئنان، ولكن الكافر حين يأوي إلى النار سيجد الهلاك والعذاب.

٥- بيان بُعد قعر النار من خلال تسميتها بالهاوية، ويؤكده الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً، فقال: «تدرون ما هذا؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوي في النار الآن حتى استقر إلى قعرها»[١].

٦- ورد في هذه السورة تسمية جهنم بالنار والهاوية، وورد في سور أخر تسميتها: لظى والسعير والحطمة وسقر والجحيم، وكل اسم في موضعه وسياقه هو الأنسب لفظا ومعنى.

٧- وصف النار بالحامية لبيان شدة حرارتها، وهي سبعون ضعفا من نار الدنيا، كما ثبت في الحديث[٢].

(١) رواه مسلم برقم ٢٨٤٤، والوجبة: السقوط مع صوت، والظاهر أن الصحابة كذلك سمعوا الصوت في هذه الحادثة خلافا للمعتاد (البحر المحيط الثجاج ٤٣/ ٦٦١).

(٢) وهو قوله ﷺ: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، رواه البخاري برقم ٣٢٦٥.

تفسير سورة التكاثر (١٠٢)

تمهيد:

أسماؤها: سورة ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وتسمى ﴿ٱلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، و﴿ٱلْهَىٰكُمُ﴾، و«المقبرة».

نزولها: هي من السور المكية عند معظم المفسرين، لانطباق خصائص السور المكية عليها، موضوعًا وألفاظًا وأسلوبًا، وقال بعضهم بمدنيتها لما ورد في الحديث عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن آدم واديًا مِن ذَهَبٍ أَحَبَّ أَن يَكونَ لَهُ وادِيانِ، وَلَن يَمْلأَ فاهُ إِلاَّ التُّرابُ، ويَتوبُ اللهُ علَى مَن تَابَ»، ثم نقل أَنَس عَنْ أُبَيٍّ قَالَ: «كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرآنِ حتَّى نَزلَتْ ﴿ٱلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾» [1]، فهذه الرواية تفيد أن السورة مدنية لأن أنسًا وأُبيًّا كلاهما من الأنصار رضي الله عنهم.

عدد آياتها: ثماني آيات.

فضلها: لم يصحّ الحديث في فضلها أنها تعدل ألف آية[2].

مقاصدها:

- النهي عن التفاخر والتكاثر.
- الحضُّ على التزود بالعمل الصالح، وعلى ما ينجي من العذاب.
- التأكيد على أن يوم القيامة حق، وعلى أن الحساب حق، وعلى أن الجزاء حق.

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٤٤٠.

(٢) رواه الحاكم برقم ٢٠٨١، وهو ضعيف.

مناسبتها لما قبلها: ختمت سورة القارعة ببيان جزاء المكذبين، وافتتحت هذه السورة ببيان أحد موجبات هذا الجزاء.

سبب نزولها: عَنِ ابنِ بُرَيْدةَ قال: «نَزلَت في قَبيلتَيْنِ مِن قَبائلِ الأَنصارِ، في بني حارِثةَ وبنِي الحارِثِ، تَفاخروا وتكَاثرُوا فقالَت إِحدَاهما: فِيكم مِثلُ فلانِ بنِ فلانٍ وفُلانٍ؟ وقال الآخَرونَ مِثلَ ذلِك، تَفاخرُوا بِالأَحياءِ ثُمَّ قالُوا: انطَلِقُوا بِنا إِلى القبُورِ، فجَعلَت إِحدَى الطَّائفتَيْنِ تقولُ: فيكُمْ مِثلُ فُلانٍ؟ يشِيرونَ إِلى القَبرِ ومِثلُ فلانٍ؟ وفعَلَ الآخرونَ مِثلَ ذلِك، فَأنزَلَ اللهُ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ لَقد كانَ لكُم فِيما رَأَيتمْ عِبرَةٌ وشُغُلٌ»[1].

التفسير:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

معنى ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾: من اللهو وهو الغفلة، والانشغال عما هو نافع.

و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: التباري والتباهي بالكثرة في شيء مرغوب فيه كالمال والجاه.

والمراد بزيارة المقابر: الدفن في القبور بعد الموت، وعبر - سبحانه - عن ذلك بالزيارة؛ لأن الميت يأتي الى القبر كالزائر له، ثم بعد ذلك يخرج منه يوم البعث للحساب والجزاء.

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده، برقم ١٩٤٥٣، ولم يحكم عليه محقق الكتاب، ولم يذكره المؤلفون في صحيح أسباب النزول.

المعنى: شغلكم - أيها الناس - التباهي والتفاخر بكثرة الأموال والأولاد والعشيرة، كما ألهاكم حب الدنيا عن القيام بما كلفناكم به، وبقيتم على هذه الحال، حتى أتاكم الموت، ودُفنتم في قبوركم، وانصرف عنكم أحب الناس إليكم، وبقيتم وحدكم.

ويحتمل أن يكون معنى الآيات: انشغلتم بالتفاخر بالآباء ومآثرهم والتنافس في ذلك حتى ذهبتم إلى قبورهم تتفاخرون عندها ويرى كل فريق منكم أنه أفضل من الآخرين، ويؤيد هذا القول ما روي في سبب نزول السورة.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾: معنى ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر عن التكاثر بالأموال والأولاد والبعد عن طاعة الله، وإعادتها لزيادة الوعيد والتخويف.

والتعبير بقوله: ﴿سَوْفَ﴾ لزيادة الزجر، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي، ويصح أن تكون للتراخي الزمني، على أن المقصود بالجملة الأولى: في القبر، وفي الثانية: في الآخرة، ويؤيد هذا القول روايات عن بعض الصحابة إلا أن فيها ضعفًا.

و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ هو العلم الجازم المطابق للواقع الذي لا شك فيه.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، والتقدير: لو تعلمون علمًا يقينيًا حال الدنيا وحقيقتها لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ جواب قسم مقدر، قصد به تأكيد الوعيد الشديد في التهديد، أي: والله لترون الجحيم في الآخرة، ثم زاده توكيداً آخر بقوله ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ وهي رؤية العين اليقينية التي لا تكذب صاحبها.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ المراد بالسؤال: سؤال المؤمن والكافر، ولكن سؤال الكافر توبيخ، لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه قد شكر.

والمراد بالنعيم هنا: ما يتنعم به الإنسان خلال حياته الدنيوية من مال ونحوه.

والمعنى: إنكم أيها الناس إن بقيتم على التشاغل بالدنيا والتفاخر بالأموال بدون توبة صادقة، فسوف تعرفون سوء عاقبة ذلك معرفة حقيقية، ولو علمتم سوء عاقبة هذا الانشغال، لشغلكم هذا العلم اليقيني عما أنتم عليه من التكاثر، ثم لترون الجحيم رؤية حقيقية، بحيث لا يلتبس عليكم أمرها، ثم إنكم بعد ذلك والله لتسألن يوم القيامة عن ألوان النعم التي منحكم الله تعالى إياها، فمن أدى ما يجب عليه نحوها من شكر الله تعالى عليها كان من السعداء، ومن جحدها وشغلته عن طاعة ربه، وتباهى وتفاخر بها، كان من الأشقياء.

فوائد ولطائف:

١- التحذير من التعلق بالدنيا وهي إلى زوال وفناء.

٢- معظم الناس ينشغلون بالدنيا ويتعلقون بها ويلتهون بذلك عن الآخرة وعن العمل لها.

٣- كثرة الملهيات وما يتكاثر به الناس كالأموال والأولاد والأتباع والجاه والبناء والزرع والتجارة والمنصب.

٤- ذم زيارة القبور إذا كان لقصد التفاخر والتباهي، أما زيارة القبور لقصد العبرة والعظة وتذكر الآخرة فإنه مشروع، وفي الحديث قوله ﷺ: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة»[1].

(١) رواه الترمذي برقم ١٠٥٤، وأحمد برقم ٢٣٠٠٥، وهو صحيح.

٥- علم اليقين هو ما نتج عن دليل وبرهان، وعين اليقين ما نتج عن مشاهدة، وحق اليقين ما نتج عن مخالطة وملابسة، وهي درجات العلم الثلاث مرتبة تصاعديًّا.

٦- كثرة النعم في الدنيا وتفاوتها بين الخلق.

٧- يلحظ في السورة كثرة ألفاظ الوعيد والتأنيب والتأكيد مع قصرها، ومن ذلك ورود ﴿كَلَّا﴾ ثلاث مرات، وكذلك ﴿تَعْلَمُونَ﴾ و﴿ثُمَّ﴾، ونون التوكيد.

٨- يُحمل الخطاب في آيات السورة على العموم، فيدخل فيه الكافر والمؤمن، مع التفاوت بينهما في طبيعة الفعل وجزائه، وقد ورد في الحديث تأكيدُ رؤية المؤمنين النار يوم القيامة في قوله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلّمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[(١)]، والخطاب في الحديث للصحابة ويُلحق بهم المؤمنون جميعًا.

٩- قرأ ابن عامر والكسائي ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضم التاء على البناء للمفعول[(٢)]، وتصوّر هذه القراءةُ الناسَ في ذلك المشهد في عدم رغبتهم رؤية النار فيُلزمون بذلك إلزاما، وقرأ الباقون ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ أي أنهم بعد أن يُلزموا برؤية النار يرونها.

١٠- سمع أعرابي قوله تعالى ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال: بعثوا وربِّ الكعبة، فقيل له: كيف ذلك، قال: لأن الزائر لا بدّ أن يرتحل[(٣)].

---

(١) رواه البخاري برقم ٧٠٧٤، ومسلم برقم ٢٣٩٥.

(٢) إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة، ص ٧٣٤.

(٣) تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/ ٣٠٩، والتفسير الوسيط ١٥/ ٤٩٥.

١١- جواز التمتع بالنعيم المباح مع القيام بحقه من شكر المنعم.

١٢- الاستشهاد بالآيات أو ذكر جزء منها في مقام الوعظ يزيده قوة وتأثيرا، وقد استشهد النبي ﷺ في وعظه بآيات من هذه السورة، ومن ذلك؛ عن عبد الله بن الشخير أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت »[1]، وعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ مضى يومًا ومعه أبو بكر وعمر إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان فذبح لهم شاة وأطعمهم خبزًا ورطَبًا واستعذب لهم ماءً وكانوا في ظلٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم»[2].

(١) رواه مسلم برقم ٧٦٠٩.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٠٣٨.

تفسير سورة العصر (١٠٣)

تمهيد:

أسماؤها: «العصر» وتسمى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ على حكاية أول كلمة فيها.

نزولها: هي مكية.

عدد آياتها: ثلاث آيات.

فضلها: ورد أن الرجلين من الصحابة إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم عليه[١]، وقال الشافعي: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، ولو لم ينزل إليهم إلا هي لكفتهم[٢].

مقاصدها: التنبيه إلى قيمة الزمن، وبيان سبب سعادة الإنسان ونجاته من الخسران.

مناسبتها لما قبلها: بعد أن بيّنت سورة التكاثر حال من ألهاه التكاثر بيّنت هذه السورة حال من لم يلهه التكاثر.

التفسير:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١٣٦٦، وفي الأوسط برقم ٥١٢٤، وهو صحيح.
(٢) أورد الجملة الأولى منها ابن كثير في تفسيره ٨/ ٤٧٩، وذكر الجملتين عدد من المفسرين منهم ابن عاشور في التحريروالتنوير ٣٠/ ٥٢٨.

الواو: للقسم، والمقسم به: العصر، والمراد به الدهر كله، وقيل: وقت العصر، وهو ما بين زوال الشمس إلى غروبها، وقيل: صلاة العصر لأنها الصلاة الوسطى.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾، والمراد بالإنسان: جنس الإنسان كله، ومعنى ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾: أي في نقصان وخسران إذ حياته هي رأس ماله فإذا مات ولم يؤمن، ولم يعمل صالحا خسر كل الخسران، والتعبير بـ ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ التي تفيد الظرفية تأكيد لهذا الخسران وتثبيته.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾: ذكرت هذه الآية الكريمة المستثنَينَ من الخسران المبين وهم من جمعوا بين هذه الأمورالأربعة:

١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إيمانا يشمل جميع ما يجب التصديق به جزما قاطعا بلا تردد، وقائدا إلى ما بعده وهو:

٢- ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه ثمرة للإيمان ونتيجة له، والعمل الصالح هو ما يوافق شرع الله تعالى، وميادينه فسيحة واسعة متنوعة، منها:

٣- ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾: أي أوصى بعضهم بعضا باعتقاد الحق وقوله والعمل به، والتواصي على الشيء دلالة على الحرص عليه والتمسك به، والرغبة في أن يحصل الآخر على مثل الخير الذي هو فيه، ومن التواصي بالحق ما جاء بعده وهو:

٤- ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾: الصبر في اللغة هو المنع والحبس، ولما كان من طبيعة نفوس البشر الجزع والضجر وضعف الاحتمال كان الصبر والتواصي به فضيلة ومنزلة عالية وخلقًا كريمًا نبيلًا، إضافة إلى كونه عبادة جليلة.

المعنى: يقسم الله تعالى بالعصر أن جنس الإنسان كله لفي نقصان وهلكة إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورسوله وما جاء به رسوله من الهدى ودين الحق وَعَمِلُوا الأعمال الصالحة من الفرائض والسنن والنوافل، فقد استثناهم الله تعالى من الخسر فهم رابحون غير خاسرين، وذلك بدخولهم الجنة دار السعادة، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي باعتقاده وقوله والعمل به، وذلك باتباع الكتاب والسنة، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ بأن يوصي بعضهم بعضا بالحق اعتقادا وقولا وعملا، والصبر على الطاعات وعن المعاصي وعلى الأقدار ونوائب الدهر، وبالصبر على ذلك حتى الموت.

فوائد ولطائف:

١- أهمية هذه السورة ومكانتها العالية لما تضمنته من منهج رباني كامل فيه سعادة الإنسان في دينه ودنياه لمن عمل به، وخسران لمن تجنبه ولم يعمل به.

٢- القسم بالعصر فيه تبيين أهمية الوقت ومنزلته، ومع ذلك يتهاون كثير من الناس بالوقت ولا يعلمون قيمته الكبرى، وأن حياة الإنسان ما هي إلا الزمن الذي يعيشه ويحياه.

٣- في هذه السورة التي تتحدث عن الخسران القسم بالعصر، للتشابه بينهما في الإدبار والانحدار، وفي سورة الضحى التي تتحدث عن الربح والنجاة القسم بالضحى، للتشابه بينهما في الإقبال والصعود.

٤- حصول الإيمان وحده لا يكفي فلا بدّ من اقترانه بالعمل الصالح.

٥- التواصي بالصبر تابع للتواصي بالحق وجزء منه، وخصّ بالذكر لأهميته وأثره الكبير في شحذ الهمم واحتمال المكاره، وتذليل الصعاب.

٦- حصول التواصي بالحق والصبر في المجتمع يدل على نجاحه وازدهاره وتألقه، وإيجابية أفراده نحو بعضهم، ورسوخ شعور الجسد الواحد فيهم، فيكون مجتمعًا مثاليًا بحقّ.

٧- في التعبير بالتواصي إشارة إلى حصول الرفق واللين في علاقات أفراد المجتمع المسلم، ونصح بعضهم بعضا.

٨- يُلحظ في السورة الكريمة الانتقال من الدائرة الأوسع وهي العمل الصالح إلى دائرة أضيق منها وهي التواصي بالحق، ثم إلى دائرة أضيق وهي التواصي بالصبر، وذلك لتأكيد أهمية هذه الأمور وعظيم خطرها ودورها الكبير في حفظ المجتمع المسلم متماسكًا قويًّا.

٩- للتدبر في الآيات وربط معناها بمشاهد أو مواقف أثر كبير، فعن بعض السلف قال: تعلمت معنى السورة من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله على رأسه، ارحموا من يذوب رأس ماله على رأسه، فقلت: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر[1].

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٢/ ٨١.

تفسير سورة الهمزة (١٠٤)

تمهيد:

أسماؤها: «الهمزة» وتسمى سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، و﴿الْحُطَمَةُ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: تسع آيات.

مقصدها: وعيد من يعيب الناس ويتهكم بهم بسبب ماله بالعذاب الشديد.

مناسبتها لما قبلها: بيّنت سورة العصر أن الخسران سيحيق بمن لم يستثن منه، وفي هذه السورة بيان أحوال بعض الخاسرين.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة تهديد يراد بها العذاب.

الهُمَزة: الذي يعيب في وجه الرجل، واللُّمَزة: الذي يعيبه حال غيابه، ووزن فُعَلة يدل على كثرة فعل الأمر إلى أن يصبح عادة لصاحبه، ومنه

لُعنة وغُدَر، وأصل الهمز واللمز: الدفع والضرب، وهذا السلوك من أفعال الكافرين اتجاه المؤمنين، ومَن فعله من المؤمنين كان متصفا بإحدى صفات المشركين، وكان له نصيب من هذا الوعيد.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾: أي أحصاه وحرص عليه، وأعده لحوادث الدهر، وهذه الآية بدل من ﴿لِّكُلِّ﴾، أو في محل نصب على الذم، وقرئ ﴿جَمَّعَ﴾ بالتشديد دلالة على التكثير.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾: أي يجعله خالدا في الحياة لا يموت.

﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر لما توهمه الكافر، أي: ليس الأمر كما يزعم ويظن.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: أي ليطرحن في الحطمة، ولَيُلقينَّ في النار، واللام: موطئة للقسم، و﴿ٱلْحُطَمَةُ﴾: دركة من درك النار التي تحطم كل ما يلقى فيها، أو اسم من أسماء جهنم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾: الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول وتبلغه الأفهام.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾: إضافتها إلى اسم الله تعالى تعظيما لها وكذلك وصفها بالموقدة وهي التي يتجدد اتقادها.

﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾: أي يصل حرها إلى القلوب، وخُصت القلوب بالذكر لأنها محل العقائد الباطلة، أو تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد من العذاب.

﴿مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾: مغلقة مطبقة، ليشتد حرها عليهم، ولينقطع أملهم في الخروج منها.

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾: العَمَد اسم جمع عمود، وقرئ ﴿عُمُد﴾ بضم العين والميم، جمع عمود، والممددة المجعولة طويلة جداً، أي: يعذبون في

النار بأعمدة ممددة يوثقون بها، أو توضع على أبواب جهنم ليُحكم إغلاقها فلا يفتح لها باب ولا يصلهم رَوح من خارجها، ووصف العمد بالممددة لبيان قوتها وعظمتها وضخامتها.

والمعنى: يتوعد الله تعالى الذين اتصفوا بالصفات المذكورة في السورة وهي أنهم يؤذون الآخرين أثناء وجودهم وفي غيابهم، وهذا الإيذاء له صور متعددة، وأنهم يجمعون المال ويحرصون عليه غاية الحرص ويظنون وجود المال عندهم مانعا من الهلاك، يتوعدهم بعذاب شديد، حيث يطرحهم في النار المستعرة الَّتِي تشرف على القلوب فتحرقها، كما أنها مطبقة مغلقة الأبواب يعذبون فيها بعمد ممددة أشدّ أنواع العذاب.

فوائد ولطائف:

١- يدل بدء السورة بالتهديد والوعيد على خطورة الأمر، وعمق أثره السلبي في المجتمع المسلم.

٢- عيب الآخرين مذموم غيرلائق بالإنسان السوي، سواء حصل في وجه المرء أو في غيابه، وعيبُ المرء في غيابه أسوأ لعدم قدرة الغائب على الدفاع عن نفسه.

٣- الإسلام دين الخُلق الحسن والسلوك الطيب مع الآخرين.

٤- روي أن السورة نزلت في شخص محدد واختلف في تحديده، فقيل: الأخنس بن شريق، أو العاص بن وائل، أو جميل بن معمر، أو الوليد بن المغيرة، أو أمية بن خلف، أو أبيّ بن خلف، ويحتمل أن تكون نزلت فيهم جميعا[1]، وهي عامة في كل من اتصف بهذه الصفات.

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٤٨٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٥١٠.

٥- يطلق المال على ما يكسبه الإنسان مما ينفعه ويقضي حاجاته، ومنه الزرع والأنعام.

٦- يتعلق كثير من الناس بالمال ويصبح شغلُهم الشاغل جمعَه وعدَّه وحفظه وتكثيره والتفاخر به، ويغيب عن بالهم فراقهم له عند الموت، وقد قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد؛ يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»[1].

٧- ذم التعلق بالمال والبخل به والانشغال بجمعه وعدّه.

٨- ورد الفعل ﴿أَخۡلَدَهُۥٓ﴾ بصيغة الماضي، تنزيلاً للمستقبل منزلة الماضي لتحققه واليقين بحصوله.

٩- إهانة الكافر يوم القيامة حيث يلقى في النار إلقاءً.

١٠- يدخل في اطلاع جهنم على القلوب علمها بما في القلوب من عقائد فاسدة ونيات خبيثة وأفكار سيئة.

١١- تسمية جهنم في هذه السورة بالحُطَمة مناسب لِلفظَي الهُمَزة واللُّمَزة في الوزن، وفي المعنى مقابل لسلوك من يجمع المال ويحرص عليه، ومناسب للنبذ الذي سيحصل لمن يُلقى في النار، فإن الإلقاء بغير اعتناء مظنة التحطم وحصول الأذى.

١٢- وصف النار بما ينفِّر منها ويثير الفزع من العمل المؤدي إلى دخولها، بدءاً من هيئة دخولها إلى تسميتها بالحطمة، وإضافتها إلى الله تعالى تفخيما لشأنها، ووصفها بالموقدة، وبالمطلعة على القلوب، والإعلام بإحكام إغلاقها على من فيها فلا أمل لهم بالخروج ولا تخفيف العذاب.

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٥١٤، ومسلم برقم ٧٦١٣.

تفسير سورة الفيل (١٠٥)

تمهيد:

أسماؤها: سورة ﴿ٱلْفِيلِ﴾، وتسمى سورة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، من باب تسمية السورة بفاتحتها أو ببعضها.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: خمس آيات.

مقصدها: تسلية رسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش، فإنهم مهما بلغوا من قوة إلا أن الله تعالى قادر عليهم وعلى إهلاكهم كما أباد أصحاب الفيل، وقد كانت تلك الحادثة من مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه وبطشه بأعدائه.

مناسبتها لما قبلها: في سورة الهمزة إخبار عن تعذيب من كفر بالله في الآخرة، وأن المال والجاه لا يغني عن صاحبه شيئا، وفي هذه السورة إخبار عن تعذيبهم وإهلاكهم في الدنيا، وإثبات أن من حارب بيت الله لم يغن عنه ماله وجاهُه شيئا، فالسورتان متكاملتان في موضوعيهما.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

الاستفهام في قولـه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقريري، والمخاطب هنا: رسول الله ﷺ، والمراد بالرؤية العلم اليقيني كأنه رآه.

وأصحاب الفيل: هم جيش أبرهة الحبشي الذي أراد صرف الناس عن الكعبة بهدمها وتخريبها، وكان مع الجيش فيل أو مجموعة من الفيلة قيل إنها اثنا عشر فيلا، والفيل: الحيوان الضخم المعروف.

﴿كَيْدَهُمْ﴾: أي في هدم الكعبة.

﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾: في خسار وهلاك.

﴿أَبَابِيلَ﴾: أي جماعات جماعات.

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي طين مطبوخ.

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: أي كورق زرع أكلته الدواب وداسته بأرجلها.

المعنى: يخاطب تعالى رسوله ﷺ مذكراً إياه بحادث جلل وقع في سنة ولادته ﷺ ظهرت فيه قدرة الله تعالى حيث أهلك أصحاب الفيل وجعل ما قصدوا إليه من هدم البيت الحرام في خسارة وضلال، فلم يجنوا إلا الخزي والدمار، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ جماعات من الطير كانت تمر فوقهم وهي تحمل حجارة من طين مطبوخ ترميهم بها، فتتفتت لحومهم وتتناثر، فتجعلهم كزرع دخلته ماشية فأكلت ورقه وأتلفته وتركته بقايا لا فائدة فيها، وكانت الحادثة آية من آيات الله تعالى.

فوائد ولطائف:

١- عظيم مكانة النبي ﷺ عند ربه، حيث خاطبه بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وأضاف لفظ الرب إلى كاف خطابه.

٢- كما تحصل العبرة برؤية الحادثة تحصل برؤية أثرها وسماع خبرها، وإن كان بدرجة أقل من الرؤية.

٣- التعبير في الآية عن أفراد الجيش بأنهم أصحاب الفيل، امتهان وتحقير لهم، فكأن الفيل هو الأصل وهم أتباع له يُعرَفون به.

٤- المكانة العظيمة للبيت الحرام وللكعبة المشرفة عند الله، حيث أهلك من أرادها بسوء بطريقة مهينة، ومن جهة لا يستطيعون دفعها.

٥- اختار الله لولادة النبي الكريم ﷺ العام الذي نجّى فيه بيته، لتقترن نجاة البيت بمولد من تكون على يديه نجاة الأمة.

٦- استخراج العبرة والعظة من إهلاك الله تعالى من يحاده ويريد هدم بيته المكرم.

٧- يتناقل الناس الأخبار العظيمة ويؤرخون بها.

٨- تأكيد أن الله تعالى هو الفاعل لما يريد في هذا الكون.

٩- من جند الله الطير والحجارة.

١٠- امتنع الفيل عن التقدم نحو البيت الحرام لقصد إيذائه، فكان أوعى من قائده وأفضل منه.

١١- قد تأتي الهزيمة للمتجبر المتكبر من حيث لا يتوقع ولا يخطر له على بال.

١٢- التعبير عن مآل هذا الجيش بأنه أصبح كبقايا الزرع الذي أكلته الماشية، فيه امتهان وتحقير لهم.

١٣- الله سبحانه يتولى الدفاع عن دينه وبيته وعباده، فإذا تخلى البشر عن ذلك، فلا يأس ولا قنوط من حصول النصر، في الوقت الذي يريده سبحانه.

١٤- حمى الله تعالى بيته ولم يكل ذلك لمشركي مكة حتى لا يكون لهم فضل على البيت ولا سابقة في حمايته.

١٥- الأسباب المادية وحدها غير كافية لحصول النصر.

١٦- التعدي على حرمات الله كبيوته وأوليائه بالإيذاء والإهانة مدعاة لسخط الله وعقابه.

تفسير سورة قريش (١٠٦)

تمهيد:

أسماؤها: سورة ﴿قُرَيْشٍ﴾، وتسمى ﴿لِإِيلَٰفِ﴾، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: أربع في العدد الكوفي والبصري والشامي، وخمس للباقين.

مقاصدها: وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وترك الشرك، ووجوب شكر الله تعالى على نعمه وبيان فضل الله تعالى على قريش بالأمان والغنى.

مناسبتها لما قبلها: بعد أن أهلك الله تعالى أصحاب الفيل، عظم أمر قريش وازدهرت تجارتهم، فذكّرهم الله بنعمته عليهم، فكان ما حصل مع أصحاب الفيل نقمة عليهم ونعمة لقريش، ولذا فالسورتان وثيقتا الاتصال.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

﴿لِإِيلَٰفِ﴾: الإيلاف مصدر آلف الشيء يؤالفه إيلافا إذا اعتاده وزالت الكلفة عنه، واللام متعلقة بما قبلها، أي: أهلك الله أصحاب الفيل ليفعل بقريش هذه الأفعال الجميلة.

﴿قُرَيْشٍ﴾: هم ولد النضر بن كنانة وهم قبائل شتى، وفي سبب تسمية قريش بهذا الاسم أقوال، أولها: أنه مأخوذ من اسم دابّة البحر المفترسة، لأن قريشا كانت كسمك القرش في قوة تجارتها وسيطرتها، وثانيها: من القرش وهو العملة المعروفة لأنهم كانوا أصحاب أموال، والثالث: من التقرّش بمعنى الاجتماع لأن هذه القبيلة كانت متوحدة وكلمتها مجتمعة، والرابع: من قرَش بمعنى فتّش لأنهم كانوا يبحثون عن المحتاجين بين الحجاج ليسدوا حاجتهم ويكفوهم.

﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ بدل، وهو بدل مقيد من مطلق، حيث أطلق الإيلاف الأول، وقيّد الثاني بما بعده، و﴿رِحْلَةَ﴾ مفعول به والناصب له المصدر.

﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾: أي إلى اليمن.

﴿وَٱلصَّيْفِ﴾: أي إلى الشام.

والفاء في ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ هي الفصيحة لوقوعها في جواب شرط مقدّر.

﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ وصفُ الله تعالى بالربوبية لما تضمنه هذا الوصف من الإشارة إلى الاعتناء بحالهم، والمراد بهذا البيت: الكعبة المشرفة التي أكرم الله أهل مكة بها، فكانوا محط الرحال ومأوى المسافرين، وأمان الخائفين، وسوق التجار، ومتبارى الشعراء والفصحاء.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ بما هيأ لهم من أسباب الحصول على الطعام يُجبى إليهم من ثمرات البلاد ما يكفيهم وزوارهم ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ حيث يأمن ساكن مكة والداخل إلى الحرم على نفسه أن يُعتدى عليه، تقديرًا ورفعة للمكان الذي آوى إليه.

المعنى: يبين الله تعالى أن ما فعله بأصحاب الفيل كان من أجل ما ألفته قريش في حياتها من رحلتين، رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف

إلى الشام وذلك للاتجار وجلب الأرزاق إلى بلادهم وكان ذلك بتدبير الله تعالى ليعيش سكان حرمه وبلده في رغد من العيش إلا أنهم عدلوا عن عبادته إلى عبادة الأصنام فالله أحق أن يعبدوه إذ هو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف بما ألقى في قلوب العرب من احترام الحرم وسكانه فتمكنوا من السفر إلى خارج بلادهم والعودة إليها في أمن وطمأنينة. وفي ذلك استجابة الله دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة:١٢٦].

فوائد ولطائف:

١- فضل الله تعالى على قريش بإهلاك أصحاب الفيل، فأعلى منزلتهم بين العرب، وأمنوا في حلهم وترحالهم.

٢- حازت قبيلة قريش شرفًا كبيرًا من عدة جوانب، منها جوارهم لبيت الله، ومنها طيب النسب وشرفه، ومن أعظمها أن النبي الخاتم ﷺ منهم، وهو القائل ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1].

٣- حوت السورة الكريمة أركان المجتمع المثالي الأربعة، وهي: الائتلاف، والاجتهاد في الكسب، وتوحيد الله وعبادته، والأمن وكفاية القوت.

٤- اقتصرت الآية على الإشارة إلى البيت دون ذكر اسمه، لشهرته ومعرفة كل من قرأ الآية أن المقصود به البيت الحرام، وهو الكعبة المشرفة.

(١) رواه مسلم برقم ٦٠٧٧.

٥- امتد تعظيم الكعبة بين الناس منذ بنيت إلى أيام الجاهلية، وخالط ذلك مظاهر شركية أزالها الإسلام، وطهرها من مظاهر الشرك، وقرن تعظيمها بالتوحيد والأحكام الشرعية النقية.

٦- ينعم الله على الكفرة والعصاة من خلقه لعل ذلك يكون سببا لاهتدائهم وإيمانهم.

٧- النعم قسمان: دفع ضرر وجلب نفع، والأول أهم وأوجب، ولذا قدّم وذكر في سورة الفيل، وأُخّرَ الثاني وذُكر في هذه السورة، ولما كان الإنعام يحتاج إلى الشكر أُتبع بطلب العبادة[1].

٨- في هلاك قوم حياة قوم آخرين.

٩- وجوب شكر نعم الله تعالى.

١٠- يؤدي حصول الأمن في المجتمع إلى الاستقرار والازدهار والنماء الاقتصادي، ويؤدي فقدانه إلى تفكك المجتمع وفقره وانحلاله.

(١) بتصرف من التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٢/ ١٠٧.

تفسير سورة الماعون (١٠٧)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾، وتسمى سورة ﴿أَرَءَيْتَ﴾، و﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ﴾، و«الدين»، و﴿ٱلْيَتِيمَ﴾، و«التكذيب».

نزولها: هي من السور المكية عند جمهور المفسرين، وقيل نصفها مكي، وهي الآيات الثلاث في أولها، والنصف الآخر مدني، والقول الأول أشهر.

عدد آياتها: سبع آيات في العدد الكوفي والبصري، وست في الباقي.

مقاصدها: التهديد والوعيد للذين يكذبون بالدين، وبيان بعض أفعالهم وأخلاقهم السيئة.

مناسبتها لما قبلها: تضمنت سورة قريش الامتنان بنعم الله، وفي هذه السورة التهديد والوعيد لمن لم يؤمن بالله المنعم ولم يشكر نعمه، وسلك طريق التكذيب والرياء وإيذاء الآخرين.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾: للتعجيب من حال المستفهم عنه، ثم بينت السورة صفات وأفعال المتحدث عنه، وهي:

١- ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ تعريفه بالاسم الموصول لتمييزه أكمل تمييز، وأول أفعاله أنه لا يؤمن بالجزاء المتضمن ثواب الله وعقابه يوم القيامة.

٢- ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾: ورود اسم الإشارة والاسم الموصول بعده لزيادة التشويق إلى معرفة الصلة، والدعُّ هو الدفع بعنف وشدّة، وورد بالفعل المضارع لإفادة تكرر الفعل ودوامه، واليتيم من توفّي أبوه وهو دون سنّ البلوغ.

٣- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ الحضّ حثّ الآخرين على فعل الشيء، والمسكين: من لا يجد ما يسدّ حاجاته الأساسية.

ثم انتقلت الآيات في تعداد صفات وأفعال المكذب بالدين إلى أسلوب جديد وإلى الجمع بعد الإفراد خروجًا من تكرار النظائر، وتشويقًا في الكلام:

٤- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾: هذا صنف من المكذبين بالدين يتظاهرون بالصلاح نفاقا وتغطية على كفرهم، وصلاتهم منقوصة، فيؤدونها في العلانية ويتركونها في السر، أو يؤخرونها حتى يخرج وقتها أو لآخره.

٥- ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾: المراءاة هي قصد رؤية الناس للعمل، وجاءت بصيغة المفاعلة لضرورة وجود راءٍ تحصل له المراءاة، والمراءاة تكون بصلاتهم وأعمالهم التي ظاهرها الخير لأجل أن يراهم الناس.

٦- ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾: أي لا يعطون من سألهم عوناً مما يُنتفع به ويُردُّ بعينِه كسائر الأدوات المنزلية، أو ما جرت العادة بالإعانة به، كعود الكبريت، ورشّةِ ملح، وشَربةِ ماء.

المعنى: تندد هذه الآيات بالكافر الذي كذب بالجزاء في الآخرة، وهو الذي يدفع اليتيم بعنف عن حقه ولا يعطيه إياه تقليلا لشأنه، وتكبرا عليه. ولا يحث على طعام المسكين ولا يحض على إطعام الفقراء والمساكين، وسبب هذا عدم إيمانه بالحساب والجزاء في الدار الآخرة.

ويجوز أن تكون الصفات الثلاث الأخيرة ليست تابعة للصفات الثلاث التي قبلها، فلا تكون في المكذّبين الكافرين، بل في المنافقين وضعيفي الإيمان.

وتوعدت السورة الكريمة بأشد العذاب الغافلين عَنْ صَلاتِهِمْ غير المتقيدين بوقتها، فيؤخرونها عنه، كما أنهم يُرَاؤُونَ بها وبكل أعمالهم ليقال إنهم مؤمنون، ومن صفاتهم أنهم لا يعطون من سألهم ماعوناً مما ينتفع به كالأدوات المنزلية لأنهم لا يريدون أن ينفعوا غيرهم بشيء.

فوائد ولطائف:

١- بدء السورة بالاستفهام للتشويق إلى معرفة ما سيُذكر بعده.

٢- سوء التكذيب بالدين والحساب، ويزداد سوؤه حين يؤدي إلى ذميم الأخلاق وقبيح الأعمال والإساءة إلى الآخرين.

٣- عظيم جرم إيذاء اليتيم عند الله، والمتوقع ممن حول اليتيم رعايته وتعويضه عن فقد حنان ورعاية الأب وليس دعّه وإيذاؤه.

٤- الحث على الإحسان إلى اليتيم والمسكين، والدعوة إلى إقامة الصلاة والمحافظة عليها والإخلاص في العمل وتقديم العون إلى من يطلبه أو يحتاجه دون منّ ولا أذى.

٥- توعد الآية الساهين عن صلاتهم، ولو توعّدت الساهين في صلاتهم لهلك كثيرون، بسبب كثرة ما يحصل من السهو في الصلاة.

٦- الأنانية صفة لازمة للإنسان غير المؤمن، فتراه يمنع ما عنده من خير عن غيره ولو كان شيئًا يسيرًا لا يؤثر عليه.

٧- إعانة الآخرين وتقديم المساعدة لهم حق، ولكن من الناس من يمنع الخير عن نفسه وعن غيره حين يتكل على الآخرين ويقعد عن العمل مع قدرته عليه، ويستجدي معونتهم، ولا يعيد ما يستعيره، أو يعيده وقد أعطبه أو أساء استخدامه.

٨- في هذه السورة الكريمة مبادئ التكافل التي تؤدي إلى مجتمع تسوده المودّة والتآلف والاستقرار.

تفسير سورة الكوثر (١٠٨)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾، وتسمى سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، و«النحر».

نزولها: هذه السورة مكية في قول جمهور العلماء، ومدنية في قول عدد من المحققين، ولكلا القولين أدلته ووجاهته.

عدد آياتها: ثلاث آيات.

مقصدها: بيان فضل الله تعالى وكرمه على نبيه ﷺ والدفاع عنه في مواجهة التهم والأباطيل.

مناسبتها لما قبلها: ورد في سورة الماعون ذكر الكفر والرياء وإيذاء الآخرين وترك الصلاة ومنع الزكاة، وفي هذه السورة ما يقابلها كلها، فهي كالمقابلة لها تماما.

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

تبدأ السورة الكريمة بأداة التأكيد ﴿إِنَّآ﴾ مع ضمير الجمع الدال على العظمة لبيان عظمة المعطي والعطية والمعطى.

والإعطاء المناولة حسيًّا أو معنويًّا، ومقابله المنع، وورد ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ بالفعل الماضي ليدل على الثبوت والحصول، وفيه إشارة إلى أن هذا الإعطاء ليس جزاء على عمله بل تفضل من الله تعالى لحصوله قبل العمل، واستعمال كاف الخطاب بدل الاسم الظاهر لئلا يُشعر بالتعليل.

﴿الْكَوْثَرَ﴾: يطلق على الخير الكثير والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر كوثراً، والمقصود هنا: أن الله تعالى أعطى نبيه الكريم خيرا كثيرا في الدنيا والآخرة، ومن أبرز هذا الخير نهر في الجنة أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ، عن أنس قال: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت علي آنفا سورة فقرأ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز و جل عليه خير كثير وحوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيُختَلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك»[1]، ذكر عدد من المفسرين أن هذا من التفسير بالمثال، ويكون الكوثر من جملة الخير الكثير المعطى للنبي الكريم ﷺ.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾: الفاء للتفريع، والمراد مطلق الصلاة وقيل: صلاة العيد، وإيثار اسم الربّ لبيان تعليل العبادة، والالتفات من التكلم في ﴿إِنَّا﴾ إلى الغيبة في ﴿لِرَبِّكَ﴾ فلم يقل: «لنا» دفعاً لأي إيهام، والكاف لتثبيت الإخلاص في الصلاة والنحر ليكونا خالصينِ لله تعالى،

(١) رواه الإمام مسلم في الصحيح برقم ٩٢١، ومعنى يُختلَج: يُبعَد.

والنحر يستعمل في الإبل، وهي أعزّ أموال العرب، ففي مقابل العطاء العظيم يكون تقديم الشيء النفيس والغالي، وفيه تعظيم لأمر الله تعالى وقطع عن التعلق بالدنيا.

ولأن الصلاة أعظم العبادة البدنية قرن بها أعظم ما يذبح، والأمر بالنحر مطلق، وقيل: هو أمر بالأضحية، وقيل: إن ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أمر يتعلق بالصلاة، إما قبلها أي استقبِلِ القبلة، وإما أثناءها أي اجعَل يديك على صدرك حال القيام في الصلاة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾: تبدأ الآية بأداة التأكيد للدلالة على أهمية هذا الخبر وتثبيته، وشانئ اسم فاعل من الشنآن وهو أشدّ البغض.

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والأبتر هو: الأقل الأذل المنقطع عقبه.

المعنى: تبدأ السورة بأداة التوكيد إن وبضمير العظمة وبالفعل الماضي الذي يفيد تأكيد حصول الأمر، وبالفعل أعطى الذي يستخدم في الأمر المهم، ويخاطب الله تعالى نبيه ﷺ مبشرا إياه بما خصه وأمته من كوثر بالغ في الكثرة والعظمة، ومن أبرزه نهر في الجنة، ماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، ولا يرده إلا الصالحون من أمته ﷺ، وأمره بالشكر على هذا الإنعام بأن يصلي لربه وحده لأنه المنعم عليه وحده، وكذا بأن ينحر لله مخلصا فلا يذبح لغيره تعالى، ويبين الله تعالى أن مبغض رسول الله ﷺ في كل زمان ومكان هو الأقل الأذل المنقطع النسل والعقب والذِّكر الحسن بين الناس.

فوائد ولطائف:

١- كثرة المؤكدات في الآية الأولى بإن وضمير العظمة، والفعل الماضي، لتثبيت العطيّة وتأكيد حصولها.

٢- في كل آية من آيات هذه السورة بشارة بأمر في المستقبل، ففي الآية الأولى بشارة بالكوثر، وفي الثانية بشارة بكثرة المال وسعة الحال، وفي الثالثة بشارة بالنصر على الشانئ.

٣- ورود الضمير المتصل في ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ بدل الاسم الظاهر، فلم يقل: أعطينا النبي أو محمدا ﷺ، لدفع توهم خصوصية العطاء، أو توهم أنه في مقابل النبوة والرسالة، بل هو محض فضل وعطاء بلا سبب، وليس خاصا بالنبي ﷺ بل له ولكل من تبعه واقتدى به.

٤- احتوت كل آية في هذه السورة على كاف الخطاب للنبي ﷺ، وفي ذلك تبشير وتكريم له.

٥- الكرم العظيم والعطاء الكبير ينبغي أن يُقابل بالشكر والرضى والسرور والحمد، وحين نزلت هذه السورة على النبي الكريم ﷺ تبسّم واستبشر وبشّر أصحابه، وذلك لما حوته من أعطيات وبشارات عظيمة.

٦- خلت هذه السورة من حرف الميم وهو من أكثر الحروف استعمالا في الكلام، ولا تكاد تخلو منه عبارة بمثل طول هذه السورة أو أقصر منها.

٧- حوت الآية الثانية من هذه السورة أنواع العبادة البدنية ﴿فَصَلِّ﴾ والقلبية ﴿لِرَبِّكَ﴾ والمالية ﴿وَٱنْحَرْ﴾.

٨- بُنيت هذه السورة على الإيجاز، ولذا ورد فيها فعل الأمر ﴿فَصَلِّ﴾ مختصرا، ولم يقرن بفعل الإقامة كما في نحو: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء: ٧٨، لقمان: ١٧].

٩- زعم المشركون أن الرسول ﷺ أبتر، فكانوا هم الأبترون المنقطعون، وكل من يحارب الحق ينقطع ذكره وينتهي ما خطط له من مجد ومقام.

١٠- مما يدل على عظيم مقام النبي عند ربه أنه سبحانه ردّ التهمة والفرية عن نبيه، وهذا يدل على المقام العظيم والمكانة والمنزلة العليا له.

١١- وجوب حب النبي ﷺ حيث ذمت الآية مبغضه.

١٢- هذه السورة هي أقصر السور على الإطلاق، وإن وافقها سورة النصر والعصر في عدد الآيات فقد زادا عليها في عدد الكلمات، ولكونها أقصر السور حاول الإتيان بمثلها بعض من أراد معارضة القرآن، وكان مآل المحاولة الفشل الذريع[١].

١٣- من الأقوال اللطيفة في معنى ﴿الكَوْثَر﴾: هذه السورة، أي أن الله تعالى يخبر نبيه أنه أعطاه وأنزل عليه هذه السورة المسماة الكوثر وهي وافية بمنافع الدنيا والآخرة، وفيها من النعم والبشائر الشيء الكثير.

١٤- مع عظيم كيد الكافرين بالنبي ﷺ وبغضه ومحاولاتهم الإنقاص من قدره واتهامه إلا أن كيدهم رجع عليهم ولم يظفروا بما أرادوا، ووقعوا فيما اتهموه به، وهذا من أعظم العبر والدلالة على دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ ومن تبعه بحقٍّ.

١٥- من بلاغة المتكلم استخدام ألفاظ تحتمل معانيَ عديدة لتذهب عقول السامعين مذاهب كثيرة في فهم كلامه، ويظن كلٌّ منهم أنه أدرك الصواب وفهم المراد، كما في لفظي: ﴿الكَوْثَر﴾، ﴿وَٱنْحَرْ﴾ في هذه السورة، وفي هذا إرشاد غير مباشر للدعاة أن يختاروا من الألفاظ ما يؤثر في نفوس السامعين وما يجعلهم يُعملون عقولهم في محاولة فهمه وإدراك المراد منه[٢].

(١) يُنظر ما أورده الرافعي في: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية من أمثلة، ص ١٣٤.
(٢) هدايات من جزء عم وأثرها في نهضة الأمّة، ص ١٧.

تفسير سورة الكافرون (١٠٩)

تمهيد:

أسماؤها: «الكافرون»، وتسمى سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و«الإخلاص»، و«العبادة»، و«الدين».

نزولها: هي سورة مكية.

عدد آياتها: ست آيات.

فضلها: ورد في فضل هذه السورة أنها تعدل ربع القرآن[1]، وسبق ذكر الحديث - في تفسير سورة الأعلى - أن النبي ﷺ أنه كان يقرؤها في الركعة الثانية من صلاة الوتر، وكان ﷺ يقرأ بها وبسورة الإخلاص في ركعتي الطواف، وفي ركعتي سنة المغرب، وفي ركعتي سنة الفجر أحيانا[2].

مقصدها: تقرير التوحيد والمفاصلة بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشرك.

مناسبتها لما قبلها: أمرت سورة الكوثر وهذه السورة بالإخلاص في عبادة الله، وفي هذه السورة تأكيد له، وخُتمت سورة الكوثر بذكر شانئ النبي ومبغضه، وفي هذه السورة تفصيل المفاصلة مع الشانئ.

سبب نزولها: «أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرًا مما

(١) رواه الترمذي برقم ٢٨٩٤، وأحمد برقم ١٢٤٨٨، وهو صحيح.
(٢) ورد ذلك في أحاديث كثيرة، منها ما رواه مسلم برقم ١٧٢٣ و٣٠٠٩، وأبو داود برقم ١١٤٢، والترمذي برقم ٤١٧ و٨٦٩.

بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك كنت قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخر السورة، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك»[1].

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

﴿قُلْ﴾ تبدأ السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ وكلِّ من يصلح للخطاب أن يواجه أهل الكفر بالمفاصلة التامة وتيئيسهم من التنازل عن المبدأ الحق الذي هو عليه بقوله لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ باستعمال أداة النداء لجلب انتباههم، والكفرُ في اللغة معناه الستر، ويطلق في الشرع على من أنكر الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها، والخطاب في الآية لكفار قريش ابتداء، ويندرج فيه كل كافر، ووصفهم بالكفر تثبيت لهذه الصفة فيهم، ولتعليل سبب مخالفته إياهم.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾: العبادة هي التذلل لعظيم حقيقة أو توهما، ويُجمع عبد على عباد، ويكثر إطلاق هذا الجمع على من عبد الله باختياره،

(١) سبب النزول مروي في كثير من كتب التفسير والحديث وغيرها، والمثبت من أسباب النزول للواحدي، ٣٧٤.

ويُجمع على عبيد، ويكثر إطلاقه على جميع البشر، و﴿لَآ﴾ أداة نفي، وجيء بالفعل المضارع بعدها لتأكيد النفي في الحال والاستقبال.

و﴿مَا﴾ للإبهام ليصح دخول جميع معبوداتهم من أصنام ونجوم وملائكة وجن.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾: بعد أن أخبر عن نفسه نافيا إمكان عبادته معبوداتهم انتقل إلى الإخبار عنهم، فنفى عنهم إمكان عبادتهم معبوده، وهذه الجملة دليل على أن هذا كلام الله فهو العالم بما في قلوبهم، والتعبير عن الله تعالى بِـ ﴿مَا﴾ للمبالغة في التفخيم.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾: الواو للعطف، وهذه جملة جديدة تنفي عبادته ﷺ آلهتهم بالجملة الاسمية بعد النفي السابق بالجملة الفعلية، وحصول النفي أكثر من مرة لتثبيته حيث المقام مقام مفاصلة ومواجهة تقتضي ذلك.

والتعبير بالفعل الماضي في ﴿عَبَدتُّمۡ﴾ للدلالة على أن عبادة الأصنام حاصلة منذ زمان وليست طارئة.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾: لفظ هذه الآية مطابق تماما للفظ الآية الثالثة، ويرى عدد من المفسرين أن الجملة الأولى منهما لنفي الفعل في الوقت الحالي، وأن الجملة الثانية منهما لنفيه في المستقبل، ويرى آخرون أن الجملة الثانية تأكيد للأولى لتثبيت المعنى وتقريره بأبلغ ما يكون.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾: الدِّينُ يُطلق على الجزاء كما سبق في تفسير قوله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ويطلق على الملَّة والشريعة، وهو المراد هنا.

وختمُ السورة بهذه الآية لتلخيص محتوى السورة وتثبيت ما أكدته من المفاصلة والمباعدة بين الفريقين، فدينكم عبادة الآلهة المتعددة والكفر بالخالق العظيم، وديني هو التوحيد الخالص وعبادته كما أمر.

وتقديم المسند على المسند إليه في الجملتين لإفادة القصر.

المعنى: يبين الله تعالى في هذه الآيات ما ينبغي أن يسلكه النبي ﷺ إزاء اقتراح تقدم به بعض الكافرين وهو أن يعبد النبي ﷺ معهم آلهتهم سنة ويعبدون معه إلهه سنة وفي ذلك إنهاء للخصومات بزعمهم، وقد رد الله عليهم بأمرالنبي ﷺ أن يقول لهم: لا أعبد ما تعبدون لا في الحال ولا في المستقبل، وأنتم كذلك لا تعبدون ما أعبد لا في الحال ولا في المستقبل، فإن الله تعالى يعلم ما في قلوبكم من فساد اعتقادكم وإصراركم عليه وقبح أعمالكم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ من الوثنية لا أتابعكم عليه ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام لا تتابعونني عليه.

فوائد ولطائف:

١- بدأت السورة بِـ ﴿قُلْ﴾ وهي إحدى خمس سور بدأت بهذا الأمر الموجه إلى النبي ﷺ وإلى كل من يصلح للخطاب، والبدء بالأمر يدل على أهمية ما سيأتي بعده، وأنه ينبغي أن ينشر ويعم العلم به.

٢- النداء بصفة الكفر دون غيره فيه إشارة إلى قبح هذه الصفة، التي لا تليق بالإنسان صاحب العقل والاختيار، والقدرة على التمييز بين الحسن والقبيح.

٣- المفاصلة مع أهل الشرك وعدم مهادنتهم في التخلي عن شيء من الحق.

٤- من وسائل التأكيد في الكلام تكرير اللفظ.

٥- تعنت الكافرين وتمسكهم بما هم عليه من كفر، وثباتهم على باطلهم، مع كل ما بذله النبي الكريم ﷺ في دعوتهم وإقناعهم بالحق الظاهر المبين.

٦- بطلان كل دين سوى الإسلام.

٧- لا يُجبر أحد على الإسلام بعد إقامة الحجة عليه.

٨- ملة أهل الكفر واحدة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾.

٩- الاعتزاز بالتوحيد ودين الإسلام ﴿وَلِيَ دِينِ﴾.

تفسير سورة النصر (١١٠)

تمهيد:

أسماؤها: «النصر»، وتسمى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، و«التوديع»، و«الفتح».

نزولها: هي من السور المدنية، وهي آخر سورة تامة نزلت.

عدد آياتها: ثلاث آيات.

فضلها: عن عائشة رضي الله عنها قالت «كان النبي ﷺ يكثر من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، قال: خبَّرني ربي بأني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾»(١).

مقصدها: الإعلام بتمام الدين، ووجوب الشكر عند تحقق النعمة، والإشارة إلى قرب أجل النبي ﷺ.

مناسبتها لما قبلها: بعد المفاصلة مع الكافرين في السورة السابقة تأتي هذه السورة لتخبر بأن نتيجة العلاقة مع الكافرين نصر الإسلام وأهله، وذهاب الشرك وأتباعه، فهي متمِّمةٌ لها.

(١) رواه الإمام مسلم برقم ١١١٦.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف للزمن المستقبل، و﴿جَاءَ﴾ أي إذا تحقق حصول النصر، والمراد به فتح مكة، وفي الآية جمع بين النصر والفتح، والفرق بينهما أن النصر يعدّ مقدمة للفتح، وأن الفتح يعدّ مكمّلا للنصر.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ ﴿أَفْوَاجًا﴾: جمع فوج، ويطلق على الجماعة من الناس، وقد تبع فتحَ مكة دخولُ الناس في الإسلام بأعداد كبيرة، ذلك أنهم كانوا يترقبون ما يحصل بين النبي ﷺ وقومه، فلما أذعن قومه له وأسلموا يوم الفتح تبعهم كثيرون في ذلك.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي نزهه عن الشريك ملتبسا بحمده.

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾: أي اطلب منه المغفرة توبة منك إليه، وفي الآية حذف تقديره: واستغفره إنه كان غفارا وتب إليه إنه كان توابًا.

المعنى: هذه السورة نزلت في أخريات أيام الرسول ﷺ وهي تحمل علامة للنبي ﷺ على قرب أجله، فقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ فأصبحت تنتصر على أعدائك في كل معركة تخوضها معهم، وحصل فتح مكة وأصبحت دار إسلام بعد أن كانت دار كفر، وأقبل الناس من سكان الجزيرة وغيرهم على الدخول في الإسلام جماعات جماعات بعد أن كانوا يدخلون فرادى واحدًا واحدًا وهم خائفون، إذا تحقق هذا ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ﴾ شكرًا له على نعمة النصر والفتح ودخول الناس في دينك، وانتهاء دين المشركين الباطل ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ أي: اطلب منه المغفرة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ يقبل توبة عباده ويغفر ذنوبهم ويرحمهم.

ووجه أمر النبي ﷺ بالاستغفار مع أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع أنه معصوم من الذنوب، أن الاستغفار في حقه الشريف نوع من الذكر، ولتعليم أمته ذلك، وليكون قدوة لهم فيه، ولأنه دائم الترقي فإذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما دونها، أو استغفاره لما يمكن أن يصدر عنه من خلاف الأولى، أو لما يعرض له بمقتضى البشرية عند إعراض قومه عنه.

فوائد ولطائف:

١- في هذه السورة ثلاث بشارات للنبي ﷺ هي: نصره على اعدائه، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا وانتقالهم من عداوته إلى اتباعه.

٢- أهمية فتح مكة وأثره الكبير في إقبال الناس على الدخول في الدين والخضوع لرب العالمين.

٣- تأخر فتح مكة لحكمة عظيمة، ولو آمن أهل مكة فورًا بالنبي ﷺ لما حصل كثير من أحداث السيرة التي هي مدرسة لكل مسلم متبع للنبي الكريم.

٤- عظيم جرم أهل مكة بعدم دخولهم في الإسلام، فلما أسلموا تبعهم خلق كثير، فهم أقرباء النبي ﷺ وأهل بلده، وأولى الناس باتباعه، وكان عدم إيمانهم سببا غير مباشر لصد كثيرين عن الإيمان.

٥- في الآية إضافة النصر إلى الله تعالى، وكذلك في جميع الآيات التي ذكرت النصر للمؤمنين، أضيف إلى الله تعالى، فهو الناصر لعباده المستحقين للنصر، وإن قل عَددُهم وعُددُهم، ولأن النصر من الله فلا يكون إلا في الوقت الذي يريده سبحانه.

٦- إذا زالت العوائق أمام نور الإسلام انتشر بذاته، فعلى المسلم العمل على إزالة العقبات والحواجز التي يقيمها الطغاة، ويشيدونها لمحاربة الدين ووقف انتشار نوره.

٧- خلط التسبيح بالحمد فيه تنويع في العبادة لإذهاب الملل والكسل والفتور، فينوع المرء بين التسبيح منفردا، والحمد منفردا، وجمعهما معًا.

٨- التوجيه إلى التواضع وذكر الله تعالى وقت حصول النصر، لا التعاظم والتعالي والفخر والزهو، وقد دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وهو متواضع متطامن حتى إن عُثنونَه يكاد يمس واسطة الرحل(١).

٩- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»(٢)، أي يستجيب لما أمره به القرآن، وهكذا ينبغي على كل مسلم أن يستجيب لأمر الله تعالى في كتابه ويتبع سنة نبيه ﷺ في ذلك.

١٠- يتفاوت الناس في فهم الآيات، فمنهم من يحملها على الظاهر، ومنهم من يغوص في المعنى ويبحث في دقائقه، ويصل إلى تأويله، كما كان ابن عباس رضي الله عنهما، فقد فهم من هذه السورة أكثر من المعنى الظاهر من الآيات، وقال لعمر رضي الله عنه لما سأله عن معناها: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٥.

(٢) رواه البخاري برقم ٨١٧، ورواه مسلم برقم ١١١٣.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[١]. وروي أن أبا بكر وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم فهموا هذا المعنى من السورة فبكَوا عند نزولها، وفهمُ هذا المعنى من السورة لا ينافي «إرادة المعنى الصريح بأن يحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإكثار من قول ذلك»[٢].

١١- في هذه السورة الكريمة إشارة إلى أن النصر يستمر لهذا الدين ويزداد مع التسبيح والاستغفار وشكر الله تعالى على نعمه، وقد حصل ذلك زمن الخلفاء الراشدين وامتد سنين عديدة حتى تغير حال المسلمين فحصل بهم ما حصل من تراجع ونكوص وهزيمة، «ومع هذا فلهذه الأمة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال»[٣].

١٢- الكمال يتبعه النقصان.

١٣- الاجتهاد في الطاعات والقربات عند الشعور بدنوّ الأجل وقرب الوفاة.

(١) رواه البخاري في الصحيح برقم ٤٢٩٤.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٩٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١٢٧٤.

تفسير سورة المسد (١١١)

تمهيد:

أسماؤها: «المسد»، وتسمى سورة ﴿تَبَّتْ﴾، و«اللهب»، و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾.

نزولها: هي من السور المكية.

عدد آياتها: خمس آيات.

مقاصدها: الوعيد الشديد لمن عمل على إيذاء المؤمنين، وبيان عدم إغناء المال ولا الولد والقرابة وغيرها لمن سخط الله تعالى عليه.

مناسبتها لما قبلها: في سورة النصر بيان جزاء من آمن بالله وأطاع أمره، وفي هذه السورة بيان جزاء من كفر به وعصى أمره، وتقَدَّم الوعد في سورة النصر على الوعيد في هذه السورة، لما في تقديم الوعد من بشارة حسنة للمؤمنين.

سبب نزولها: عنِ ابنِ عَبّاسٍ - رضِيَ اللهُ عنهُما - قال: «لمَّا نَزلَت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ على الصّفا فجَعلَ يُنادي يا بنِي فِهْرٍ يا بني عَدِيٍّ لِبُطونِ قُرَيشٍ حتّى اجتَمعوا فجَعلَ الرَجلُ إِذا لم يستَطعْ أَن يَخرجَ أَرسَلَ رَسولاً لِيَنظُرَ مَا هو، فجاءَ أَبو لهَبٍ وقُريشٌ، فقال: أَرأَيتَكُمْ لو أَخبَرتُكم أَنَّ خَيلاً بالوادي تُريدُ أَن تُغيرَ عَلَيكم أَكنتُم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم ما جرَّبنا عليكَ إِلاَّ صِدقًا، قال: فإِنّي نذيرٌ لكُم بَينَ

يَدَيْ عذابٍ شدِيدٍ، فقال أَبو لهَبٍ: تَبًّا لك سائِرَ اليَومِ أَلِهذا جمَعتَنا، فنَزلَت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾»[1].

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

﴿تَبَّتْ﴾: خسرت وهلكت، والنص على اليدين لأن أبا لهب كان يؤذي النبي ﷺ بهما، أو يصرف الناس عنه بهما، ولأن معظم الأعمال تباشر بهما، وعطف عليه ﴿وَتَبَّ﴾ أي وقد تبَّ هو، فمن تبت يداه كان أمره في تباب وخسران.

وأبو لهب عم النبي ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، واشتهر بهذه الكنية أكثر من اسمه، والأبوة في هذه الكنية بمعنى الملازمة، لأن اسم أكبر أبنائه: عتبة، وكان من أكثر الناس إيذاءً للنبي ﷺ.

﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ يصح أن تكون نافية بمعنى: لم يغن عنه، أو استفهامية بمعنى: هل أغنى عنه؟ و﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مصدرية أو موصولة، والمقصود بالكسب ولده أو عمله.

والسين في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ للاستقبال القريب، زيادة في الوعيد والتهديد، والصليُ: العرض على النار.

ووصفُ النار بكونها ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ لزيادة تقرير المناسبة بين كنتيه ومآله، ولتأكيد حقيقة النار أنها ذات لهب، وهي ألسنة النار المشتعلة بلا دخان.

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٧٠.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾: هي أم جميل أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان.

﴿حَمَّالَةَ﴾ صيغة مبالغة من الحمل لكثرة حصول ذلك منها. قرأ عاصم ﴿حَمَّالَةَ﴾ بالنصب، فإن كان النصب بفعل محذوف تقديره: أذمّ يوقف على ما قبل ﴿حَمَّالَةَ﴾، وإن كان النصب على الحال فلا يوقف على ما قبله، وقرأ الباقون بالرفع، فإن أُعرِب معطوفاً على ما قبله فلا وقف، وإن أُعرِب خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هي، يوقف على ما قبله.

﴿ٱلۡحَطَبِ﴾ هو كل ما جف من زرع وشجر وشوك توقد به النار.

﴿فِي جِيدِهَا﴾: الجيد: العنق.

﴿حَبۡلٞ﴾ الحبل ما يُفتل لتربط به الأشياء أو تحفظَ من التناثر، وتقيَّدَ به الدواب.

﴿مِّن مَّسَدِۭ﴾: بيان لمادة صنع الحبل وهو الليف.

المعنى: هلك أبو لهب وخسر كل شيء له، ولم يدفع عنه العذابَ مالهُ ولا ولدُه اللذان كان يعتز ويحتمي بهما، وسيدخل يوم القيامة نارا توقد وتأجّج يصطلي بحرِّها ولفحها، وستشاركه امرأته في هذا العذاب، وهي التي كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ، وسيكون في عنقها حبل من ليف، وذلك عذابا لها في النار جزاءً على فعلها.

فوائد ولطائف:

١- ذُكر أبو لهب بكنيته دون اسمه، لأن اسمه وهو عبد العزى كفر لا يليق أن يذكر في القرآن، ولشهرته بها أكثر من اسمه، ولأن هذه الكنية توافق مآله وعذابه باللهب.

٢- أعلنت السورة أن أبا لهب وامرأتَه من أهل النار، وهما ما يزالان من الأحياء، ويملكان القدرة كغيرهما على الإسلام ولكنه لم يحصل

منهما، وهذا دليل واضح على إعجاز القرآن وصدقه فيما يخبر به من غيب المستقبل.

٣- الجزاء من جنس العمل، فأبو لهب قال للرسول ﷺ: تبا لك، فقل له الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وامرأته كانت تحمل الحطب بالحبل لتؤذي به النبي الكريم، وستعاقب في النار بحبل في جيدها من ليف.

٤- معاملة المرء بمثل صنيعه، فمن جهر بمعاداة الدين استحق الجهر في الرد عليه بآيات تتلى إلى يوم الدين.

٥- جواز استخدام الكنية المشتهر بها الشخص وإن لم تكن باسم أحد أبنائه.

٦- لم تذكر السورة جميع أفعال أبي لهب السيئة، ومن أسوئها أنه كان يجتهد في ثني الناس عن الإيمان بعد أن يدعوهم النبي ﷺ ويكاد الإيمان أن يدخل قلوبهم، فيأتيهم أبو لهب بعده ويخبرهم أنه عمُّه وأعرفُ الناس به[1] فيصدهم عن الإيمان واتباع الحق.

٧- التباب والخسران مصير كل من يحارب دين الله ويعاديه.

٨- قرابة أبي لهب للنبي ﷺ لم تغن عنه شيئا، فلا يتّكلنَّ أحد على قرابة لنبيٍّ أو وليٍّ أو صالحٍ.

٩- عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر - أي حجر - وهي تقول : مذمما أبينا * ودينه قلينا * وأمره عصينا، والنبي ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٥١ و٤٢٢ و٦٠٩ ومواضع أخرى.

قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك فقال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء]، فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني فقال: لا و رب هذا البيت ما هجاك فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها»[1]، وفي هذه الرواية فوائد، منها: سوء خلق هذه المرأة وجرأتها على الله ورسوله، وأن الله تعالى صرفها عن إيذاء النبي ﷺ فلم تره وهو موجود، كما صرفها عن إيذائه بتسميتها إياه مُذمَّماً، وهو محمد، فلا يقع عليه الشتم، وأن آية الإسراء المذكورة نزلت قبل سورة المسد أو في فترتها، وأن ذكر ما في الشخص من عيب لا يسمى هجاءً، فقد نفى أبو بكر أن الرسول ﷺ هجاها لانطباق ما في السورة عليها، وقد يكون نفيه الهجاء عن النبي ﷺ لأن قائل هذا الكلام ليس هو بل الله سبحانه.

١٠- ذُكرت امرأة أبي لهب بإضافتها إلى ضميره تحقيرًا لها، ولتبيين أنها تابعة له في الكفر والسلوك السيئ، وهو ما لا يليق بأهل العقل والمنطق الصحيح.

١١- ورد في لفظ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ قراءتان شاذّتان، هما: «ومُرَيْئَتُهُ»، بإظهار الهمزة، «ومُرَيَّتُهُ» بتشديد الياء[2]، وذلك على التصغير تحقيرا لها وخفضا لمكانتها ومقامها.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم ٣٣٧٦، ووافقه الذهبي في الحكم عليه بالصحة، وأورد الألباني بعضه في صحيح السيرة النبوية ص ١٣٧.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٥٢٥، واللباب لابن عادل ٢٠/ ٥٥٤.

١٢- حصول النعمة بالزوجة الصالحة، والشقاء بالزوجة الطالحة.

١٣- مخالطة أهل السوء والضلال تقود إلى سلوك طريقهم والتأثر بهم والعمل مثلهم.

١٤- تفاوتُ مواقف أعمام النبي ﷺ من دعوته، فمنهم من أسلم وتقدم في الرتبة كحمزة والعباس، ومنهم من حمى النبي ودافع عنه ولم يؤمن كأبي طالب، ومنهم من عاداه وحاربه وآذاه كأبي لهب، ولم تنفعه قرابته شيئا، فاستحق أشد العذاب على ما فعله من سوء وشر.

١٥- التذكير بالمعاناة والتكذيب والإيذاء الذي حصل في أول الدعوة للنبي ﷺ ولأصحابه فيه رفع للهِمَمِ وباعث للسير على طريقهم ومنوالهم وتحمُّل ما تحملوا في سبيل الله ورفع راية دينه الحقِّ.

١٦- المعتاد في الكلام أن يذكر الجِيد في مقام بيان الحسن والجمال، وأن تذكر العنق مع الأغلال والضرب، فذكرُ الجِيد هنا في مقام العذاب والسوء تهكم بالمتحدث عنها وتحقير لها.

١٧- يؤخذ من رواية سبب النزول أن قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] نزل قبل هذه السورة، وهي معلومة تفيد من يبحث في تتبع نزول الآيات، وهو أحد فروع علم نزول القرآن الكريم.

١٨- يحتمل قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ المعنى الظاهر وهو أنها كانت تحمل الحطب وتلقيه في طريق النبي ﷺ كما ورد في روايات، ويحتمل أن ذلك أحد صور عذابها في النار يوم القيامة، ويحتمل المعنى المجازي وهو سعيها بالنميمة بين الناس، فإن من ينقل الكلام للفتنة بين الناس يشبه حمل الحطب وإيقاد النار بينهم.

١٩- استخدام اللفظ الأنسب لسياقه، فلفظ المسد معناه الليف، ولكنه أنسب لما فيه من مناسبة قلقلة حرف الدال مع قوة التهديد، ومناسبة فواصل السورة، ويُروى أن أحد الحفّاظ تحدى من حوله أنه لا يخطئ في حفظه مطلقا فلما اختبروه ووصل إلى هذه السورة أخطأ فاستعمل لفظ «ليف» بدلًا من ﴿مَّسَدِۭ﴾، ولم ينتبه إلى أن اللفظ المستبدَل هو اسم السورة، ومن المُشتَهر بين الحفاظ عبارة: «القرآن غالب لا مغلوب» بمعنى أن لا يجزم الحافظ بأنه لا يخطئ في حفظه مطلقا مهما تمكن منه.

تفسير سورة الإخلاص (١١٢)

تمهيد:

أسماؤها: لهذه السورة أسماء كثيرة منها: سورة «الإخلاص»، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾، و«الأساس»، و«التوحيد»، و«الأمان»، وذُكر لها أسماء أخرى غيرها[١].

نزولها: هي من السور المكية على القول الراجح.

عدد آياتها: أربع في العدد الكوفي والبصري والمدني، وخمس في المكي والشامي.

فضلها: ورد فيه عن عائشة «أن رسول الله ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله عز وجل يحبه»، وفي رواية أن النبي ﷺ قال له: «حبك إياها أدخلك الجنة»[٢].

---

(١) ذكر الرازي في التفسير الكبير لها عشرين اسما ٣٢/ ١٦٢، وذكر عبد الله الهنائي في «أسماء سور القرآن الكريم» ثلاثة وعشرين اسمًا، ص ١٠١ -١٠٩.

(٢) رواه البخاري برقم ٧٣٧٥، ورواه مسلم برقم ١٩٢٦، واختلف شراح الحديث هل كان يختم كل ركعة بها أو الركعة الأخيرة فقط؟ وفي الحديث دليل على جواز قراءة أكثر من سورة غير متتالية في الركعة الواحدة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عنها: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»(١)، وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعدل ثلث القرآن»(٢).

وورد في فضلها مع المُعوِّذتينِ بعدها قول رسول الله ﷺ: «لم يتعوذ الناس بمثلهن»(٣).

وعن عائشة - رضي الله عنها -: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم ينفث فيهما فيقرأ هذه السور، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، ويبدأ بها على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات(٤). وفي رواية عنها: أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها(٥).

وسبق ذكر الأحاديث التي فيها أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في الوتر، وركعتي الطواف، وركعتي سنة الفجر والمغرب.

مقصدها: إخلاص العبودية لله تعالى وإثبات وحدانيته سبحانه.

مناسبتها لما قبلها: في سورة المسد ذكر العذاب الذي سيحيق بمن أشرك بالله وآذى رسوله الكريم، وفي هذه السورة توضيح التوحيد المطلوب

(١) رواه البخاري برقم ٥٠١٣.
(٢) رواه مسلم برقم ٨١١.
(٣) رواه أبو داود برقم ١٣١٥، والنسائي برقم ٥٤٣١، وهو صحيح.
(٤) رواه البخاري برقم ٥٠١٦.
(٥) رواه البخاري برقم ٥٠١٦، ومسلم برقم ٢١٩٢.

من العباد لينجو من العقاب، ومناسبتها لسورة الكافرون -حيث يُقرن بينهما في الصلاة كما سبق - التشابه مع هذه السورة في افتتاحهما بِـ ﴿قُلْ﴾ وفي أن الأولى تبرؤ من الشرك، وهذه بيان للتوحيد الحق الصحيح.

سبب نزولها: عن أبي بن كعب رضي الله عنه «أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(١).

التفسير:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

تبدأ السورة الكريمة بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ لبيان أهمية ما بعده، وجوابا عن سؤال المشركين كما ورد في سبب النزول.

﴿هُوَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿أَحَدٌ﴾ خبر ثان، أو ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿أَحَدٌ﴾ الخبر، والجملة من المبتدأ والخبر خبَرٌ لِـ ﴿هُوَ﴾.

وبدأ التعريف باسمه تعالى ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو أشهر أسمائه وأكثرها استخدامًا، ومعلوم لدى المخاطبين.

و﴿أَحَدٌ﴾ أبلغ من واحد في الإثبات وفي النفي، لأن «أحد» صفة مشبهة و«واحد» اسم فاعل، والصفة المشبهة تفيد تمكن الوصف في موصوفها أكثر، وقيل: هي بمعناها وأبدلت الواو ألفا للتخفيف كما في: وُجوه وأُجوه.

(١) رواه الترمذي برقم ٣٣٦٤ وقال محققه الألباني: حسن، ورواه أحمد برقم ٢١٢١٩ وقال محققه شعيب الأرنؤوط: ضعيف.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: إعادة لفظ الجلالة لتفخيم الكلام وتثبيت الهيبة في النفوس، والإشارة إلى أن كل جملة مستقلة كافية في تعريفه، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد ذو السؤدد والعظمة، الباقي بعد خلقه، المنزه عن الحاجة إليهم، والمنزه عن الطعام والشراب، والذي يُلجأ إليه لقضاء الحوائج على الدوام، والتعريف فيه لإفادة الحصر.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نفيٌ لوجود فرع مولود منه، ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ نفيٌ لوجود أصل سابق له.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾: أي لم يكن أحد شبيهًا له أو مثيلًا أو نظيرًا أو مساويًا.

قرأ جمهور القراء ﴿كُفُؤًا﴾ بالهمز على الأصل، ومنهم من ضم الفاء ومنهم من سكنها، وروى حفص ضم الفاء وإبدال الهمزة واواً للتخفيف.

وفي الآية الكريمة تأخير اسم ﴿يَكُن﴾ عن خبرها لبيان قصد نفي مبدأ المشابهة أكثر من نفيها في أحد معيَّن، وتقديم الجاروالمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ للاختصاص.

المعنى: يخاطب الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بأن يرد على المشركين وقد قالوا له: انسب لنا ربك أو صفه لنا، قل لهم: ربي ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي الإله الذي لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة إلا له هو ﴿أَحَدٌ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله فليس له نظير ولا مثيل في ذلك إذ هو خالق الكل ومالك الجميع والمنفرد بالألوهية، وهو ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أي السيد المقصود في قضاء الحوائج الذي استغنى عن كل خلقه وافتقر الكل إليه، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي لم يكن له ولد لانتفاء من يجانسه إذ الولد يجانس والده،

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لانتفاء الحدوث عنه تعالى، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي ولم يكن أحد شبيهاً له ولا مثيلاً ولا نظيراً إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فوائد ولطائف:

١- هذه السورة على وجازتها فيها تعريف شامل بالله سبحانه، ولذا كانت تعدل ثلث القرآن لما حوته من غزير المعاني وكثيرها.

٢- كثرة أسماء هذه السورة يدل على شرفها ومكانتها.

٣- ورد في السورة نفي وجود ولد لله قبل نفي أنه وُلد، لأن الزعم بأن لله ولدا أكثر على ألسنة المشركين.

٤- في هذه السورة إبطال جميع العقائد الباطلة في حق الله تعالى، حيث نفت عن الله سبحانه الكثرة والنقص والعلّة والندّ، وأثبتت له صفات الكمال.

٥- في السورة الكريمة إثبات صفات الكمال لله تعالى نصا بما ذكر فيها، وتبعا لأن هذه الصفات تقتضي سائر صفات الكمال الأخرى كالحياة والقدرة والإرادة.

٦- زعم المشركون أن لله ولدًا، وزعموا أن النبي ﷺ أبتر، وردّ الله سبحانه على الزعم الأول في هذه السورة، وعلى الزعم الآخر في سورة الكوثر، وفي هذا دلالة على أن مَن حمل راية دين الله دفع الله تعالى عنه الأذى والافتراء.

٧- تضمين الدعاء بما ورد في هذه السورة مدعاة للإجابة، فعن بريدة الأسلمي، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول: اللهم إني

أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فقال: «لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[1].

٨- اللجوء إلى الله الأحد الصمد لقضاء الحوائج وجلب المنافع ودفع المضارّ، فهو سبحانه القادر على ذلك.

٩- التعوذ والتحصن بهذه السورة مع سورتي الفلق والناس، كما كان النبي ﷺ يفعل.

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٣٠٠٢، وأبو داود برقم ١٤٣٩، وغيرهما، وهو صحيح.

تفسير سورة الفلق (١١٣)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾، وتسمى سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وتُسمَّى مع سورة الناس: المعوِّذتان، وتُسمَّيان مع سورة الإخلاص: المعوِّذات.

نزولها: هي من السور المكية عند كثير من المفسرين، ورجح بعضهم أنها مدنية بناء على رواية سبب النزول.

عدد آياتها: خمس آيات.

فضلها: ورد في فضلها مع سورتي الإخلاص والناس أحاديث، سبق ذكرها في فضل سورة الإخلاص.

وورد في فضلها مع سورة الناس عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُر مثلُهنّ قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(١)، وعن خبيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعوذ الناس بأفضل منهما»(٢).

مقصدها: اللجوء إلى الله وحده والاستعاذة به تعالى من كل أمر لا يقدر المرء على دفعه لخفائه أو عدم القدرة عليه.

مناسبتها لما قبلها: بعد أن عرّفت سورة الإخلاص بالله وصفاته، أمرت هذه السورة باللجوء إليه والاحتماء به من شر الخلق، فهو القادر على دفع السوء والشرِّ.

---

(١) رواه مسلم برقم: ١٩٢٧.

(٢) رواه النسائي برقم: ٧٨٠٩، وهو صحيح.

سبب نزولها: عن عائشة رضي الله عنها في حديث سحر النبي ﷺ وفيه: «... فأنزل الله سورتي المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة...»[1].

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

تبدأ السورة الكريمة بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ تلقينا للنبي ﷺ ولمن يصلح للخطاب، وتأكيدا على وجوب المحافظة على هذه الألفاظ كما هي، ﴿أَعُوذُ﴾: أي أستجير وأتحصن، وجيء بالفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، ﴿بِرَبِّ﴾ الرّبُّ: هو القائم بتدبير أمر غيره، وإصلاح حاله، والمراد هنا: الله فهو مربي الناس ومصلح أمورهم.

﴿الْفَلَقِ﴾: أي الصبح، وكل شيء ينفلق عن غيره، فهذا اللفظ يصلح أن يندرج فيه كل الخلق، فكل مخلوق فلق، بمعنى أنه ينفلق عن غيره أو ينفلق غيره منه.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾: أي من شر وضرر الخلق جميعا، فشمل جميع الشرور والمضارِّ من جميع المصادر الممكنة لها و﴿مَا﴾ في الآية تفيد العموم.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ٣٧٩، والتفسير البسيط له ٢٤/ ٤٥١ و٤٥٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٢٥٣، وأصل الحادثة في الصحيحين وليس فيهما النص على نزول المعوذتين، وهذه الرواية حكم عليها ابن حجر بالضعف (فتح الباري ١٠/ ٢٢٥).

وبعد هذا التعوذ العام ورد التعوذ من ثلاثة أنواع محددة، هي:

١- ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: أي الليل إذا أظلم، أو القمر إذا غاب.

٢- ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾: جمع نفّاثة، صيغة مبالغة من النفث، أي النفوس أو الجماعات التي تعمل السحر، أو النساء الساحرات، والقول الأول أولى لما فيه من عموم الذكور والإناث، والنفث هو النفخ في الشيء بدون ريق أو مع ريق يسير، والعُقَدُ جمع عُقْدةٍ، وعَقدُ الشيء ربطه بإحكام، وتدل الآية على أن السحرة يستخدمون النفث في عقد يعقدونها، ولعلهم يفعلون ذلك لزيادة قوة السحر.

٣- ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾: حقيقة الحسد: تمني زوال النعمة عن الغير لتحصل للحاسد، أو تمني زوال النعمة عن غيره وإن لم تحصل له، وهذا النوع الثاني أسوأ الحسد، وهو داء خبيث يحصل عند رؤية نعمة في المحسود.

وتقييد الاستعاذة بحال ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأنها الحال التي يندفع فيها الحاسد بكل قوته المادية والمعنوية لإيذاء المحسود بما يمكنه.

المعنى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قل أيها النبي ﷺ أستجير وأتحصن برب الفلق وهو الله عز وجل إذ هو فالق الإصباح وفالق الحب والنوى ولا يقدر على ذلك إلا هو لعظيم قدرته وسعة علمه. ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، من شر جميع المخلوقات. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، وتعوَّذ من شر الليل إذا أظلم، والقمر إذا غاب، إذ بالظلمة وغياب النور تكون مظنة الأذى، ومن أمثال العرب: «الليل أخفى للويل»، ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وتعوَّذ بالله من شرّ السواحر، وهن الجماعات أو النفوس اللاتي ينفثن في كل عقدة يرقين عليها ويعقدنها، ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وتعوَّذ برب الفلق من شرّ من يحسد الآخرين إذا أظهر حسده فقصدك بسوء.

فوائد ولطائف:

١- الالتجاء إلى الله تعالى من كل ما يخشاه الإنسان مما لا يقدر على دفعه لخفائه أو لقوته.

٢- سعة رحمة الله تعالى بعباده حيث أرشدهم إلى ما يقيهم المخاوف الظاهرة والباطنة.

٣- الاستعاذة من شر السحر والحسد والتنفير منهما يقتضي حرمتهما ووجوب تجنبهما والبعد عن السحرة والحُسّاد.

٤- ثبت في الصحيحين[1] حديث سحر النبي ﷺ، ونص العلماء على أن ذلك لم يؤثر أبدا في أمور الدعوة والرسالة، إنما في أمور شخصية، كما في الروايات، وجمهورُ العلماء على أن للسحر حقيقةً وتأثيراً، وأنه أمر واقع في حياة الناس، وليس مجرد خيالات وأوهام.

٥- يشرع علاج السحر وغيره والوقاية من الآفات بالرقية بالمعوذتين وغيرهما، مما ثبت الرقية به من الآيات والأحاديث، ولها دور كبير في الشفاء وزوال السحر والحسد والعين.

٦- لما كان الإنسان ضعيفا لا يستطيع مواجهة الأعداء الأخفياء، علمه ربه الرحيم به أن يلجأ إليه ويستعيذ به من الشرور الخفية، المتمثلة في معظمها في السحر والحسد، والتي تحصل وتُدبَّر في ظلمات الليالي وظلمات النفوس السيئة الخبيثة، وهو سبحانه القادر على رد الكيد وإبطال الشر وحفظ من يستجير به ويعوذ به من عباده الصالحين.

٧- قيل في تعليل تأنيث (النفاثات): «وإنما جيء بصفة المؤنث لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحرَ النساءُ، لأن نساءهم لا شغل لهن

(١) رواه البخاري في خمسة مواضع أولها برقم ٣٢٦٨، ورواه مسلم برقم ٥٨٣٢.

بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة، فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتكهن ونحو ذلك»[١].

٨- النفث في العقد قد يكون حسياً كما في نفث السحرة، وقد يكون معنوياً، كما في نفث أهل الباطل في باطلهم ليقوى ويزداد أثره وليتعاونوا من خلاله على المنكر والسوء، وكما في نفث أهل الباطل على الحقّ ليطفئوا نوره ويقضوا على أثره، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف].

٩- كثرة النعم على العبد مدعاة لكثرة حساده، ومن أهم وسائل التحصن التعوذ بالمعوذتين أو بالمعوذات الثلاث.

١٠- الغبطة ليست من الحسد وهي تمني أن يكون له مثل حال المغبوط دون أن تزول النعمة عنه، وهي جائزة بخلاف الحسد.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/ ٦٢٨.

تفسير سورة الناس (١١٤)

تمهيد:

أسماؤها: ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وتسمى سورة ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وتُسمَّى مع سورة الفلق المعوِّذتان، وتُسمَّيان مع سورة الإخلاص: المعوِّذات.

نزولها: هي من السور المكية في القول الراجح، وقيل مدنية بناء على الرواية في سبب نزولها مع سورة الفلق، والظاهر أنهما نزلتا متتابعتين.

عدد آياتها: ست في العدد الكوفي والبصري والمدني، وسبع في العدد المكي والشامي.

فضلها: سبق ذكر ما ورد في فضلها في فضل سورة الإخلاص، وفي فضل سورة الفلق.

مقصدها: الاعتصام بالله من الشرور الخفية لخلقه.

مناسبتها لما قبلها: هاتان السورتان تشكلان وحدة متكاملة في المعنى، ففي الأولى استعاذة من شرور أنواع من الخلق، وفي هذه السورة استعاذة بالله من وسوسة شياطين الجن والإنس.

سبب نزولها: سبق ذكر ما ورد في سبب نزولها في تفسير سورة الفلق.

التفسير:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

تبدأ السورة بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾، لتبيين أهمية الشيء المأمور بقوله، وللمحافظة على ألفاظ هذه الاستعاذة، وجيء بالفعل المضارع بعده وهو ﴿أَعُوذُ﴾ للدلالة على معنى التجدد في حصوله، وأعوذ بمعنى أستجير وأتحصن، ﴿بِرَبِّ﴾ أي القائم بتدبير أمر غيره، وإصلاح حاله، والمراد هنا: الله تعالى فهو مربي الناس ومصلح أمورهم، وأضيف إلى ﴿النَّاسِ﴾ لأنهم المقصودون بالحديث.

﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢﴾: أي المدبّر لأمرهم، والمتصرف في شئونهم تصرفا كاملا، والآمر لهم بما فيه خيرهم، وسبق في تفسير سورة الفاتحة بيان الفرق في المعنى بين ملك ومالك.

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣﴾: أي: الذي يدين له الناس بالعبودية والخضوع والطاعة لأنه هو وحده الذي خلقهم وأوجدهم في هذه الحياة، وأسبغ عليهم من النعم ما لا يحصى.

وبدأ - سبحانه - بصفة الربوبية: لأنها من أوائل نعم الله تعالى على عباده.

وثنى بذكر المُلك: لأن الإنسان إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلًا مدركًا.

وختم بالألوهية: لأن الإنسان بعد أن يدرك ويتعلم، يدرك أن المستحق للعبادة هو الله رب العالمين.

وإنما خصت هذه الصفات بالإضافة إلى الناس مع أنه - سبحانه - رب كل شيء: للدلالة على تشريف جنس الإنسان، ولأنه هو الذي أخطأ في حقه تعالى باتجاهه إلى المعبودات الباطلة التي هي مخلوقة له تعالى.

وبعد بيان المستعاذ به بيّنت الآيات المستعاذ منه، وهو:

﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾: الوسوسة هي الصوت الخفي، ويشمل ذلك كل ما يلقيه الشياطين - من الجن والإنس - في نفوس الناس بصورة خفية من الخواطر السيئة، وتزيين الباطل والحثّ على فعله.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: هو الذي يلقي في نفس الإنسان أحاديث السوء، أو الذي يضعف ويختفي إذا ذكر المؤمن ربه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾: صفة لهذا الوسواس الخناس، فهو يلقي في نفس المرء السوء ويزين له الباطل، وذكرُ الصدر دون القلب للإشارة إلى أن هذه الوسوسة تُلقى في الصدر، ولا تصل إلى القلب إلا في حال الغفلة والبعد عن الله وعن ذكره.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: زيادة بيان للذي يوسوس في صدور الناس، وأن الوسوسة بالسوء تأتي من نوعين من المخلوقات: تأتي من الشياطين المعبر عنهم بالجنّة، وتأتي من الناس.

ومعنى ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ بكسر الجيم: الخفاء والاستتار.

وقدم الله تعالى الجنّة على الناس: لأنهم هم أصل الوسواس، ولعظيم أثر وسوستهم، إذ أنهم مختفون عنا، ولا نراهم.

والمعنى: يخاطب الله تعالى رسوله الكريم بأن يعتصم ويستجير بخالقه سبحانه الذي هو رب الناس، وملكهم ومعبودهم الحق، من شر الشيطان الموسوس بالشر، والذي يخنس، إذا ما استعان الإنسان عليه بذكر الله تعالى، كما أنه يلقي في صدور الناس ما يزين لهم الفحشاء والمنكر، وهذا الوسواس الخناس، قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس، فيتعين التعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، فإنه ما من أحد من بنى آدم، إلا وله قرين يزين له الفواحش، والمعصوم من عصمه الله.

فوائد ولطائف:

١- شرف الإنسان ومكانته المتميزة بين سائر المخلوقات، حيث أضيف لفظ الرب والملك والإله إلى الناس، وهذا تشريف لهم، وختمت سور القرآن الكريم بسورة سميت باسمهم.

٢- على الإنسان أن يلجأ إلى الله ليحميه من الوساوس والمنكرات.

٣- لشياطين الإنس دور في الإفساد كما لشياطين الجن.

٤- لا يزيد أثر الشيطان على الإنسان عن الوسوسة، فلا يتحكم به ولا يستطيع توجيهه كما يريد.

٥- اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الشيطان خفيا في ذاته لا يمكن رؤيته، وهذه حال قوة له، وهي في الإنسان حال ضعف أمام الشيطان، وبدلا من أن ننشغل بمحاربة الشيطان بوسائلنا القاصرة يعلمنا ربنا الالتجاء إليه ليحفظنا من كيد الشيطان ومن وسوسته وإغرائه، وفي التجائنا إلى الله قوة لنا في مواجهة هذا العدو الخفي.

٦- «من لم يُعذِّب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذّبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بدّ لكل أحد أن يعذّب

شيطانه أو يعذّبه شيطانه، وتأمل كيف جاء بناء ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ مكررًا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبدن وجاء بناء ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ على وزن الفعّال الذي يتكرر منه نوع الفعل، لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجاء بناء الفعلينِ مطابقا لمعنييهما»[1].

٧- من الفروق بين شياطين الجن والإنس، أن شيطان الجن إذا استعذت بالله تعالى منه خنس وضعف، أما شيطان الإنس فهو بحاجة إلى جهد مضاعف لمقاومته والتخلص من شروره، ومقابلة كيده بكل الوسائل الممكنة لإبطاله وإذهابه.

٨- في سورة الفلق وصف المستعاذ به بصفة واحدة، ووصف المستعاذ منه وهم الخلق بثلاث صفات، وفي سورة الناس وصف المستعاذ به بثلاث صفات، والمستعاذ منه بصفة واحدة.

٩- خَتمُ القرآن الكريم بهذه السورة، وبدؤه بسورة الفاتحة، فيه جمع بين حسن البدء وحسن الختام، لأن العبد يستعين بالله تعالى ويلتجئ إليه من بداية الأمر إلى نهايته، والقارئ مأمور أن يبدأ القراءة بالاستعاذة، وخُتِم القرآن بالاستعاذة، فتكون الاستعاذة حاصلة في طرفي البدء والانتهاء، ليكون القارئ محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره.

(١) بدائع الفوائد لابن القيّم ٣/ ٣٧٥، ويُحمل قوله أن الشيطان يعذب المرء يوم القيامة: أنه يكون سبب عذابه.

وبعد: فإلى هنا نكون قد انتهينا من تفسير سورة الفاتحة
وجزء عمّ وهو الجزء الثلاثون من كتاب الله
تعالى، بتوفيق من الله تعالى،
وكرمه وإحسانه.

نسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه، ونافعًا لطلاب العلم،
وأن يوفقنا للعمل بما تضمنه من توجيهات، وحكم،
وهدايات، وآداب، وأحكام، ومواعظ،
وأن يجعله في ميزان حسناتنا
يوم نلقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا
بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾
[الشعراء].

كما نسأله تعالى أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وأن يزيدنا
من الهدى والرشاد، وأن يؤتينا في الدنيا حسنة
وفي الآخرة حسنة وأن يقينا
عذاب النار.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المراجع

١- أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ) تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٢- الإسلام في سبع آيات، الفاتحة منهاج حياة، دراسة تحليلية لمقاصد سورة الفاتحة، وملخَّصه: مفاتح الفاتحة، عبد السلام مقبل المجيدي، دار الحديث الكتانية، المغرب، ط الأولى، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.
٣- أسماء سور القرآن الكريم، محمد الشايع، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ط الأولى، ١٤٣٢هـ.
٤- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ.
٥- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٦- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش (ت ١٤٠٣هـ)، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق وبيروت، ط الرابعة، ١٤١٥هـ.
٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، عبد الله بن عمر (ت ٦٩١هـ)، تحقيق محمد مرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، ١٤١٨هـ.
٨- أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري (ت ٢٠١٨م)، ط الثانية، ١٤٠٧هـ.

٩- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربع عشرة للقباقبي، محمد بن خليل (ت ٨٤٩هـ) تحقيق: أحمد شكري، دار عمار، ط الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٠- البحر المحيط في التفسير، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي جميل، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.

١١- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد بن علي بن آدم الإثيوبي، دار ابن الجوزي، ط الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٢- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن محمد بن عجيبة (ت ١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثانية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

١٣- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٥- تدبر المفصل، اللجنة العلمية في مركز تدبر للدراسات والاستشارات، الرياض، ط الأولى، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

١٦- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ) تحقيق: على الصالحي، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

١٧- التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، مجموعة رسائل دكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود، عمادة البحث العلمي، الرياض، ١٤٣٠هـ.

١٨- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة، ط الثانية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
١٩- تفسير القرآن العظيم، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز، ط الثالثة، ١٤١٩هـ.
٢٠- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ) دار الفكر، بيروت، ط الأولى، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٢١- تفسير مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) تحقيق: عبد الله شحاتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ.
٢٢- التفسير المنهجي، مجموعة من المفسرين، دار المنهل، عمّان، ط الأولى، ٢٠٠٤م.
٢٣- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير بإشراف مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
٢٤- التفسير الوسيط، لجنة من العلماء بإشراف مجمع العلماء البحوث الإسلامية بالأزهر، ط الثالثة، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٢٥- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (ت ٢٠١٠م)، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٨م.
٢٦- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد أبو منصور الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
٢٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، مكتبة عبد العزيز بن خالد آل ثاني، قطر، ط الأولى، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.

٢٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، أ - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط الثالثة، ١٣٨٨هـ. ب - تحقيق أحمد ومحمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٢٩- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣٠- الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، دار الجيل، بيروت.

٣١- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) تحقيق فريق من الباحثين، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

٣٢- جمال القراء وكمال الإقراء، علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣هـ)، تحقيق: عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩.

٣٣- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العلوي الهرري (ت ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م)، دار طوق النجاة، بيروت، ط الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٥- زاد المسير من أقوال أئمة التفسير، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٦- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المغني، الرياض، ط الأولى، ١٤١٢هـ، ٢٠٠٠م.
٣٧- السنن، أبو داود سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
٣٨- السنن، محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ) تحقيق: أحمد شاكر ورفاقه، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٩- السنن، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت ٢٧٣هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
٤٠- سور من القرآن الكريم مقاصد وقيم ودلالات (٥)، سورة عبس والزمر والطور والعنكبوت، سليمان محمد الدقور ومحمد سعيد بكر، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط الأولى، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.
٤١- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ)، أ - تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م. ب - تحقيق: مجدي السيد، دار الصحابة، طنطا، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
٤٢- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٠هـ.
٤٣- صحيح ابن حبان أبي حاتم محمد البستي (ت ٣٥٤هـ) بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
٤٤- صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ) المكتبة الإسلامية، عمّان، ط الأولى.

٤٥- الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور لحكمت بشير ياسين، دار المآثر، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.
٤٦- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط الرابعة، ١٤٠٢هـ.
٤٧- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تصحيح: محب الدين الخطيب، ١٩٧٣م.
٤٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.
٤٩- في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم (ت ١٩٦٦م) دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢هـ.
٥٠- الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) باعتناء: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
٥١- كلمات القرآن تفسير وبيان، حسنين محمد مخلوف (ت ١٩٩٠م)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
٥٢- اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الحنبلي (ت ٧٧٥هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية،بيروت، ط الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
٥٣- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ) دار صادر، بيروت، ط الأولى.
٥٤- مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره، محمد عياش الكبيسي، جامعة قطر، ط الأولى، ١٤٤١هـ، ٢٠١٩م.

٥٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية (ت ٥٤٢هـ) أ- تحقيق: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط الأولى، ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م. ب- تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥هـ.

٥٦- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ) مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٥هـ.

٥٧- المختصر في التفسير، جماعة من المفسرين، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ط الثانية، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

٥٨- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٩- المسند، أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.

٦٠- المسند، ابن أبي شيبة عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ) تحقيق: عادل العزازي وأحمد المزيدي، دار الوطن، الرياض، ١٩٩٧م.

٦١- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ) تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٢- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: طارق عوض ورفيقه، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٦٣- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط الثانية،

٦٤- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط الرابعة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٦٥- المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، دار نور المكتبات، ط الأولى، ١٤٢٧هـ.
٦٦- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصبهاني، (ت نحو ٤٢٥هـ) أ- تحقيق: صفوان عدنان داوودي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط الأولى، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م. ب- بعنوان المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت.
٦٧- المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، ط الأولى، ١٤٣٣هـ.
٦٨- موسوعة التفسير المأثور، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية في معهد الإمام الشاطبي بإشراف مساعد الطيار، دار ابن حزم، ط الأولى، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٧م.
٦٩- الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ) اعتناء: تقي الدين الندوي، دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩١م.
٧٠- الميسر في علم عد آي القرآن، أحمد خالد شكري، معهد الإمام الشاطبي، جدة، ط الثانية، ٢٠١٥م.
٧١- النحو الوافي، عباس حسن (ت ١٣٩٨هـ)، دار المعارف، ط الخامسة عشرة.
٧٢- نشر القراءات العشر، محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) تحقيق: أيمن رشدي سويد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط الأولى، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.
٧٣- النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٤- الهدايات القرآنية في سورة الفاتحة، عادل سليمان ضحوي، كرسي الهدايات القرآنية، جامعة أم القرى، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٨م.
٧٥- هدايات من جزء عمّ وأثرها في نهضة الأمّة، أحمد شكري، بحث مقدم في مؤتمر «إسعاد الإنسان بهدى القرآن»، ماليزيا، ٢٠١٨، ومنشور في مجلة «قرآنيكا» التي تصدرها جامعة مالايا.
٧٦- الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، ط الأولى، ١٤٢٩هـ.
٧٧- الوافي في هدايات كلام الله الكافي، تفسير وهدايات جزء عمّ، طه عابدين طه حمد، كرسي الملك عبد الله للقرآن الكريم، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.

فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الثانية ٥
تفسير سورة الفاتحة (١) ٩
تفسير سورة النبأ (٧٨) ٢٥
تفسير سورة النازعات (٧٩) ٤٧
تفسير سورة عبس (٨٠) ٦٥
تفسير سورة التكوير (٨١) ٧٩
تفسير سورة الانفطار (٨٢) ٩١
تفسير سورة المطففين (٨٣) ٩٩
تفسير سورة الانشقاق (٨٤) ١١٣
تفسير سورة البروج (٨٥) ١٢٥
تفسير سورة الطارق (٨٦) ١٣٥
تفسير سورة الأعلى (٨٧) ١٤١
تفسير سورة الغاشية (٨٨) ١٥٣
تفسير سورة الفجر (٨٩) ١٦٣
تفسير سورة البلد (٩٠) ١٧٧
تفسير سورة الشمس (٩١) ١٨٧
تفسير سورة الليل (٩٢) ١٩٥
تفسير سورة الضحى (٩٣) ٢٠٣
تفسير سورة الشرح (٩٤) ٢١١

تفسير سورة التين (٩٥) ٢١٧
تفسير سورة العلق (٩٦) ٢٢٣
تفسير سورة القدر (٩٧) ٢٣٣
تفسير سورة البينة (٩٨) ٢٣٧
تفسير سورة الزلزلة (٩٩) ٢٤٣
تفسير سورة العاديات (١٠٠) ٢٤٧
تفسير سورة القارعة (١٠١) ٢٥٣
تفسير سورة التكاثر (١٠٢) ٢٥٧
تفسير سورة العصر (١٠٣) ٢٦٣
تفسير سورة الهمزة (١٠٤) ٢٦٧
تفسير سورة الفيل (١٠٥) ٢٧١
تفسير سورة قريش (١٠٦) ٢٧٥
تفسير سورة الماعون (١٠٧) ٢٧٩
تفسير سورة الكوثر (١٠٨) ٢٨٣
تفسير سورة الكافرون (١٠٩) ٢٨٩
تفسير سورة النصر (١١٠) ٢٩٥
تفسير سورة المسد (١١١) ٣٠١
تفسير سورة الإخلاص (١١٢) ٣٠٩
تفسير سورة الفلق (١١٣) ٣١٥
تفسير سورة الناس (١١٤) ٣٢١
قائمة المراجع ٣٢٧
فهرس الموضوعات ٣٣٧